ظل السيف

اسم الكتاب: ظل السيف

تأليف: سامية أحمد

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 415 صفحة

عدد الملازم: 26 ملزمة

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 23656 / 2016

الترقيم الدولي: 7 - 582 - 278 - 977 - 978 : ISBN

١٤٣٨ هـ

٢٠١٧ م

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

Darelbasheer@hotmail.com

Darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01152806533 - 01012355714

ظل السيف

رواية لسامية أحمد

دار البشير
للثقافة والعلوم

في عصر الهزائم والانكسارات، وهوان الأمم، وفي محاولة للإمساك بآخر شعاع للشمس قبل غروبها، تتطلع أعين الناس وتتوق قلوبهم إلى بطل يخوض الخطوب من أجلهم وينتصر لهم. قد يخرجونه من بينهم أو ينسجونه من أساطيرهم.. لكنهم ينسون دومًا أنه منهم؛ ينتصر بانتصارهم، ويُهزم بهزيمتهم.

إهداء

إلى تلك الروح الغالية التي أمدتني بكل الحب والدعم،

إلى من أدين لها بكل ما تعلمته،

وأتعلمه،

أمي الحبيبة– عليها رحمة الله–.

شكر خاص

الشكر موصول للجنة الدعم والقراءة:

الكاتب الكبير د.أحمد السعيد مراد

الكاتبة المتألقة د.منى سلامة

صديقاتي الكاتبات:

سارة سيف الدين

رانيا الطنوبي

محبوبة محمد سلامة

منى عبد السلام

صديقاتي القارئات:

رزان فاروق

يارا ربيع

سارة أمين

نسرين محمد

سمية محمد

مروة حسام الدين

والصديق القارئ:

سهيل إسلام أنور، وأسرته الكريمة.

الشكر وحده لا يكفي لما قدمتموه من دعم لإخراج هذه الرواية بصورة مشرفة.

الأرض والطاعة مقابل السلام وعدم العدوان.

هذه هي ملخص الاتفاقية التي تمت بين فرناندو الثالث ملك قشتالة وابن الأحمر الأول مؤسس مملكة غرناطة عام (٦٤٣هـ -١٢٤٥ م).

آثر الأمير المسلم الإذعان والاستسلام، والقبول بأن يكون حاكم على رمانة الأندلس بالإنابة عن ملك قشتالة، والمشاركة في حصار وتسليم إشبيلية للأعداء؛ من أجل الحفاظ على قطعة الأرض التي يقف عليها.

وبعد السقوط المروع لطليطلة وقرطبة وإشبيلية وسائر الحواضر الإسلامية في الأندلس، لم يتبقّ للمسلمين من أرض الأندلس الواسعة سوى غرناطة وما حولها.

ونسي المسلمون أن الأمن والسلام تحت مظلة الأعداء ما هما إلا وهم الحَمل الضعيف يمني به نفسه قبل أن يأكله الذئب كما أكل إخوانه من قبل.

وكان حتمًا أن تُنبِت تربة الخنوع والاستسلام نباتاتٍ شيطانيةً أثمرت جواسيس ومتآمرين ومنتفعين ومنافقين. وفي المقابل كان لا بد للحق من فئة تنتصر له وإن كانوا قلة، لا يقبلون الذل ولا الخنوع، وإن قبضوا على الجمر، وتجرعوا الحميم.

هم من لا يرضون الدنية في الدين، ويحيون شامخين في ظل السيف.

(1)

لا أجمل من سماء الرمانة[1] الصافية في ليلة ربيع دافئ، والبدر بين النجوم كعروس تختال بين وصيفاتها.

فقط، لو يظل محدقًا في السماء، يراقب مجموعات النجوم، ويرسم بخياله خطوطًا بينها؛ لتتشكل بكافة الأشكال التي يتمنى أن يراها على الأرض!

لكن عمله في حراسة مخازن الأمير؛ ما كان يسمح له أن يبعد عينيه عن محل حراسته كيفما شاء. كم يمقت هذا العمل، ليس لأنه عمل ممل حدَّ الضيق، بل لأنه يحرس مخازن أحد اللصوص الذين يقتاتون على عرق وجهد الفلاحين.. لص يرتدي ثوب أمير!.

واحد من تلك الطائفة التي توحشت، وامتطت رقاب العباد، وصارت تجبي المال والبضائع والمحاصيل من الناس بكافة الوسائل.

فُرض عليه فرضًا، أن يكون واحدًا ممن يقومون على حراسة الأمير فرج، أخسّهم جميعًا، لا يكتفي ولا يشبع من الاستيلاء على ما ليس له بحق، حتى النساء!.

سمع صوتَ حفيف، فانتبهت حواسه وتيقظت جوارحه، وهبّ من موقعه فوق العلية، الذي اتخذه لنفسه؛ ليتمكن من مراقبة المنطقة بأسرها.

---

(1) الرمانة: غرناطة، سميت بالرمانة لجمالها وروعتها.

أخذ يدور فوق سطح العلية يفحص بعينيه الاتجاهات الأربع، يبحث من أين أتى صوت الحفيف. السوق جهة الشرق، والأرض الخلاء جهة الجنوب، وفي الغرب بيت المرابي اليهودي، وفي الشمال قصر الأمير.

لم يعثر على شيء في الجهات الأربع، فانزلق- برشاقة- عبر الحافة المائلة للعلية، ومنها إلى الجدار حتى وصل بسرعة إلى الأرض، واتجه لحارس الباب: هل سمعت شيئًا؟

نفى. فردّ بحيرة: لكنني سمعت صوتًا. عليَّ أن أخبر قائد الحرس.

رد عليه قائلًا: أنصحك ألا تفعل، فهو يكدر كلَّ من يفسد عليه نومه.

تركه الجندي حارس العلية، وأخذ يدور حول المخازن؛ يطمئن لعدم وجود دخلاء، ويتأكد من وجود الحرس في أماكنهم بالقرب من الأبواب والنوافذ.

لكن حواسه انتبهت من جديد على صوت الحفيف، وتجمد في مكانه، وأرهف السمع، وتحفزت جوارحه، حتى سمع صوت ارتطام مكتوم، فتطلع باتجاه الصوت القادم من جهة الغرب وأنفاسه تتسارع بإثارة، واستل سيفه بحذر. وعندما أدرك أنه لن يستطيع وحده البحث عن مصدر الصوت، انطلق إلى بيت قائد الحرس المجاور لقصر الأمير.

لم يستطع حارس البيت منعه من طرق الباب، فمن ذا الذي يقف أمام إصرار جندي بربري صنديد!

وقف الأمير الملثم لبرهة أمام باب القصر القديم، الذي تراكم عليه غبار السنين، واتخذت منه العناكب مقرًّا لبيوتها.

دفع الباب ممزِّقًا خيوط العنكبوت؛ فأصدر صريرًا مزعجًا يشكو تيبّس مفاصله لسنوات طوال، وهو يلج ببطء إلى ظلام البيت تتلقّفه ذكريات الماضي. وبخبرة من عاش في البيت لسنوات طوال، عرفت يده مكان الشموع الموضوعة على أحد الأرفف. وبمجرد أن أشعل إحداها حتى دهمه الألم، وهو يتأمل ذكريات ماضيه السعيدة والحزينة، يتأمل سنوات الألم والأمل، النصر والخذلان.

كل هذا رُسم بحبر لا ينمحي على جدران هذا البيت، بل على جدران قلبه.

سمع صوت صرير الباب، فالتفت خلفه؛ ليجد شيخًا مسنًّا يدفع الباب ويلج وهو يبسمل ويحوقل. وبمجرد أن وقعت عيناه عليه تجمد في مكانه، واتسعت عيناه شوقًا.

ابتسم الشيخ بمحبة، وأقبل عليه بحبور متجاوزًا فراق سنين في بضع خطوات، تعانقا- والدمع يترقرق، والقلوب ترتجف-، ثم وضع الأمير لثامه؛ فكشف عن وجه صبوح بعينين واسعتين سُكبت مدامعهما، وأنف مستقيم، وفم رفيع محاط بشارب مهذب، ولحية سوداء مستديرة ناعمة.

قال بصوت متهدج: كم من سنوات عجاف مرت دون أن أنعم بصحبة شيخ صالح مثلك!، دون أن أستمع لكلماتك التي تبث القوة

في روحي، وتملأ قلبي بالجَلَد، وبعد طول فراق نلتقي سرًّا بعيدًا عن الأعين كاللصوص والمجرمين!.

قال الشيخ هازئا: بل نحن أشد خطرًا من هؤلاء، قد يتحالف الأمراء مع اللصوص والأفاقين، ولنا اللد في العداوة والبغضاء.

افتقدتك يا شيخ أبا الحسن.

أما أنا فلم أفتقدك يومًا، وأنا أنعم بصحبةِ بضعةٍ غالية منك، أرى وجهك وروحك فيها.

هل تبلي بلاءً حسنًا؟

إنها الأفضل من بين كل أبنائك، لكنها تشعر بقلق دائم لا يشفيه علم ولا درس ولا كلمات.

مم؟!

تخشى أن تزوجها من أحد الأمراء.

الأمراء! إنهم داء تلك البلاد، أخشى أن يعلموا بخروجك من منزلك، فلقاءٌ كهذا قد يؤلبهم عليك.

فليقتلوني إن أرادوا، الشهادة خير غائب يُنتظر على شوق. إنما لهفي عليك وعلى أهل بيتك، لازال لديك الكثير لتقدمه لهذه الأمة المهزومة.

أي شيء تنتظره الأمة من قائد منهزم، وفارس محطم!.

المنهزم سيأتيه يوم وينتصر، ويجبر كسره ويعلو سيفه، لا يأس طالما يمتلئ القلب إيمانًا.

لو تعلم يا شيخ ماذا تفعل كلماتك بي! ما كنت لأخرج من محنة السجن بعد الهزيمة لولا رفقتك وكلماتك، التي كانت تمنحني القدرة على الصمود. لم أزل في كل صباح ومساء أجترّ آلام الماضي، ويعجزني السؤال.. هل ما فعلته كان صوابًا أم خطأ!

دعك من الماضي الآن، إنما أرسلت في لقائك لأمر هام؛ فلم يعد في أيامي أكثر مما مضى.

مُرني يا شيخي.

البهلول، أخشى أن يصيبه مكروه، أو يصير مشردًا في الطرقات والأزقة، إلى أين سيذهب إذا ما وافاني الأجل! ومن سيؤويه إن أتاني الموت في أية لحظة؟

أطال الله عمرك في طاعته يا شيخ، سأكون كافله، ولن أسمح لأحد بأن يصل إليه، أو يؤذيه.

أسأل الله أن يقر عينك، ويطمئن قلبك، ويرد لك ما فقدتَه.

شردت عيناه بعيدًا، وظهر فيهما الحزن والأسى، فربت الشيخُ على كتفه: عسى أن يكون قريبًا.

قال الأمير- بقلق: عليك أن تعود قبل أن ينبلج الفجر، وينتشر الجواسيس والمتلصصون، أو يشي أحدهم بك للحاكم.

قال: يا ولدي، لا تقلق؛ لو أن لي عملًا أؤديه في هذه الحياة، فسيمد الله في أجلي حتى أنجزه. قد نلتقي ثانية أو يكون لقاؤنا في الآخرة، وصيتي لك هي أن تحفظ تلك الجوهرة التي لديك، ولا تمنحها إلا لمن يستحقها.

ابتسم الأمير، وودعه بالأحضان والدموع، ثم رحل الشيخ. وانتظر الأمير لحظات، ثم أطفأ الشمعة، وانسلّ خارجًا من الباب.

لكن أحدًا منهما لم ينتبه لتلك الأعين التي كانت تراقبهما في الظلام، وتتربص لسنوات في انتظار ذلك اللقاء!.

***

هدأت الحركة في سوق البلدة مع آخر شعاع لضوء النهار، وانفض عنه الناس، وأغلقت أغلب الدكاكين أبوابها. وأخذت صاحبة دكان الخضر والفاكهة تُدخِل بضاعتها المعروضة في صناديقٍ أمام الدكان إلى داخل المخزن، وقد شمرت عن ساعديْن قويّين، وعقدت جديلتيها فوق رأسها كتاج أسود. سمعت جلبة شديدة تأتي من الدكاكين المقابلة لدكانها على الجانب الآخر من الطريق؛ فالتفتت خلفها لتجد كومة بشرية تتدحرج من دكان تاجر العطور إلى عرض الطريق، وصاحب الدكان يركُله بقدمه ويسبّه وينعته بقبيح الألفاظ، ثم تركه مكوّمًا على الأرض يتأوّه، وعاد إلى دكانه. هزت رأسها بأسف عندما عرفته، ثم قطعت الطريق نحوه بخطوات متمهلة وقبضتاها في خصرها، وخفُّها يقرقع بدقات رتيبة على أرض الطريق حتى وقفت فوق رأسه، وقد انحلت إحدى جديلتيها، وهوت على كتفها، ولم تهتم هي بإعادتها إلى مكانها.

أخذت تتطلع إلى الشاب الملقى أرضًا، وهو يتلوى ويتأوه، وهزت كفها عدة مرات استهزاءً: يا حسرةً على الرجال! قم أيها البائس.

اعتدل جالسًا ببطء، وألقى نظرة على تاجر العطور داخل دكانه قوبلت ببصقة احتقار من الآخر، أعرض بعدها عنه بتعالٍ.

أمسك الشاب بغطاء رأسه الذي سقط على الأرض بجواره، وارتداه، ثم حاول النهوض مرتين لكنه أخفق، فلوت فمها بضيق، ومدت يدها له؛ لتساعده على النهوض: لماذا قذف بك خارج دكانه؟

قال بصوت يبدو فيه السُّكر واضحًا: البخيل النتن، طلب مني أن أغني في عرس ابنته واختلفنا على الأجر، لا يريد أن يعطيني سوى قنينتين، وجادلته في ثلاث فألقى بي خارج دكانه.

قالت- هازئة: ألم يوقعك حظك العسر إلا في هذا البخيل!

قال- وهو يستند إلى ذراعها القوي، وينهض بصعوبة: وهل وجدت غيره!، لو صبر قليلًا؛ لكنت قبلتُ مرغمًا بالقنينتين.

نظر إليها بتوسل، وقال بصوت مهتز: ما رأيك أن تعطيني أنت القنينة الثالثة، وأغني لك حتى الصباح؟

نفضت يده التي تستند إليها؛ فسقط على الأرض، وقالت هازئة: استيقظ أيها السكير، ها هنا دكان خضراوات لا حانة.

سمعت صوتًا يأتي من آخر الطريق، فامتد بصرها نحوه بترقب واهتمام، فظهرت عربة فاخرة تجرها أربعة خيول، تأتي مسرعة. بدا على مظهرها أنها قادمة من خارج البلدة، مرت من أمامهما ثم توقفت

غير بعيد، خرج منها رجل سمين بملامح غليظة وشارب رفيع وعمامة ضخمة، وخلفه اثنان من الرجال الأشداء يقومان على حمايته. رفعت هامتها تواجهه بتحدٍّ وشجاعة عندما عرفته.

قال وهو يقترب منها، ودهنُ بطنه السمين يهتز أمامه: فاتيما العزيزة، اشتقت إليك.

نظرت إليه شذرًا- وهي ترفع إحدى حاجبيها- وقالت بصوت جَهْوَري: أي رياح نتنة ألقت بك إلى هنا يا عرَّةَ النخّاسين!؟

ابتلع الإهانة، وقال مداهنًا: ألقت بي رياح الشوق يا عزيزتي.
بصقت بحنق: ابتعد من هنا؛ فقد حانت ساعة تنظيف السوق من القذارة والوسخ.

ضغط أسنانه بغيظ، وقبض بكفه على ذقنها بقوة آلمتها، وهو يقول بغلٍّ: لولا احتياجي لك؛ لكنت قطعت لسانك السليط يا حبيبتي.

لم تستطع التملص من قبضته، وأكمل هو: امرأة مثلك كان يجب أن تلبس الحرير لا المرقع من الثياب، وتمشي على الذهب والفضة لا أوحال الطريق. أستطيع أن أجعلك أميرة تأمر فتطاع، فقط لو وافقت وقبلت بالعمل معي.

دفعت يده بعنف، فأفلت ذقنها. وصاحت وهي تصب عليه نظرات الاحتقار: أبعد من نجوم السماء إليك أيها القميء القذر، ارحل من هنا يا جوال العفن؛ فقد أزكمتْ قذارتك أنفي.

قال بغلٍّ: ليس قبل أن أقوم بتهذيبك أيتها النمرة المتوحشة.

أشار إلى رجُلَيه؛ فهجما عليها وقيّدا ذراعيها. نظرت حولها فلم تجد أحدًا سوى تاجر العطور، ومُشعلِ مصابيح الطريق؛ فأدركت أن لا أحد سيتحرك لإنقاذها؛ فأطلقت صراخًا مدويًا، ورجُلَي النخاس يسحبانها بعنف إلى داخل دكانها، ومقاومتها الشرسة عاجزة عن الخلاص منهما، وتبعهم النخّاس إلى داخل الدكان.

سمع صراخَها المدوي شابان من المدجنين، كانا يمرّان بالقرب من السوق، فقدما يهرولان. وعندما شاهدا العربة الفاخرة وسائقها؛ وقفا يراقبان بقلق دون تدخل، وصرخات المرأة المستغيثة لا تنقطع من داخل الدكان.

توقف بعض المارة في الطريق ينظرون تجاه الدكان، الذي تخرج منه الصرخات المستغيثة، ثم استمروا في طريقهم، وكأن شيئًا لم يكن.

بعد قليل، خرج النخاس من الدكان، وهو يهندم ملابسه، ويعدل عمامته، ويمسح على شاربيه الرفيعين بسبابته، وتبعه رجلاه.

التفت نحو الدكان وفي عينيه نظرات الظفر والشماتة، وأطلق ضحكات مدوية عندما رأى المرأة تخرج من الدكان ركضًا حافية القدمين بثياب ممزقة، والدمع ينهمر على وجنتيها، وقد حلت ضفائرها، وتبعثرت خصلات شعرها على وجهها وخديها، لكنه هرول بسرعة إلى العربة خشية أن يصاب بحجر كبير قذفته نحوه وهي تسبه بألفاظ ضاعت حروفها وسط صرخات الغيظ والقهر المدوية.

اعترض طريقها عَبْداه، ومدّا ذراعيهما أمامها، وسدًّا عليها الطريق حتى لا تصل إلى العربة؛ فأخذت تدفعهما بشراسة لتصل إليه، وأخذت تقذفه بكل حجر تطالُه يدُها من الأرض، لكنها عجزت أن تصيبه. أخذ يضحك بشماتة وهو يراها تصرخ بجنون وتسبه بكل ألوان السباب القاذع، وتقذف الأحجار باتجاهه، ويقول: أحبك وأنت مجنونة يا عزيزتي، عليك أن تفهمي أن العمل معي سيقيك كل هذا الهوان، وسيجعلك سيدة يطيعها الجميع.

ركب العربة، وقبل أن تتحرك، أخرج رأسه من النافذة، وقال متوعدًا: سأعود مرة بعد مرة؛ حتى أكسر رأسك اليابس، وأجبرك على ما أريد، إلى اللقاء يا حلوتي.

رحلت عربة النخاس، ورحل كلُّ من في السوق، وشعرت فاتيما بأن الحياة قد خوت من حولها، فهوت على الأرض تبكي بحرقة، وتلطم خديها. ولم تهتم لملابسها الممزقة، بل لم تحاول ستر جسدها حتى بُحّ صوتها وأرهق بدنها، وتحول صراخها إلى أنين مؤلم، شعرت بشيء يلقى على كتفيها العاريتين، فانتبهت إلى الرجل الذي ستر جسدها بعباءته، فقالت بصوت عركه الحزن: ألا زلت هنا!

كان جسده يهتز من السكر، فخرَّ جالسًا إلى جوارها، فأكملت دون أن تنظر إليه: لقد انتهى العرض، فلمَ لمْ ترحل؟!

جرع رشفة من قنينة في يده، ومدها إليها، فدفعت يده بعيدًا عنها، ودموع القهر والألم تسيل على خديها، ثم سألته بسخرية مريرة: من أين أتيت بقنينتك؟!

قال: سرقتها من الأبله تاجر العطور، وهو مشغول بمتابعة المشهد.
قالت بمرارة: إذًا، فقد تسببتُ أخيرًا بمنفعة لك.

قال بصوت تطفح منه المرارة والحزن: لمَ يفعل بك هذا أنت دون غيرك!؟ ما الذي يريده منك؟

قالت: يريدني أن أكون بغيًّا، وأدير له بيتًا للبغاء ينوي فتحه هنا في البلدة؛ ليتكسب من لحم النساء وعرضهن المسفوك.

ملأ الدمع عينيه، وقال بيأس: إذًا فلن يتركك وشأنك، وسيعيد الكرة كلما جاء إلى البلدة، لم لا تستسلمين لإرادته، وتفعلين ما يأمرك به؟ إذًا لأصبحَت حياتك أكثر أمنًا وراحة.

ضغطت أسنانها بغيظ: لن أكون أبدًا بغيًّا.

قال بأسى: وما الفارق! انظري إلى حالك البائس، وعرضك المبعثر على قارعة الطريق.

رفعت أنفها بشمم، وقالت بإباء: الفارق هو أنني آأبى ذلك، أرفضه؛ فليكن رغمًا عن أنفي وأنا لا قوة لي ولا حيلة، لكنه أبدًا لن يكون برضًا مني، لن أستسلم له أبدًا، لن أدعه يصنع مني المسخ الذي يريد.

تنهدت بآهة متحسرة: آآه، رحم الله أيام خيرٍ، كان لنا فيها أميرٌ عادل تقي، يحمي الضعيف، وينصر المظلوم، ويصون أعراض النساء، وينشر العدل والعلم بين الناس.

زفر بمرارة، وكرر بيأس: كان..

أراد أن يسري عنها؛ فقال: هل أغني لك؟ لا تقلقي، إنه عرض خاص دون مقابل.

أنصتت إلى صوته الشجي، ينساب كجدول عذب، وهو يتغنى الشعر حتى هدأت. سألته: خوليو، لمَ تُردي حالك إلى هذا السوء!؟

نكأت جرحًا يريد أن ينساه، فتناول رشفة من قنينته يطفئ بها لهيب روحه، وقال بألم: إنه العشق، أصابت قلبي سهامه؛ فأذهبت عني العقل، وأدمت روحي.

- بإمكانك أن تبرأ منه متى أردت.

- وإن برأت، فمن في سبيل العشق والهوى يصرعُ!

- يومًا بعد يوم، يتفلت الأمل في أن يتحرك أي من رجال البلدة المدجنين للخلاص من ظلم الكونت.

- ولمَ يتحركون؛ وهم ينتفعون منه ويتكسبون من وراء ظلمه؟!

قالت بحالمية، ودمعة تجري على خدها: أحلم بفارس أسود قادم من بعيد على حصانه الأسود؛ لينقذ البلاد، ويمحو الظلم عن العباد.

(فارس أسود!)، انفجر ضاحكًا حتى استلقى على قفاه، لم يكن ضحكًا بقدر ما كان مرارة ساخرة. صمت قليلًا، وأخذ يتأمل النجوم

التي تضوي في السماء، ثم التفت إليها: أنت تصدقين الأسطورة إذًا! هذا الفارس يسكن فقط خيال الضعفاء والمقهورين، أخرجوه من أحلامهم، وتظاهروا بأنه حقيقي ليسري عنهم ظلام الواقع المرير، إنه حلم، مجرد حلم؛ بل أضغاث أحلام.

***

برز رأس ملثم من فوق السور الغربي يرقب المكان بحذر، وتجول عيناه السوداوان يمينًا ويسارًا تتبعان ذلك الجندي الذي اتجه بخطوات سريعة نحو بيت قائد الحرس.

أخيرًا نجح في زحزحة ذلك العُقاب الرابض فوق العلية؛ ليستطيع تسلق السور. أشار بذراعه لرفيقه الذي برز من بين سعف نخلة قريبة باسقة؛ ليشحذ قوسه ويصوب سهمه من فوق النخلة باتجاه الحارس المجاور لنافذة المخزن وأطلقه؛ ليعبر من فوق السور، وينغرز في الجدار أسفل النافذة مباشرة. لم يخطئ السهم هدفه، فلم يكن الهدف هو الحارس.

التفت الحارس يتطلع في الظلام إلى ذلك الشيء الذي عبر بجوار رأسه، فوجد جذوة صغيرة مشتعلة معلقة بوسط السهم، وتطلق رائحة نفاذة. وعندما همَّ بأن يمسكها خرَّ مغشيًا عليه من أثر المخدر قوي المفعول، وظلت الجذوة مشتعلة حتى أتت عليه، وأنهته في لحظات، وتبددت الرائحة وانتهى مفعول المخدر في الهواء. وفي التوّ، ألقى ذلك الملثم بحبل فوق السور، ودلّاه جهة الداخل، وقفز فوق السور،

وهبط متعلقًا بعقد الحبل السميك حتى وصل إلى الأرض، واتجه إلى نافذة المخزن التي أفقد حارسها وعيه، وقفز منها إلى داخل المخزن.

قرع حارس العلية باب قائد الحرس بقوة عدة مرات، حتى أتاه صوت غليظ منكر يهمهم من خلف الباب ويبدو أنه يسب. زفر الجندي بضيق، ثم انتظر قليلًا حتى فتح الباب قائدُ الحرس وهو يزوم. منظره نصف عارٍ- وهو يفتح الباب- وتلك الجارية المستلقية بالداخل أجبراه على أن يبتعد عن الباب، ويشيح بوجهه إلى الجهة الأخرى حياءً.

سأله قائد الحرس عما أتى به، فأخبره بما حدث، فألقى سبابًا قاذعًا، وهتف: توقظني من نومي لأجل حفيف، اغرب عن وجهي، غدًا سيكون حسابك معي عسيرًا.

عاد الجندي إلى موقعه، والدماء تغلي في عروقه؛ فقائد الحرس البغيض ذكَّره بالأمير ابن سراج الذي كان ظلمُه يعمّ قرى غرناطة الغربية، فما أن صار فتًى يافعًا حتى اتخذه ابن سراج رغمًا عنه في زمرة جنده وحرسه.

كان الفتى مكرهًا أن يفتدي الحداد الذي كفله وربّاه؛ ليحميه من السجن، فذلك الجشع ابن سراج يجبي المال من الفقراء؛ ليملأ جوفه بالسحت ولا يشبع، ومن لا يدفع؛ فالسجن مصيره.

لكم يكْرَه تلك الطائفة من الأمراء والأعيان الذين تسلطوا على رقاب العباد، ويكتوي الناس من ظلمهم. لقد أمضى بضع سنوات من عمره في زمرة جند هذا الظالم، حتى أنجاه الله منه والتحق بالجيش، عندما رآه أحد الفرسان وأعجب بمهارته وقوته، فأوصى به لقائد

الجيش. ولكن تدور الأيام؛ ليجد نفسه من جديد حارسًا على مخازن الحبوب لأحد الظلمة الجشعين، رغم أنه جندي بالجيش.

سمع صوت الحفيف من جديد؛ فتحفزت جوارحه، وتحرك هذه المرة بحذر وهدوء؛ لكي يفاجئ المتسلل. اتجه جهة الباب الغربي، واطمأن إلى أنه موصد بإحكام، ثم سار بهدوء بمحاذاة جدار المخزن، فوجد الحارس ملقًى أرضًا، ورأى السهم مغروز بالجدار، فاستل سيفه بهدوء. وفجأة، لمح طرف جوال حبوب فوق النافذة فاتجه إليها على أطراف أصابعه دون أن يحدث صوتًا، فرأى متسللًا يتسوّر النافذة خارجًا من المخزن وهو يجذب معه الجوال، ثم ألقى بالجوال للخارج ثم قفز خلفه. أخذ اللص يجذب الجوال على الأرض، لكن رفيقه برز فجأة من فوق السور الغربي، وأطلق صفيرًا تحذيريًّا نبّه اللص إلى الجندي الذي يراقبه؛ فولّى هاربًا، لينطلق خلفه الجندي بإصرار.

لحقه الجندي واشتبك معه في معركة سريعة، وأسقطه أرضًا، ثم رفع سيفه لينهي الأمر بضربة واحدة. لكنّ ظلًّا أسودًا انعكست صورته على الأرض بينهما؛ جعل الجندي واللص يرفعان رأسيهما باتجاهه، فرأى هيئة رجل يقف فوق السور وقد استل سيفًا.

كانت هالة القمر تبدو من خلف الرجل، فتبرز هيئته بشكل يلقي الرعب في القلوب، ولكنها تخفي ملامح وجهه وجسده. حرك سيفه فانعكس ضوء القمر على نصل سيفه، فأصاب الاثنيْن الدهشةُ، قفز الأسود من فوق السور نحو الجندي مباشرة، وانهال على كتفه بمقبض

سيفه، فاختل توازن الجندي، وسقط أرضًا. وتدحرج مرتين قبل أن يقفز على قدميه برشاقة، ويواجه- بسيفه- سيفَ الفارس الأسود الملثم، بعد أن ظهرت ملامحه جلية أمامه. أخذا يتطلعان بحذر إلى بعضهما البعض، أصابته الدهشة، هل عاد حقًّا!

كم سمع من أساطير الفارس الأسود وحكاياته التي يتناقلها العامة بحماس بالغ؛ أمل الخلاص الذي يسري في نفوس الضعفاء والمقهورين!، هل أتى ليسترد حق الفلاحين والضعفاء؟!

كبلته الحيرة، هل يجهز عليه؟ أم يدعه يهرب؟ هل هو حقًّا الفارس الأسود، أم لصًّا يتمثل صورته وينتحل هيئته! تذكر أن عمله هو الحراسة، ولن يستطيع خيانة من استأمنه؛ فهاجم الفارس الأسود واشتبك معه في معركة بالسيف، ثم هتف بأعلى صوت له؛ لينبه الحرس الذين استنفروا، واتجهوا ناحية الصوت، لكن اللص الذي استغل فرصة انشغال الجندي في مبارزة مع الفارس الأسود؛ انطلق إلى السور ووصل إلى الحبل السميك المدلى من فوقه، أدرك الخطر المحدق بالفارس الأسود الذي أنقذه، فارتد عائدًا ليساعده.

قفز إلى نافذة المخزن، ثم أخرج منها جوالَ حبوب ورفعه لأعلى، وأشار بطول ذراعه لرفيقه الرابض فوق النخلة إشارةً يدرك جيدًا مغزاها، فألقى إليه بسهم به جذوة المخدر؛ لتغرز في الجوال، ثم ألقاه باتجاه الجندي المنهمك في معركته مع الفارس الأسود؛ فأصاب كتفه، وسقط تحت قدميه، لكن الرائحة النفاذة جعلت توازنه يختل للحظة قبل أن

يقفز عن محيط المخدر القوي، ويتقي تأثيره السريع؛ مما منح الفارس الأسود الفرصة للهرب، فانطلق إلى السور، وتسلق الحبل المدلى، وقفز إلى الجهة الأخرى من السور، وتبعه اللص وتسلق الحبل ووقف أعلى السور ونظر خلفه، فوجد الحرس يتجمعون، والجندي البربري يلاحقه. وعندما وجده قد أمسك بالحبل ويهم بتسلقه، نزع سيفه وقطع طرف الحبل من أعلى السور، ثم قفز إلى الجانب الخارجي.

تسلق الجندي السور خلفهما بإصرار، لكنه كان أبطأ من دون الحبل، وعندما وصل لأعلاه شاهد على ضوء القمر ثلاثة أشباح تجري مبتعدة على ظهر فرسين، حتى غابت عن ناظريه، وهو واقف فوق السور يلهث غيظًا.

***

على أحد الثغور الهامة المطلة على مضيق جبل طارق، كانت القلعة الحجرية الضخمة تقبع فوق هضبة عالية تطل على منحدر رأسي شديد الوعورة حتى البحر، والأمواج المتلاطمة تضرب جانب الهضبة الضخمة وتتكسر على الزوايا الحادة المخيفة للصخور المتناثرة أسفل الهضبة. وعلى الجانب الآخر، تطل القلعة على البلدة الصغيرة القابعة بين أحضان الحصن الكبير، وكأنها تراقب بيوتها ودكاكينها وآبارها ومقاهيها وحاناتها وسكانها. وعلى أعلى برج فيها، ارتفع صليب فضي ضخم، ورفرفت أعلام كثيرة فوق كل الأبراج الموزعة على السور الكبير للحصن تحمل شعار منظمة فرسان القلعة. وفوق الأسوار

الضخمة والأبراج، انتشر الحراس المدججين بالسلاح والدروع بكثافة.

وفي إحدى قاعات القلعة الضخمة كان يعقوب الإشبيلي يعمل بكل همة لإنجاز الاختراع الذي في يده. دخل الكونت ريموند حاكم الحصن القاعة دون أن يشعر به، وأخذ يراقبه باهتمام وهو يعمل. كان الكونت ريموند قائدًا محنّكًا شديد البأس والشراسة، من أصول فرنسية، ويتمتع بوسامة بالغة ووجه جادٍّ صارم الملامح، وله شعر ذهبي ناعم مصفف بعناية. كانت شجاعته الفائقة وبطولاته في الحروب المتتالية ضد أعداء ملك قشتالة سببًا في فوزه برضا الملك وعطفه، فخلع عليه الأوسمة والألقاب والهدايا والهبات، واقتطعه تلك الكورة الكبيرة المشتهرة على أحد الثغور الهامة والقريبة من حاضرة غرناطة، وكذلك مساحات شاسعة من الأراضي التي استولى عليها من المسلمين كمكافئة لبلائه الحسن في المعارك والحروب إلى جواره هو وجنوده من منظمة فرسان القلعة.

فجأة، ألقى يعقوب بالمواد التي في يده أرضًا، وداسهم بحذائه في غيظ شديد وهو يطلق سبابًا قاذعًا. سمع يعقوب صوت حذاء الكونت ريموند يقرع الأرض ببطء، وهو يتقدم نحوه، ويقول ببرود: تُرى.. وصلنا إلى المرة الكَمْ من الإخفاقات؟!

قال يعقوب- والغل يقطر من كلماته: لو كان ذلك القذر حيًّا؛ لنجح الأمر من المحاولة الأولى، لكن قدره أن يهلك من الجوع في رحلة هروبه من إشبيلية.

– وأنت! أين ما تعلمته وما حفظته؟ أبعد خمس سنوات من مرافقته تخرج خالي العقل بلا أية فائدة أو معلومة!.

– الغبي احتفظ بكل أسراره لنفسه، ورفض أن يطلعني عليها، ذلك الخبيث الكاذب ظل يخدعني ويوهمني لسنوات بأنه لم يتوصل بعد للتركيبة الصحيحة.

– لو كان توصل إليها حقًّا، لكان أفشى سرها تحت ضغط التعذيب؛ لكي يرحم نفسه من العذاب، وعائلته من الهلاك.

– أنت لا تعرفه ولم تتعامل معه، ليس هناك من هو أشد منه عنادًا وصلابة!.

– لم يعد التقليب في الماضي يجدي، وعليك أن تبذل أقصى ما تستطيع، وتعتصر عقلك؛ لتتوصل إلى التركيبة الصحيحة.

قاطعهما دخول أحد الحرس: سيدي الكونت، التاجر أبو سارة ينتظرك في قاعة الزائرين.

أومأ إليه؛ فانصرف الحارس. التفت إلى يعقوب، وقال بلهجة منذرة: نريد إنجازًا بقدر ما أنفقناه عليك من وقت ومال و... ومواد كيميائية تدوسها بقدمك، واحذر أن أفقد الأمل في قدرتك على التوصل للتركيبة؛ فستكون حتمًا نهايتك.

غادر القاعة بخطوات واسعة قوية يتردد صداها في أذني يعقوب، وقد امتلأت نفسه بالرعب من تهديد الكونت، الذي يعرفه جيدًا، ويعرف عنه شدة القسوة والبطش.

***

وقف الجندي الشاب ثابتًا كاستقامة رمح غُرز في الأرض، والأمير فرج يدور حوله مرتديًا ملابس النوم عاقدًا كفّيه خلف ظهره، وقائد الحرس يقف على مقربة منهما ينهشه القلق، ويأكل قلبه الحقد على ذلك الجندي الذي أحال الليل جحيمًا، وأيقظ الأمير.

ووقف بقية الحرس في الجهة المقابلة، ينتظرون- بقلق- ما سيقوله الأمير. التفت الأمير فرج لقائد الحرس، وقال بلومٍ: إذًا فقد طرقَ عليك بابك، وأعلمك بأن هناك متسللين؟!

قال قائد الحرس بارتباك شديد: ليس بالضبط مولاي الأمير، كان يتحدث عن حفيف وأصوات مريبة.

- فطردته، وعدت لنومك!

- ظننته مخبولًا يهيئ إليه وساوس..

- هل أذهبَت الجاريةُ عقلك؛ فبت لا تعرف مهام عملك! من الليلة لن تمس أية امرأة تلك العتبة حرة كانت أو أمة، أما الجارية فستنضم إلى حريم القصر.

اسودَّ وجه قائد الحرس، ورمى الجندي بنظرات الحقد والغل، فابتسم الأمير فرج باستهزاء، ثم التفت إلى الجندي، وقال: وأنت أيها الفتى، ستكافئ على مهارتك بالعطايا والهبات، تمنّ عليّ.

شعر الجندي بغصة في حلقه، وضيق في صدره، فقال: مولاي، كنت فقط أقوم بواجبي، ولا أريد أكثر من راتبي.

وقف الأمير خلفه مباشرة، واشتعلت نفسه بالغضب، فهمس في أذن الجندي بلهجة فيها ملمح تهديد- وهو يطحن ضروسه: لا ترتكب مثل هذا الخطأ الأخرق أمام الحرس، عطايا الأمراء لا تُرد.

فكر الجندي لحظات، ثم قال: أتمنى أن أعود جنديًّا في كتيبة للجيش تحرس أحد الثغور.

اتسعت عينا الأمير فرج بالغضب، وحدثته نفسه بعقاب ذلك الجندي الأخرق الذي يصر على رد هبة الأمير أمام الحرس، لكنه أعرض عن ذلك؛ خشية أن يترك أثرًا سيئًا في نفوس الحرس، وقال باقتضاب: لك هذا.

تلك الراحة التي كست ملامح الجندي، وبريق الفرح في عينيه رغم ثباته؛ أصابت قائد الحرس بالدهشة، أي مجنون هذا الذي يفضل حياة الثغور الشاقة على البقاء في مروج غرناطة!

فجأة، سمع الجميع صراخًا مدوّيًا باتجاه الغرب، أتى من بيت المرابي اليهودي؛ فأشار الأمير لقائد الحرس باستطلاع الأمر، فأرسل

أحد الحرس إلى بيت المرابي، وسرعان ما عاد ومعه الخبر.. لقد سُرقت خزانة المرابي اليهودي.

لم يكن هذا هو ما أثار دهشة الجميع، فهي لم تكن سرقة عادية، فالسارق لم يسرق مالًا، بل سرق دفاتر الرهونات وصكوك القروض. هتف الأمير- بغيظ: إذًا فسرقة مخازن الحبوب كانت فخًّا للتغطية على سرقة المرابي!

هتف قائد الحرس الذي وجد فرصته السانحة للانتقام من الجندي: ترى، هل تم الأمر بالاتفاق مع أحد الحرس!.

التفت إليه الجندي- وعلى وجهة نظرة استنكار ممزوجة بالغضب، وقد فهم ما يرمي إليه قائد الحرس؛ فهتف: عملي هو حراسة المخازن، ولا علاقة لي بأي شيء يدور خارجها.

همَّ قائد الحرس أن يقول شيئًا، فأسكته الأمير ونظراته تتردد بينهما: هذا يكفي.

أقبل على الجندي الشاب، وقال: أنت محق، ولقد قمت بعملك جيدًا، وستحصل على ما أردت.

رحل الحرس جميعًا، وآخرهم الجندي الشاب الذي ودعه قائد الحرس بنظرات الحقد والغل. قال الأمير: عليك أن تشكره، لقد نجوت بفضله.

التفت له قائد الحرس والدهشة تعلو ملامحه، فقال الأمير: لو تمنى أن يكون قائدًا للحرس لكنت أنت في السجن الآن. لكن ذلك الصنف الأخرق من الحمقى الأفضل له أن يبقى بعيدًا، فلا مكان له هنا.

أشار له بسبابته مهددًا: احرص على عملك، وعلى رقبتك؛ ففي المرة القادمة لن يكون هنا أحمق مثله؛ لينجيك مما سأفعله بك.

تحسس قائد الحرس رقبته، وازدرد ريقه الجاف بصعوبة، ثم غادر المكان بإشارة من الأمير الذي بقي وحده ينظر باتجاه بيت المرابي ويطحن الغيظ طحنًا.

هل عاد الفارس الأسود من جديد!

ومن غيره يمكن أن يكون هو؟

كان يظن بأنه لن تقوم له قائمة مجددًا بعد أن انكسر ظهره. ولكن، ها هو يعود من جديد، ويرتكب في ليلة واحدة ما لم يفعله في سنوات.

همس من بين أسنانه: حسنًا أيها الأمير المجاهد؛ لقد جلبت الخراب عليك وعلى أهل بيتك. وفي المرة القادمة، سأحرص جيدًا على ألا تقوم لك قائمة مجددًا.

***

حفل عرس مهيب في قصر حاكم غرناطة، دعي له الأمراء والأعيان ونساؤهم.

رباط صهر جديد بين أسرة الحاكم وبني أشقيلولة؛ فابنة أخت الحاكم عبد الله بن الأحمر ستتزوج من أحد أمراء بني أشقيلولة الذين ساندوا وناصروا ابن الأحمر في تأسيسه لمملكة غرناطة، وحاربوا معه أعداءه؛ فكافأهم على ذلك بإقطاعهم مساحات شاسعة من الأراضي والضِّيع، وقربهم إليه فمنحهم المناصب الرفيعة، ووَلَّاهم على القرى والحصون والثغور؛ ليضمن ولاءهم له.

تزينت الأحياء والطرقات لهذه المناسبة الهامة، وترقب العامة يوم العرس الذي ستقام فيه الولائم، وسينال العامة والفقراء والمساكين خيرًا كثيرًا، وسيتذوقون لحم الذبائح التي سيذبحها الأمراء للوليمة.

وفي قصر الحاكم، كانت قاعة النساء الفخمة الضخمة تمتلئ بالمدعوات، وتحتفي بجمع كبير من نساء الأمراء والأعيان. جدرانها تتزين بقطع الرخام الملون المهنْدَس ببراعة وفن. وفي السقف، تجويف قبة كبيرة ترتفع على أعمدة من الرخام مزينة بنقوش بديعة، وكل عمودين متصلين من أعلى على شكل نصف دائرة،وعلى الشريط السفلي للقبة تراصت قطع زجاجية ملونة تغطي فتحات ينفذ منها ضوء الشمس إلى داخل القاعة بشكل بديع ينثر الضوء الملون في المكان. ونساء الأمراء والأعيان يختلن في أبهى حلة وزينة، ويفترشن الأرائك المخملية المريحة، ويتحدثن في فخامة العرس وزينة العروس وثيابها الفاخرة، وما قد تفعله تلك الزيجة في أمور الحكم وما سيتقلده العريس من مناصب.

وكانت أم عمرو تجلس على إحدى الأرائك في ثوب أخضر حسنٍ مطرز بالقصب، وجدائلها الطويلة السوداء معقودة على ظهرها في طوق واحد من الزهور البيضاء، وهي تستمع إلى جاراتها بوقارها وهدوئها المعهود، وتوزع بشاشتها على الجميع. وعن يمينها، جلست زوجة رئيس الشرطة، وهي امرأة تماثلها في العمر، ممتلئة الجسد، ترتدي ثوبًا شديدَ البهرجة باهظ التكلفة، يُظهر الكثير من مفاتن جسدها، ووجهها الممتلئ قد تلوّن بالكثير من الزينة، وبين يديها مروحة فاخرة مطرزة بحبات صغيرة من اللؤلؤ تحرك الهواء أمام وجهها، وهي تشير إلى صبية حديثة السن رائعة الحسن تجلس تحت قدمي ابنتها وتحمل عنها رضيعها قائلة: أوصيت زوجي أن يحضر لي جارية حبشية من أسفاره للمشرق، فأبى إلا هذه، فوهبتها لابنتي الكبرى.

انطلقت ضحكات صويحباتها معجبات بفطنتها، ومعالجتها للأمر.

والتفتت أم عمرو تتأمل الصبيّة الجميلة، ورق لها قلبها، وحمدت الله أن ابنتها عائشة لم تشهد هذا المشهد.

كفت المرأة عن الضحك، وانتبهت إلى نظرات أم عمرو للصبية، وأدركت- على الفور- ما يعتمل في نفس امرأة اشتهرت بين نساء غرناطة بشفقتها على العبيد وعطفها على الإماء. وتستفز فضول نساء الأمراء بأفعالها الغريبة، وتختلط بعوام وفقراء الناس وتقربهم من مجلسها؛ فأجابت سؤالها الذي لم تتفوّه به: أصبت في حدسك، هي عربية مسلمة.

نظرت لها باستنكار؛ فـأكملت: من سبايا التتار في المشرق، اشتراها زوجي من سوق النخاسة بثمن بخس.

غاب عقلها للحظات عن ثرثرات النساء المملة، وملأها العجب والضيق من ذلك الوضع المزري الذي ضرب مشارق الأمة ومغاربها، فمن يصدق أن تسترق الفتيات المسلمات في المشرق؛ ليشتريهن مسلمون في المغرب! عادت تتذكر إصرار ابنتها عائشة لمعرفة مصير عشرات الآلاف من نساء حواضر وحصون وقرى الأندلس، التي استولى عليها الأعداء واتخذوهن سبايا. تُرى في أي أرض بِيعوا، وأي موالي امتلكوا مصائرهن!.

انتبهت للمرأة وهي تسألها بفضول: أين ابنتك عائشة؟ لا أراها هنا!

تطلعت الأم بنظراتها في أنحاء القاعة، وقالت بابتسامة تحاول أن تخفي بها حرجها: أظن أنها في الحديقة؛ فهي تحب الشمس الدافئة والهواء الطلق.

قالت المرأة بأنفة: جيدٌ أنها أتت؛ فأم الأمير فرج هنا اليوم خصيصًا لتنتقي عروسًا لابنها، ولا شك أن ابنتك عائشة سيحالفها الحظ السعيد إن وقع اختيارها عليها، فكما تعلمين إن والده من بني أشقيلولة أصهار الأمير الحاكم، كما أنه ذو منصب رفيع. إن زيادة روابط المصاهرة بين بني نصر وبني أشقيلولة فيه فائدة كبيرة للجانبين، ويساعد على استقرار البلاد، أليس كذلك!؟

قالت الأم بابتسامة مجاملة: فليفعل الله ما فيه الخير.

قالت المرأة– وهي تهز المروحة برقة: ألا زالت تهتم بتلقي العلم وقراءة الكتب!

قالت– محافظة على ثبات ابتسامتها: نعم.

قالت المرأة بلهجة محذرة: انصحيها أن تكفّ عن ذلك؛ فقد كبرت سنها، ولا فتاة في عمرها في سائر غرناطة تفعل ما تفعله ابنتك. لو بلغ الخطّاب ذلك فسينصرفون عنها، لا بأس أن تشغل وقتها بشيء مفيد مثل حياكة الصوف أو تنسيق الورود؛ فكثرة المطالعة قد تؤثر على جمال عينيها، وكلامها الكثير في العلم والفقه قد يزوي أنوثتها، ولن يكون هذا في مصلحة ابنتك ولا زواجها.

اكتفت من كلماتها، فألقت إليها بابتسامة مغتصبة، ونهضت من مجلسها: أرجو المعذرة، سأذهب لأرى عائشة.

جلست مكانها على الأريكة امرأة أحد الأمراء، وهمست لزوجة رئيس الشرطة بعد أن وصل حديثهما إلى مسامعها: مسكينة! تأمل أن تتزوج ابنتها من أمير.

قالت زوجة رئيس الشرطة: لم أشأ أن أحطم آمالها، لكن فتاتها الصغيرة لا يمكن أن تتزوج من أحد الأمراء طالما بقيت على أفكارها المتشددة وأسلوبها الجدالي الخشن الشبيه بأسلوب الرجال.

المرأة الثانية: ربما تكون جميلة بعض الشيء، لكنها تفتقد إلى حكمة المرأة وأسلوبها الناعم الرقيق.

قالت- وهي تهز مروحتها: عليها أن تكف عن التفكير في الأمور التي لا تهم سوى الرجال، أين هي من ابنتي روزيلما الرقيقة الوديعة!

***

في البهو الرئيسي للقصر، اجتمع أكابر البلدة من أمراء وأعيان وتجار، ومن بين المدعوين أمراء من مملكة قشتالة، وتجار من مملكة أرجون.

كان الأمير فرج منهمكًا في حديث ودِّي مع أمراء مملكة قشتالة، ثم التفت نحو الركن الذي يجلس فيه أخوه الأمير فضل يتحدث إلى تجار مملكة أرجون عن المصالح المشتركة بينهم والقوافل التجارية التي يرسلها تباعًا إلى مملكة أرجون؛ فابتسم- باطمئنان- عندما وجد أخاه يبلي بلاءً حسنًا.

وقع نظره على تاجر الحرير «أبو هشام»، والذي يعد من أكبر تجار وأعيان البلدة، وضاقت عيناه وملأت رأسه الظنون عندما وجده يقف بين مجموعة من التجار والأعيان يتحدث ويضحك ولا يبالي بشيء، وكأنما خلت رأسه من الهموم.

انتبه أبو هشام لنظراته؛ فصمت لحظات، وبادله النظرات، وكأن بينهما جسرًا خفيًّا لا يدرك مدى هشاشته سواهما، ثم أدار أبو هشام ظهره له، وعاد للحديث مع رفاقه.

وصل أبو سارة إلى العرس متأخرًا؛ متعللًا بسفره الطويل، يترجرج دهن بطنه السمين أمامه، فسلم عليه فرج بحرارة، والتف حوله جمع من أمراء غرناطة، وأمراء قشتالة، وتجار أرجون مرحبين يسألونه عن

تجارته وأخبار المشرق والمغرب والجديد في أسواق العرب والروم والعجم، وحتى التتار. ثم انسل فرج من الجمع، وانضم إليه فضل وسار معه الهوينى في بهو القصر، يوزع ابتساماته وإيماءاته بين المدعوين. سأله فضل بصوت منخفض: بلغني أنك قررت أن تتزوج أخيرًا.

- تمامًا كما أخبرتك أمي.

- أنت قادر تمامًا على إلحاق الدهشة بكل من يعرفك، فمفاجآتك لا تنتهي، تمتنع عن الزواج حتى ييأس الجميع من زواجك، ثم تفاجئهم برغبتك في الزواج بعد أن يوقنوا بأنك ألفت حياة الأعزب ولا تستطيع استبدالها بحياة أخرى.

- وهل شكت لك أمي من ذلك!؟

- لا، إنها سعيدة للغاية؛ لأنك- أخيرًا- ستتزوج، لكنها معترضة على انتقائك فتاة بعينها.

- وما عيب ابنة الأمير عمرو؟!

- هل تحاول إقناعي أن من تذوَّق كافة أصناف النساء أحرارًا وإماءً، ثيباتٍ وأبكارًا، عربيات وقشتاليات وبربريات، ومن كل البلاد؛ يسعى للزواج من صبية غرة، لا تجيد حتى الكلام كالنساء كما تصفها أمي!

- يكفي أنها أميرة من بني نصر.

- أصدقني القول، هل اخترتها لما عُرف عنها من أنها لم يخالط قلبها عشق رجل من قبل كسائر فتيات تلك الأيام، كما تقول أمي؟

- بل؛ لأنها ابنة الأمير عبد الرحمن.

- كان علي أن أتوقع أن أخي عندما يفكر في الزواج، فلن يكون إلا زواجًا سياسيًّا، وأن النساء بالنسبة لك لسن سوى وسيلة.

- بلغني من أعينٍ لي أن لقاءً في الخفاء تم بين الأمير عبد الرحمن والشيخ "أبو الحسن" في قصر الغابة.

- يا إلهي! هل يدبران لشيء ما؟!

- طالما ابنته تحت يدي؛ فلن يستطيع فعل أي شيء، لهذا فلابد أن تتم تلك الزيجة بأي ثمن.

- وماذا لو لم يقبل!

- لن يستطيع معارضة أمر الحاكم، ما أسهل إقناع ابن الأحمر بأن هذا الزواج هو صمام أمان للجميع، وضمان لعدم عودة الثورة من جديد.

- قبل أن تقنع الحاكم، عليك أولًا إقناع أمك، فهي لا تشعر بأية مودة تجاه الفتاة وأمها.

- اطمئن، لدي الوقت الكافي لذلك، وسأقنعها.

❋❋❋

في حديقة القصر كان الشباب والفتية يمرحون، ويلعبون، وفي كل ركن كانت مجموعات من الشباب تتسابق أو تتبارز أو تتصارع؛

فالعرس كان فرصة رائعة لتجمع الشباب وإظهار مهاراتهم.

وعند منصة رمي السهام، وقف هشام يشد قوسَه، ويصوّب سهمه نحو الهدف، وعمرو يتابعه وعلى ثغره استقرت ابتسامة ثقة بالنسبة لصديقه؛ فإلقاء سهم على لوح التصويب في وضح النهار لعب أطفال بالمقارنة بالتصويب على جوال حبوب من فوق نخلة تحت جنح الليل.

أطلق هشام سهمه، لكنه أخطأ نقطة المركز، وابتعد عنها كثيرًا، فضحك الشباب والفتية، وأمطروه بالتعليقات الساخرة.

اقترب منه عمرو، وهمس في أذنه بغيظ: لمَ أخطأت الهدف عامدًا؟!

- لهم اللعب، ولنا الجد.

- ولم لا يكون لنا الجد واللعب أيضًا؟!

- من يحب الفخر سيرتكب حتمًا الأخطاء، لا أظنك مستعدًّا لأن ينكشف أمرنا! دعهم يلعبون، فقد حققت كل ما كنت أبتغيه، وحصلت على صكوك الدَّيْن الخاصة بأبي، وانتقمت من ذلك المرابي القذر. لو رأيت قدر الفرحة التي غمرت وجه أبي عندما وجد الصكوك في الصباح أمام باب البيت! وكأن روحه رُدت إليه.

- إذًا، فأنت لا تنوي أن تكررها مجددًا!

- فقط إن احتجت لذلك.

- في البداية، ظننت أني أنقذ والد صديقي من مؤامرة خبيثة.

- لم تكن مؤامرة المرابي وحده، لقد اتفق الخسيس مع الأمير فرج الذي أمر قطّاع الطرق لسلب القافلة التي كان يعتمد عليها أبي

في تسديد دينه للمرابي، فأعجزه عن تسديد الدين. لم أرَ أحقر ولا أخس منه!

- ما فعلناه ليس بهين، لقد جن جنون الأمراء لسرقة المرابي، ورئيس الشرطة ينشر رجاله في أنحاء البلدة، خاصة بعد ظهور الفارس الأسود.

- لمَ لمْ تخبرني بأمره من قبل؟!

- أمر من!

- صديقك، الفارس الأسود.

- ليس صديقي.

- أهي لعبة جديدة من ألاعيبك؟!

- ألا تصدقني!

- وهل تواجده في نفس الوقت الذي كنا فيه هناك مصادفة!

- لا أدري، لكنه ساعدني، وأنا لا أعرف من هو.

- إذًا، علينا أن نعرف من يكون.

- ما يشغلني الآن هو الاطمئنان إلى أن أمرنا لن ينكشف.

***

وقف الأمير عبد الرحمن يراقب ابنه وهو منخرط في نزال الشباب في حديقة القصر. غاب عقله لبرهة عن المشهد الذي أمامه، وثقلت نفسه بالهموم والأحزان؛ عندما مر بعقله طيف من الماضي القريب يحمل صورة شاب يملؤه الحماس له وجه كالبدر.

انتزعه من شروده صوتٌ هامس آتٍ من خلفه: ولدك يبلي بلاءً حسنًا، ذاك الشبل تربّى في عرين ليث.

عرف الصوت من فوره، وتعجب أن يتحدث إليه محمد الفقيه، فهو يعلم جيدًا أن رؤيتهما معًا لن تمر مرور الكرام على الأمراء.

لم يلتفت خلفه، وجالت نظراته في المكان بقلق يتوجس أن ينتبه إليهما أحد، ثم رد بنبرة حزينة وصوت منخفض: الليوث شاخت، وتساقطت أسنانها من بعد أن كبلتها المعاهدات.

- وإن شاخت الليوث يبقى الأمل في الأشبال.

وأنت أحسنت الغرس والزرع، فصار لك فارس تقي، وزهرة تربت في جنات العلم فحَسُن نباتها.

- أخشى ألا تجد بستانيًّا ماهرًا يرعاها.

- ما أكثر من يغبطونك عليها، لكم تمنيت لو يكون أحد أبنائي بمثل حرصها على العلم.

خفض صوته أكثر- وهو يكمل محذرًا: من الأفضل أن تكتفي بما تعلمته، وتقرّ في بيتها، فقد يتبعها أحدهم ويعرف إلى أين تذهب وعلى يد من تتلقى العلم.

صمت لحظات مفكرًا في كلماته، وقد أدرك لهجته التحذيرية، ثم همس دون أن يدير وجهه: يفعل الله ما يريد.

قال بأسى: الجميع جن جنونه! شيخٌ هرمٌ لم يتبقّ له في الحياة قدر ما مضى، صار أشد خطرًا عليهم من ملك قشتالة! أخشى عليكما مما يمكن أن يرتكبه الأمراء.

- وأنا أخشى على الرمانة مما يمكن أن يفعله بها القشتاليون إذا ما تحالفوا مع الأمراء.

- لازلت أحاول إقناع الحاكم بأن يدع فرجة في الباب الذي بينه وبين بني مرين في المغرب، فقد تلجئنا الظروف يومًا للاستعانة بهم. ولكن يبدو أن بني أشقيلولة يخوّفونه من ثورة داخلية، والآن صار الخوف حقيقة بعودة الفارس الأسود من جديد، وصار أمله الوحيد في أن يستظل بظل ملك قشتالة لحماية غرناطة.

- بل لحماية العرش والإمارة.

ألقى بكلماته الغاضبة كبصقة من بين أسنانه، ثم تركه ورحل،

وأخذ يدور في الحديقة ينظر إلى الشباب وهم يلعبون، وعقله في مكان آخر.

❋❋❋

أخذت أم عمرو تجوب حديقة النساء في القصر، تبحث عن وحيدتها في كل ركن، تمر بين أشجارها الرائعة المتراصة بنظام جميل، وأحواض الزهور بكل الألوان تتوزع في المكان بترتيب راقٍ، والصبايا الصغيرات يمرحن ويلعبن بصخب محبب. وفي الوسط، بركة ماء كبيرة من الرخام

الملون تسبح فيها أسماك الزينة الصغيرة، وفوق أركان البركة السداسية الكبيرة تراصت تماثيل، كلٌّ منها على شكل أسد جالس يخرج من فمه سلسال من الماء يَصْب في البركة الكبيرة، وعلى طرفها جلست أميرة عربية حسناء بثوبها الأرجواني الحريري المطرز بتطاريز عربية متقنة، وموشى بخيوط ذهبية وحلى ملونة، وينسدل بنعومة على ساقيها الرشيقتين.

بعينين كعيون المها، كانت عائشة ابنة الأمير عمرو تتأمل السمك وهو يسبح في البركة وابتسامة هادئة رقيقة تزين ثغرها الوردي ونسمات الهواء العليل تداعب خصلات شعرها الأسود المموج الطويل المنسدل على كتفيها. كانت تراقب تلك السمكة البرتقالية ذات البقع الذهبية وهي تنتقل بسرعة من مكان لمكان، لم تكن الأجمل لكن سرعتها تخطف الأبصار.

مدت عائشة كفها ببطء في الحوض حتى غمرتها المياه، ثم تجمدت حركتها حتى اقتربت السمكة البرتقالية من يدها، فتحرك كفها بسرعة، وقبضت على حفنة من الماء وأخرجت كفها من البركة بسرعة. رفعت قبضتها أمام وجهها والماء يتساقط منها، وعندما فتحتها بحرص كانت السمكة البرتقالية بين أصابعها ترتجف وتتلوى. ضحكت بسعادة، ثم أعادت السمكة إلى البركة فانطلقت تسبح مبتعدة، ثم مدت يدها من جديد في البركة وحركتها بسرعة، لكنها تلقت ضربة موجعة في كتفها من قبضة أمها التي كانت تقف خلفها مباشرة تراقب ما تفعله، فصرخت بألم: آه.

ثم قفزت من مكانها والتفتت تواجه أمها، ويدها خلف ظهرها.

قالت الأم بغيظ: وإن رأتك إحداهن ترتكبين تلك الأفعال المجنونة، ماذا ستظن بعقلك! تتركين العرس ومجالس النساء لتلعبي بالأسماك!

قالت بصوت خالطه الألم من قوة الضربة: وما عيب الأسماك!، يكفي أنها لا تعرف الثرثرة والغيبة.

وضعت الأم كفها على جبينها، وقد شعرت بأن ابنتها ستصيبها بالجنون: رحماك يا إلهي. حسنًا، سأخبر كل من تسأل عنك أنك تفضلين صحبة الأسماك على حفل يضم نسوة المدينة!

تبينت لهجة التهكم المغتاظ في صوت أمها، ورغم ذلك قالت: فقط لو تخبرينهن أنني أفضل صحبة كتاب على صويحبات يوسف!

زفرت بضيق: أوف، لم لا تتركين المشاكسة للصبايا! صرت كبيرة يا فتاة، رفيقاتك صار لهن أطفال يتعلقوا بذيلهن.

هتفت بمشاكسة: بل تحملهن الإماء ليتفرغن للثرثرة والزينة وارتياد الأسواق.

قالت بحزم: كفي عن الجدال، واتبعيني للحفل، وإياك أن تتحدثي بهذه الطريقة أمام الملأ.

زفرت بغيظ: كما تأمرين يا أمي، سأسد حلقي بسمكة، علها تخنقني وأرتاح من تلك التجمعات البغيضة للأبد.

نظرت لها أمها نظرة متوعدة، ثم اتجهت للقاعة.

فتحت عائشة كفها؛ لتنظر للسمكة التي أخفتها عن أمها، فوجدتها

قد قضت نحبها في يدها، فهزت رأسها بأسف، وهمست: غفر الله لك يا أمي.

ثم ألقت بالسمكة الميتة في البركة، وتبعت أمها إلى قاعة النساء.

***

شق السيف الهواء في ضربة قاسية مصوبة بعناية نحو رأس الجندي الأشقر البربري القوي وهو ثابت لا يتحرك وسيفه مستقر في يده، تملأ عيناه الثقة، ويغشى الجمود ملامحه الفتية. وقبل أن يصل السيف إليه، أوقفه بنصل سيفه الحاد القوي، ثم دفعه بقوة بعيدًا. علت صيحات الإعجاب من الجنود الشباب الذين تحلقوا حول المتبارزين، وأطلقوا همهمات حماسية، إلا ذلك القائد الذي وقف هادئًا يراقب باهتمام لمن تكون الغلبة!

نجح الجندي الأشقر في صد ضربة خصمه ببراعة، ثم رفع سيفه أمام وجهه حتى لامس أنفه، ثم رفعه عاليًا، واندفع يهاجم خصمه بضربات سريعة قوية أجبرته على التراجع خطوات للخلف محاولًا صد ضربات السيف العاتي بصعوبة. ظل الأشقر يوجّه له الضربات المتتالية العنيفة بسرعة ومهارة وقوة، وخصمه يتراجع حتى أنهكه صد الضربات القوية، وعجز عن الصمود؛ فسقط أرضًا.

اشتعلت أعصاب الجميع حولهما من فرط الإثارة، وانصبت عليهما نظرات الترقب والاهتمام، وعقد القائد ذراعيه أمام صدره في انتظار الحركة التالية. رفع الجندي الأشقر المهاجم السيف أمام أنفه ولمعت عيناه بنظرة شرسة.

فجأة، فعل شيئًا عجز عن استيعابه الجميع؛ فقد قفز خطوتين للخلف ثم التف بسرعة في شبه دائرة، وقفز لأعلى بمهارة، وهبط بقدمه اليمنى على كتف أقرب المتحلقين إليه، ثم دفع جسده عاليًا؛ فارتفع محلقًا كطائر جارح يحمله الهواء لأعلى.

هبط من علٍ وهو يرمي بسيفه القوي فوق خصمه، الذي شله الذهول في مكانه وهو يراقب ذلك العُقاب المحلق، وهو ينقض عليه بسيفه. احتبست الأنفاس في الصدور، وتجمد الجميع وهم يراقبون نصل السيف ينزل على رأس الشاب الذي يفترش الأرض، لكن السيف تجاوز رأسه، وانغرز بجواره في الرمال حتى منتصفه. هبط الشاب الطائر على قدميه أمام خصمه، وأخذ يلتقط أنفاسه، وهدأت ملامحه الثائرة، وتبدلت نظراته الصارمة لخصمه بأخرى ودودة. ومد يده إليه يساعده على النهوض.

انطلقت صيحات الإعجاب، والتف الجنود جميعًا حول الجندي الأشقر يهنئونه على تفوقه على خصمه في المبارزة، في الوقت الذي رحل فيه القائد بصمت.

في تلك الليلة جافى النوم عيني الجندي الأشقر؛ فانطلق من خيمته باتجاه الشاطئ، واستلقى على الرمال الندية يتطلع إلى النجوم في السماء، وعلى وجهه ارتسمت أمارات الهدوء والسلام.

انضم إليه صديقه أحمد، الذي قال وهو يجلس بجواره على الرمال: كنت أعلم أنني سأجدك هنا، اعتدت أن تصلي وقت السحر، والبحر يهدر بجوارك.

قال باسمًا: مرحى، لقد انتهيت لتوي.

- القائد معجب للغاية بمهارتك في النزال. هنيئا لك، بت أقرب للانضمام إلى الفرسان، لم يتبق سوى أن يوصي بك القائد إلى قيادة الجيش، وتنالها.

- أحلام، أنت أكثر من يعلم كيف يدار الأمر في هذا الجيش، وعلى أي أساس يتم اختيار الفرسان. فمثلي لا قيمة له هاهنا، طالما لا يتصل بنسب أو صهر أو معرفة بأحد الأمراء أو الأعيان أو القادة، ولا مال لدي لأنال ما لا يسرع به نسبي.

- أغبياء لو لم يفعلوا، فأنت الأفضل في كل النزالات والتدريبات بشهادة الجميع. لست جنديًّا عاديًّا أبدًا، مكانك لا يصلح إلا بين الفرسان، بل مكانك الحقيقي بين القادة.

- هل أنت متأكد أنك توجه كلامك إلى الشخص الصحيح؟ لا أظن أن النوم جافاك الليلة فقط لتردد على مسامعي هذا الكلام!

- بل أتيت لأخبرك أن غدًا سينضم إلينا لواء من جيش قشتالة للمشاركة في تدريبات الفروسية والمنازلات المسلحة.

اعتدل جالسا باهتمام، وارتسم الغضب على وجهه، فقال أحمد بقلق: قضيت الأمسية أفكر كيف أخبرك؟

استغرقه التفكير وطال صمته، وهو يقلب الأمر في رأسه محاولًا إيجاد مخرج، وأحمد يحاول إدارة دفة الحديث إلى وجهة أخرى

ليمتص غضبه، وهو لا يعي شيئًا مما يقوله. زفر بضيق، ثم انتفض من مجلسه، وألقى بعمامته وشرع في خلع ملابسه، فهتف أحمد بدهشة: ماذا تفعل!

قال باقتضاب: سأتحدث قليلًا إلى الأسماك.

اندفع يجري على الرمال ليس عليه سوى سرواله، وألقى بجسده تحت طبقات الماء البارد علها تهدئ من غليان دمائه، وأحمد يناديه فلا يجيبه إلا صوت الموج.

***

(2)

كانت ضحكاتها تتردد في أركان القاعة الكبيرة الفاخرة المعدة لاستقبال الزائرين في القلعة، وهي تستمع إلى نكاته وطرفه وحكاياته المثيرة التي يجمعها من كل البلاد التي يمر بها في رحلاته وتجارته وأعماله، وحولهما الموائد العامرة بأطايب الطعام والشراب مما لا يقدم إلا إلى زوار الأميرة خوانا- زوجة الكونت- المقربين.

أطلقت الأميرة ضحكة عالية، وهي تقول بود: يا لك من رجل! ما كان عليك أن تخاطر بحياتك من أجل المال.

مسح بسبابته على شاربيه الرفيعين، وهو يشاركها الضحك: إنه المال يا مولاتي.. ذاك الذي إليه عقلي مال، كما أنني لم أخاطر كما تظنين؛ فقد تركتهم في السفينة يتقاتلون على الفتات، وهربت بالصندوق.

- والسلاح!

- أي سلاح؟

- ما كانوا يتقاتلون لأجل الحصول عليه!

- تقصدين تلك السيوف والخناجر الصدئة القديمة؟ تركتها لهم بالطبع.

أطلقت ضحكات عالية، وشاركها هو الضحك، وبطنه السمين يترجرج في حجره، ثم قالت: ثعلب، أنت ثعلب ماكر يا "أبو سارة".

هدأت ضحكاتها، وتناول- هو- بعضًا من الفاكهة التي أمامه.

تفحصت القاعة بعينيها حتى اطمأنت أنه لا أحد يستمع إلى حديثهما، فمالت عليه وسألته باهتمام: هل جلبت لي ما طلبتُه؟

قال وهو يخفض صوته، ويحني رأسه باحترام: وهل يمكن أن أخذل ثقة مولاتي! كل ما أمرتني به أحضرته من ذهب وحرير وبضائع و..

غمز بعينه، وهو يكمل بلهجة خاصة: وعبيد.

هزت رأسها وتناولت بضع حبات من العنب، ثم قالت بصوت حرصت أن يكون خفيضًا قدر الإمكان: هل مررت في طريقك بقشتالة؟

ابتسم بخبث: لم تكن في طريقي، لكنني عرجت عليها؛ لأجل مولاتي.

لمعت عيناها بشوق وإثارة: وكيف حالهم هناك؟

قال: يرسلون التحايا والأشواق على أجنحة طيور الحب، ويقبّلون الأرض تحت أقدامكم، ويتوقون لزيارتكم القادمة للبلاط.

أشرق وجهها بابتسامة شوق وحنين، وقالت ودقات قلبها تتسارع: والـ..

قاطعها بصوت هامس؛ كي لا يغلبها الشوق، فتتناثر الكلمات من فمها، وتصل إلى الكونت: مولاتي، خادمك المخلص لن يخذلك

أبدًا، كل ما أمرت به موجود في صندوق الذهب الذي أعطيتنى إياه قبل سفري في المرة السابقة، تسلمته من يديك محكم الغلق، ومفتاحه معك، وأعدته كما هو، ومفتاحه مع..

أكمل الجملة بغمزة من عينه اليمنى؛ طمأنتها أن المهمة تمت بأفضل مما تمنت، فقالت: أيها الصديق الوفي المخلص أبو سارة، تأكد أنني سأذكر اسمك دائمًا في بلاط ملك قشتالة بكل خير.

قال: أبو سارة دائمًا في خدمتك، وخدمة ملك قشتالة، مولاتي.

دخل الكونت إلى القاعة؛ فهب أبو سارة قائمًا: السيد العظيم الكونت ريموند.

حيّاه الكونت، وجلس على كرسيه، ثم قربه من مجلسه قائلًا: حسنًا أبو سارة، هل أحضرت معك صناديق السلاح التي طلبتها؟

أحنى رأسه، وقال بتبجيل: كما أمرت سيدي الكونت، أبو سارة لا يخلف وعده، المركب في المرفأ تنتظر أمر سيدي؛ لتفرغ حمولتها.

قال باستعلاء: أهي جيدة أم كالتي تبيعها للمسلمين؟

قال بمداهنة: لكل نوع ثمنه سيدي، فليس من يجزل العطاء كمن يدفع بالأجل، لقد اختبرت بنفسك جودة بضاعة "أبو سارة" في مرات سابقة.

قالت الأميرة خوانا، مؤيدة: أبو سارة من أخلص الأتباع.

تفحصهما بعيني نمر، وغلبته طبيعته المتشككة: سأفحصها بنفسي.

أحنى أبو سارة رأسه بخضوع.

– وكيف هي أخبار الرمانة؟

– تفتح ذراعيها شوقًا لاستقبالكم سيدي.

– هل الأمور بها مستقرة؟

– على الحال الذي يرضيكم سيدي، إلا من ذلك الشيخ الذي يقض مضاجع الأمراء ويقلق راحتهم.

– أي شيخ؟

– الشيخ أبو الحسن، ذاك الذي أشعل الثورة سابقًا في غرناطة، وحرض الناس أن يرفضوا المعاهدة التي بين ملك قشتالة وابن الأحمر حاكم غرناطة.

– أخبرتني في المرة السابقة بأنه حبيس بيته بأمر الحاكم، ولا يلتقي أحدًا.

– بلى سيدي، ولكن الأمر به بعض الخطورة، فالشيخ له أتباع وتلاميذ يلتقونه سرًّا، كما أن ولي العهد (محمد الفقيه) وبعض أمراء بني نصر حكّام غرناطة؛ يتعاطفون معه. وعلمت أخيرًا أن لقاءً سريًّا تم بينه وبين الأمير عبد الرحمن في قصر الغابة القديم.

انتفض الكونت ريموند من مكانه عندما أتى على ذكر اسم الأمير عبد الرحمن، ودارت في رأسه أحداث كثيرة قفزت من الماضي أمام عينيه في لحظة، وأشعلت غضبًا عارمًا في عروقه لم تشي به ملامحه الباردة الجامدة.

بدأ يلقي أبو سارة المزيد من الحطب قبل أن تخمد النيران: إن التأخر في إيجاد حل لتلك المشكلة قد يزيد من سوء الوضع، اجتماعهما معًا قد يكون شرارة من تحت الرماد، تقدح لتشعل ثورة جديدة.

التفت إليه ريموند، وقال كمن ينبش في نوايا من أمامه: أنت تخشى أن تلاحق أعمالك الخسارة في الربا وبيوت البغاء إذا ما عادت الثورة إلى غرناطة من جديد.

- الشيخ أبو الحسن له لسان ومنطق يجذب الناس، ويجعلهم يلتفون حوله، ويستجيبون لكلماته كما لو كان ساحرًا، كما أن الأمير عبد الرحمن زعيم و..

- أمرهما لا يعنيني، فلا هما ولا آلاف مثلهما يستطيعون شيئًا أمام قوة جيوش قشتالة ومهارة فرسان القلعة، وأمير غرناطة هو أضعف من أن ينقض المعاهدة.

اقتربت منه خوانا حتى صار عطرها يداعب أنفه، وقالت: صديقنا العزيز أبو سارة، كن مطمئنًا، فلا أحد يجرؤ أن يتحدى أقوى ملك على أرض الأندلس الآن.

- ولكن مولاتي..

قاطعه الكونت مبدلًا الحديث: ألن تكف عن إثارة المشكلات كلما قدمت إلى هنا؟

قال وهو يمسح شاربيه بسبابته: هل شكتني ثانية؟

- لا، أظنها قد يئست من تكرار الشكوى دون طائل، لكن أخبار أفعالك وصلتني، وصارت سيرتك سيئة في لسان العامة.

- الذنب ذنبها، لو أطاعتني لارتاحت من الفقر، ولعاشت كالأميرات.

قالت الأميرة بدلال: هناك آلاف من النساء غيرها، لم تصرّ على تلك المرأة المتوحشة؟ إنها سليطة اللسان وتثير الزوابع والمشكلات دائمًا.

لمعت عيناه بالإصرار والعناد: وهذا هو ما يثيرني. تلك النوعية من النساء تحرك الجبال إن أرادت، لديها القدرة على إشعال الحروب، والموهبة في تحريك الناس، ودفعهم بلهيب لسانها المشتعل دومًا.

تراقص حاجباه، وهو يمسح على شاربيه: إنها امرأة من الصعب وجود مثيل لها.

زفر بغيظ: فقط لو انضمت إليَّ تلك الغبية...

قال الكونت بنفاذ صبر: إن أردتها فلتأخذها، حتى وإن بعتها في سوق الرقيق كما تفعل بالنساء اللاتي تخطفهن من القرى والمدن، لا أهتم. فقط فليكن بعيدًا عن هنا، ولا تثر المشكلات في طرقات البلدة.

لمعت عيناه بالإثارة، وهز رأسه إعجابًا بالفكرة.

❋❋❋

وصل اللواء القادم من قشتالة، وحط رحاله، وهُرِع قائد المعسكر إلى خيمة قائدهم مترجلًا. وفي طريقه، قال لأحد أعوانه: أرأيت

الجندي البربري الذي قام بالمبارزة بالأمس؟ مُرْه أن يتجهز، ويرتدي زيه كاملًا، أريد عرضًا أقوى مما قدمه بالأمس، علينا أن نذهل ذلك المتغطرس. اشرح له أن يومًا كهذا يعزز مكانته لدى القادة، وقد يرفعه إلى مرتبة الفرسان.

استقبله القائد القشتالي ببرود وتعالٍ، وسار معه في جولة في أرجاء المعسكر، وأخذ قائد المعسكر يشرح له التجهيزات والإعدادات، وتطور تدريبات الجند والفرسان، وهو يستمع له بلامبالاة. فجأة، التفت إليه، وسأله: بلغنا أن بعض الأمراء والقادة لديكم لهم علاقات قوية مع أمراء مملكة أرجون.

ارتبك القائد وتعرق وجهه، فهو أكثر من يفهم طبيعة الحرب الدائرة بين مملكة أرجون ومملكة قشتالة، وتسابق كل منهما على سيادة أرض الأندلس. همَّ أن يقول شيئًا يدرأ به التهمة عن نفسه، لكن القائد القشتالي لم يمنحه فرصة، فقال بلهجة قائد يأمر جنديًّا لديه: أمر كهذا يغضب الملك.

فتح فمه مهمهمًا: آآ

- ربما يتغاضى ويتسامح في حق الأمراء أو التجار، لكن قادة الجيش- تدري- لهم وضع مختلف.

- سيدي القائد..

- فقط أنبه وأحذر، وعلى قادة الجيش أن يكونوا أحرص الناس على نيل رضا ملك قشتالة.

بمجرد أن رحل القائد القشتالي لتفقد جنوده، ابتلع القائد الغصة التي سدت حلقه وزفر بضيق.

ما إن بدأت التدريبات والنزالات حتى وقف القائد يتطلع إلى ظهور ذلك الجندي الماهر، وهو يمني نفسه برؤية علامات الدهشة والإعجاب على وجه القائد القشتالي عندما يشاهد مهارة الجندي. استفاق من شروده على صوت استغاثة أحد الجند بوجود غريق، انطلق القائد من فوره إلى الشاطئ؛ ليجد مجموعة من الجنود يتعاونون في إخراج الغريق من الماء، ويجرون له إسعافات الإنقاذ. وعندما نظر في وجهه وشعره الأشقر امتلأت نفسه بالغضب.

أقبل عليهم أحمد مهرولًا، وعلامات الفزع في وجهه، وانحنى على صديقه يتفحصه. وعندما اطمأن أنه حي سأل أحد الجند عما حدث، فأجاب: كان يسبح؛ فسحبه تيار الماء إلى العمق، ورأيناه وهو يغرق فهرعنا لإنقاذه. احمد الله أنه لازال حيًّا، لقد مر وقت وهو يصارع الغرق قبل أن ننتبه له.

نظر أحمد إلى وجه صديقه الغائب عن الوعي، وقال: فلننقله إلى خيمة الجند.

وفي آخر النهار، والشمس تميل إلى الغروب، والشفق الأحمر يملأ الأفق ويلوّن السحب المتناثرة في السماء بلون وردي رائع فوق صفحة البحر الشاسعة؛ وقف الأشقر على الرمال البيضاء يتطلع إلى الأفق البعيد بعينيه الزرقاوين، وكأن البحر سكب فيهما بعضًا من

ألوانه. وأخذ يملأ روحه بجمال المشهد الرباني، ويستقبل مداعبات النسيم العليل المحمل برائحة الملح لخصلات شعره الأشقر الناعم البارز من تحت عمامته، ويفكر فيما وراء البحر. هؤلاء القوم الذين ينتمي إليهم ويحمل آثارهم في ملامحه وجسده وخلقه وقلبه. شعر بيد قوية على كتفه توقظه من الاستغراق في أفكاره وتأملاته، فالتفت ينظر إلى صديقه أحمد الذي قال له بودٍّ: لعلك استرحت الآن!

- أحدث شيء؟

- أفلتّ من التدريبات مع جند قشتالة، القائد أمر لك ببضعة أيام راحة.

- حقًّا!

- يبدو أن القائد يخشى أن تثير المشكلات؛ فعمل على إبعادك حتى تمر فترة التدريبات بسلام دون مشاكل.

- حسنًا فعل.

- إن كنت سترحل في الصباح، فانضم إلينا لنلهو ونمرح ونقضي ليلة رائعة في البلدة المجاورة.

- لا رغبة لدي.

- لا تكن عنيدًا، عليك أن ترافقنا، هناك ستجد ألوانًا من المرح واللهو في الأسواق والساحات، ما رأيك أن تذهب معنا إلى المقهى الغنائي؟ أضمن لك أن تستمتع للغاية.

- تذكر آخر مرة ذهبت فيها مع الشباب إلى البلدة وما حدث هناك؟ لا أنوي أن أقضي حياتي في شجار تلو الآخر.

- ما كان ينبغي عليك أن تتصدى للدفاع عن امرأة لا تعرفها.

- حسنًا، ها أنا أؤثر السلامة، وأبتعد عن أسباب الشجار.

- وتبقى وحيدًا! لا أفهم كيف تتحمل حياتك تلك! ما الذي يجذبك للبحر لتقضي أغلب وقتك بجواره، أي متعة وأي سعادة في وقفتك تلك!

- أفكر في ما وراء هذا البحر.

- أنحني لك احترامًا أيها الفيلسوف، ولا تشرح لي مقاصدك، كالعادة لن أستطيع فهمك مهما أسهبت في الشرح.

- حسنًا، الأمر ببساطة هو أنني اشتقت لشيخي، أفتقد حديثه، أفتقد نصائحه.

- دائمًا ما أسمعك تتحدث عن شيخك! هذا ليس جيدًا لمن هو في مثل عمرك. شاب مثلك مليح الوجه قوي الجسد من المفترض أن تشغل النساء عقله ككل الشباب، ألا تتطلع للزواج من فتاة جميلة؟!

- الزواج قدر، تمامًا كالموت، لا يأتي إلا بأجل.

- يا للعقل الكبير، لو بقيت معك أكثر من هذا قد تتساقط أحجار عقلي، وينقض بناؤه.

لوح له أحمد مودعًا وهو يبتسم، وسار بضعة خطوات، ثم التفت إليه، وهتف قائلًا: إن بدلت رأيك تعرف أين تجدني، وداعًا.

عاد إلى هدوئه وتأملاته وتطلعت عيناه إلى ما وراء البحر الكبير؛ فزفر زفرة حارة.

***

في الظلام الدامس والليل بلا قمر، لا تسمع في طرقات البلدة سوى صرير الرياح وحفيف أوراق الأشجار المتناثرة في الطرقات. في أحد الأزقة الطويلة الملتوية، كانت قطعة من الظلام في هيئة إنسان تتحرك في الزقاق بحذر.

ذو جسد طويل مغطى بعباءة سوداء يلفها جيدًا حوله من فوقه لتحته، وعندما مر بجوار أحد الفوانيس المضيئة بضوء خافت؛ لمعت عيناه الرماديتان من خلف لثامه الأسود الملتف حول وجهه من تحت عمامته السوداء. كان يتلفت يمينًا ويسارًا كما لو كان ينتظر أحدًا، وسرعان ما خرج له شخص آخر ضخم وملثم أيضًا من خلف جدار جانبي، يبدو على ملابسه مظاهر الغنى. ودون كلمة، استمر الملثم بالسواد في طريقه يميل مع ميل الزقاق، الذي يتلوى كالثعبان يمينًا ويسارًا، والشخص الآخر يتبعه وهو يتلفت حوله بقلق خشية أن يلمحه أحد.

أخذا يتهامسان وهما مستمران في السير صعودًا ونزولًا عبر الأزقة الضيقة، سأله المغطَّى بالسواد: ما هي المهمة بالضبط؟

- أن تفعل ما تفعله دائمًا.. القتل.

- والثمن؟

- ضعف أجرك المعتاد.

- يبدو أنه شخص هام للغاية.

- يمكن أن يفتح علينا أبواب جهنم إذا ما سنحت له الفرصة.

- عمومًا هذا ليس من شأني.. المهم هو الأجر.

- ما ستطلبه ستأخذه مهما كان.

- قدومك إليّ مباشرة دون المرور على الزعيم، يعني أن الشخص المستهدف قد يثير قتله زوبعة لا يمكن السيطرة عليها.

- وما الذي يقلقك في ذلك إن كنت ستقتله دون أن يعرف أحد شخصيتك؟

- لا يقلقني شيء، ولا يهمني إن عرفوا أنني قاتله أو لم يعرفوا، لكن الثمن يجب أن يكون بقدر الشخص المطلوب.

- حسنًا، ما رأيك بقصر فاخر في مروج غرناطة!؟، هناك بعيدًا قرب الغابات.

توقف الأسود لحظة عن السير، وكأنما فاجأه الأمر، وشعر الآخر بأنه قد حصل على ما يريد.

عاد الأسود للسير، وقال كلمة واحدة: اتفقنا.

لم ينطق أي منهما بكلمة زائدة، وظل الأسود مستمرًا في طريقه، وتباطأ الرجل الآخر حتى اتسعت المسافة بينهما، واختفى تمامًا بين الأزقة الضيقة الملتوية.

خرج الأسود من الزقاق إلى الطريق الرئيسي الكبير، وتباطأ في سيره عندما رأى حصانًا يسير في الطريق أمامه، وفوقه شاب يرتدي زي الجنود المحاربين. توقف ليدع الجندي يمر بحصانه أولًا قبل أن يعبر الطريق. وأخذ يتأمل الجندي الشاب على حصانه، وبادله الجندي بنظرات متعجبة من مظهره الغريب كما لو كان شخصًا لا يرغب في أن يكتشف هويته أحد، وتعجب أكثر من تواجده في تلك الساعة المتأخرة من الليل في الطرقات.

مر الجندي سريعًا، وبقيت عيناه معلقة بالرجل ذي المظهر الغريب حتى عبر الطريق، واختفى تمامًا في الظلام.

***

في أحد الأزقة الضيقة المتفرعة من سوق القلعة، يقبع مسجد صغير، كان- يومًا ما- بيتًا لأحد المدجنين، حوّله إلى مسجد بعد أن هدمت كل مساجد البلدة، يجاوره مبنى مهدَّمٌ ذو حجارة بيضاء، كان- يومًا ما- حمام البلدة، لكن الأميرة خوانا أمرت بهدم كل الحمامات.

جلست فاتيما متربعة أمام شيخ المسجد الذي تجاوز التسعين بسنوات ولحيته البيضاء تغطي بطنه. أخذ يتفحص بياض جلدها وبدنها البض، وفتحة جيبها بتمعن بعينين ضاقتا من ارتخاء الجفنين العلويين

المترهلين تحت وطأة حاجبين تفاقم فيهما الشعر الأبيض بغزارة، وتبعثر في كل اتجاه بلا نظام.

انتبهت فاتيما لنظراته المتلصصة، فوضعت قبضتيها في خصرها، ومالت للأمام وهي تزوم كقطة متوحشة. انتفض منتبهًا، ووضع يده على القصعة التي بجواره، وملأ خيشومه برائحة الزيرباجة[1] التي تفوح من تحت المنديل الذي يغطيها، ثم قربها إليه وأخذها تحت جناحه: هااا، يقولون أن لا أفضل من فاتيما في صنع الزيرباجة في السوق كله.

امتعض وجهها وارتفع حاجبها الأيمن، وهي تقول وجسدها يهتز غيظًا: لم أسمع رأيك يا إمام المسجد!

تنحنح قائلًا بصوته الواهن: رأيي في ماذا؟

- فيما فعله النخاس بي، ألن تفعل شيئًا بهذا الصدد؟

- يا بنيتي، إن الله يأمرنا بالصبر على المكاره، وطاعة الحاكم المتغلب، و..

---

(1) الزيرباجة طعام من المائدة الأندلسية. «تؤخذ دجاجة سمينة تنظف وتجعل في قدر بملح يسير وفلفل وكزبرة يابسة وقرفة وزعفران، ومن الزيت الحلو والخل قدر الكفاية، وترفع على نار معتدلة، فإذا نضج لحم الدجاجة يؤخذ من اللوز المقشر المدقوق، ومن السكر الأبيض الطيب من كل واحد أربعة أوراق تحل بماء الورد، ويصب في القدر، ويترك يغلي، ثم ينزل على الرضف حتى (يعلو) دسمه. وهو أفضل الغذاء صالح لكل مزاج يصنع هذا اللون من الدجاجة، أو فراخ الحمام واليمام ومن لحم الضأن الفتي».

- ألن تشكو للكونت؟ ألن تجمع الناس وتحرضهم على النخاس؟

- أشكو لمن يا امرأة! أجننت! تريديني أن أحرض الناس على النخاس، صديق الكونت!

قبل أن تلقي باللوم على النخاس لملمي مفاتنك التي تندلق من فتحات ملابسك الغير محتشمة، كيف لرجل يرى كل تلك المفاتن، ولا يجن!

هبت قائمة، وصاحت بصوت سمعه أغلب من في السوق: خسئت يا عفن الجثث يا كومة الرمة، يا قيء الدود. اخرج من هذا المكان الطاهر يا ذا العقل النجس، فالمسجد لا مكان فيه لأمثالك ممن باعوا دينهم للسلاطين. حاولت استرداد قصعة الطعام منه، لكنه انكب عليها، وتمسك بها، وصاح يستغيث بأعوانه وخدمه؛ فأسرعوا إليه وأبعدوها عنه بالقوة، ثم ألقوا بها خارج المسجد.

استمرت في سبابه بصوت جهوري جمع الناس حولها، ولم يحاول أحد التدخل ولا إسكاتها، ووقف الصبي زاك بجوارها يراقب ما يحدث بنظرات متحفزة، وهو عاقد ساعديه أمام صدره. انصرفت عائدة لدكانها في السوق بعد أن أفرغت غيظها في السباب والصراخ دون طائل، ولحق بها زاك، وسار بجوارها بصمت. انتبهت فجأة، وتوقفت في الطريق، ثم التفتت له بحدة: زاك، أشتم رائحة زيرباجة؟

ابتسم لها بخبث، ومد يده من خلف ظهره إليها وفيها قصعة الزيرباجة المغطاة بالمنديل. حاولت أن تنهره، فخرجت كلماتها باسمة: أتسرق القصعة من المسجد؟ ألا تستحي!

قال ضاحكًا: وإن كان إمام المسجد لا يستحي أن يسرق طعامك! فهل يستحي لص صغير مثلي؟

انفجرت ضاحكة، ثم ربتت على كتفه، وقالت بود: فلنذهب إلى الدكان، ونلتهم الوليمة سويًّا.

رافقها حتى دخلا إلى السوق؛ ليستقبلهما شجارٌ يدور أمام دكان النجار في آخر السوق، وعندما اقتربا زفرت فاتيما بضيق: إسماييل وأبوه مجددًا.

وقفا يشاهدان الأب، وهو يضرب ابنه بقسوة، حتى سالت الدماء من شدقه، ولم يتدخلا كمن اعتاد رؤية ذلك المشهد كل يوم؛ فإسماييل يعمل في دكان النجار، واحترف الصنعة حتى صار ماهرًا فيها، وأبوه يعمل حارسًا في قصر الكونت، وكلما احتاجوا في القصر إلى نجار يأتي مسرعًا إلى السوق، ويطلب من ابنه التوجه للقصر لإصلاح ما يريدون؛ طمعًا في أجر مجزي يتقاسمه مع أبيه. لكن الفتى يأبى أن يعمل في القصر أو حتى أن يصلح أي شيء فيه.

انتهى الشجار بفشل الأب في إجبار ابنه على ما يريده، فتركه وانصرف، وهو يصب عليه اللعنات صبًّا.

جلس الفتى القرفصاء على جانب الطريق، وأخذ يمسح عرقه ودماءه، ويزفر محاولًا التغلب على غضبه، اقتربت منه فاتيما وتبعها

زاك. مدت له يدها، فأمسك بكفها، وقام من مكانه، فقالت: ألن ييأس ويكف عن محاولات إجبارك على العمل في القصر؟

قال بضيق: لا يهمه سوى المال، يظن أنه بذلك سينال حظوة لدى الكونت. لن أعود أبدًا إلى القصر وإن سحق عظامي، يكفينا ما نلقاه من ذل واستعباد من الكونت وفرسان القلعة.

ربتت على كتفه، وابتسمت وهي تغمز له: ما رأيك أن تشاركنا وليمة زيرباجة أنا وزاك في دكاني؟

أشرق وجهه بابتسامة ود: عرض كهذا لا يقاوم، فمن ذا الذي يرد طعام فاتيما؟

***

في قصر الأمير عبد الرحمن المقام بالقصبة المطلة على البلدة، كانت أم عمرو تجلس في الردهة الكبيرة بجوار النافذة المصنوعة من الخشب المعشق والمزينة جوانبها بالفسيفساء. كانت ساهمة وعيناها تتطلعان إلى الحديقة من خلف النافذة دون أن ترى ما بها.

استفاقت من شرودها على صوت زوجها الواقف خلفها، وهو يقول بلهجة حانية: لم كل هذا الشرود! أخبريني بما يقلقك.

تنهدت بحرارة، والتفتت إليه قائلة: وما الذي يمكن أن يقلقني سوى ابنتك!



قال باسمًا: لا زالت صغيرة، فلا تفرطي في استعجال ما لم يحن أوانه بعد.

- صغيرة في عينك فقط، نساء البلدة يثرثرن حول تأخر زواجها.

- لا شأن لأحد بصغيرتي، أحمد الله أنها لا تهتم لثرثرات النساء، فهي فتاة رِزَان، ابنة أمها.

- لكنها منشغلة بأشياء أكبر بكثير من عمرها، ولا تتحدث إلا في الأمور التي لا تهم سوى الرجال، يجب أن تكف عن الذهاب للشيخ "أبو الحسن".

- أنت قلقة أن ينصرف عنها الخطّاب، ولا تجد من تتزوجه!

- ومن سيرغب في خطبة فتاة كل حديثها في العلم وأمور الحكم ومصائر البلدان!.

- شخص أحمق مثلي.

أفلتت منها ابتسامة عذبة، وعادت بها الذكريات إلى الماضي، عندما التَقَتْه لأول مرة وما تلاها من أمور الخطبة والزواج.

اقترب منها، وقال بحب: ألا تذكرين الفتاة التي أجلستني أمامها يومًا، وأخذت تعتصرني بسؤال تلو الآخر عن التزامي بالصلاة في المسجد والنوافل، وعلى يد من تلقيت العلم، وماذا سأفعل إذا دعا داعٍ للجهاد، وكيف سأربي أولادي، وماذا سأعلمهم؟

قالت ضاحكة: لازلت مندهشة إلى الآن من قدرتك على الصبر والتحمل عندما أتذكر ذلك الماضي الجميل!

أمسك بيدها وتحسس كفها وأصابعها بحنان بالغ، وهو ينظر في عينيها: وكنت مستعدًّا لأكثر بكثير من الصبر، بل كنت على استعداد للقتال من أجل أن أفوز بتلك الجوهرة المضيئة التي أشرقت في حياتي.

لمعت دمعة رقيقة في عمق عينيها: كنت فتاة طائشة، استفزتني للغاية وسامتك وأناقتك المفرطة، كنت أظنك شابًّا عابثًا محبًّا للهو والرقص.

ضحك بشدة، وزاد من احتضان كفيها بين يديه.

نظرت إلى ملامحه وتأملت ضحكته التي تطرب قلبها: ما كنت أظن وقتها بأن الله قد أفاض عليّ بنعمة جليلة، وأنني حظيت بأفضل زوج، وأنبل فارس، وأعظم حبيب.

صمت برهة وهو يتأمل عينيها بولَهٍ، وابتلع ريقه ببطء، وكأنما يحاول أن يتذوق حلاوة كلماتها، ثم قال مطمئنًا: إذًا فلا تقلقي على عائشة، فسيؤتيها الله من فضله.

خفتت ابتسامتها وتنهدت وهزت رأسها موافقة، ثم قالت: هل تحدثت إليها؟

لاح بعض القلق في عينيه: ليس بعد، لا أدري كيف أخبرها بالأمر!

قالت وقد عاد إليها قلقها: ابنتك تنحاز، وتتعصب لما تراه حقًّا، وأخشى أن يوقعها ذلك في مشكلات لا قِبَل لها بها.

نظر إليها نظرة حزينة، فهمت على الفور الرسالة التي حوتها، ولم تأت على لسانه، وهو يقول: أليس من الأفضل أن تنحاز للحق، وتتعصب له بدلًا من أن تنجرَّ وراء باطل، وتتبعه!

أصابتها كلماته في مقتل، وطأطأت رأسها تحاول أن تخفي ذلك الألم، الذي اجتاح فؤادها، ولاح في ملامحها، قال وهو يربت على كفها: سأذهب؛ لأتحدث إليها.

كانت تعلم أنه يهرب من حديث لا طائل من ورائه، وأن أية كلمة أخرى ستشعل النار الكامنة تحت الرماد وتزيد الآلام. عادت إلى جلستها الأولى خلف النافذة، وتركت دموعها تنساب على خديها علها تخفف قليلًا من حرارة البركان المشتعل دومًا في أعماقها لا يهدأ أبدًا، وصورة عامر تتشكل في خيالها وهو يبتسم لها. داهمتها الحسرة والألم، وعجزت عن كبت شوقها إليه، وغلبها سؤال يملأ عقلها: ترى أين هو الآن وكيف حاله؟!

* * *

عندما دخل إلى غرفة ابنته عائشة، أخذ يتأملها وهي ترتدي زي فتاة قروية بسيطة كما اعتادت كلما ذهبت لزيارة الشيخ «أبو الحسن»، وتلف حول وجهها وشاحًا طويلًا؛ لتخفي تحته شعرها الأسود الجميل، وتلفه حول عنقها جيدًا، وغلبه التفكير بها وبأحوالها، فلم تكن ابنته كسائر الفتيات في غرناطة، بل كانت تختلف تمامًا عن بنات الأعيان والأمراء؛ فهي تلزم القراءة والتعلم، وختمت القرآن وتتعاهده باستمرار، وعقلها النشيط يعمل ولا يقر له قرار إلا إذا وجد إجابات مقنعة لأسئلته الدائمة.

لها من الحسن نصيب، فقد رزقها الله عينين واسعتين بلون الليل، وشعر أسود مموج بنعومة، وملامح دقيقة رقيقة غضة، ازداد جمالها بظهور علامات الأنوثة عليها من وقت قريب.

تنهد، وحمد ربه على أنعمه، ثم سألها سؤالًا يعرف إجابته جيدًا: إلى أين؟

ابتسمت لأبيها بودٍّ، وقالت: إلى موعد درس العلم المعتاد مع أخوي.

قال بهدوء: ألم أنبهك سابقًا أنك أصبحت فتاة كبيرة، وعليك أن تتوقفي عن دروس العلم.

- فتاة كبيرة! ما لهذه الكلمة أصبحت تتردد كثيرًا في هذا البيت! حسنًا، لأنني فتاة كبيرة؛ فأنا بحاجة إلى أن أستمع لعلم شيخي ومعلمي الغزير، وأتفقه في أمور ديني، وأتعلم الكثير عن الحياة.

- لقد وصلني تحذير من أكثر من شخص أن تكفي عن زيارة الشيخ، فلو انكشف أمرك..

- يا أبت، أنت أكثر من يعلم مدى حرصي على التنكر، واتخاذ الحيطة والحذر وأنا ذاهبة إليه، ولي سنوات أتلقى العلم على يديه ولم ينكشف أمري، والآن صرت أحمل من المهارة والحنكة ما يجعلني أصطحب أخواي معي؛ ليأخذا دورهما في تلقي العلم.

التقت عيناها بعيني أبيها، وابتسمت ممتنة، وداخلها إحساس بعظيم التقدير لما فعله أبوها لأجلهم، فقد اعتزل مجالس الأمراء

والسلاطين، وأبعد نفسه عن الصراع على السلطة، وعاش زاهدًا في المناصب مترفعًا عن المطامع الدنيوية، وانكب على أسرته يهذبهم ويصلحهم ويخالطهم بأهل العلم والتقوى، وإن جازف في سبيل ذلك الهدف النبيل بحياته، واستعدى الحاكم والأمراء وبني أشقيلولة، ولولا اهتمامه الشديد بحسن تنشئتها واكتسابها للعلم والفقه؛ لصارت دمية لا وزن لها ولا عقل ولا رأي، كأغلب نساء الأمراء.

- لا زال أمامي طريق طويل للتعلم.

- لقد تعلمت بالفعل كل ما يلزمك، والآن جاء دور أخويك، أما أنت فعليك أن تستعدي لأخذ دورك في الحياة.

- لا تقلق يا أبت، فأنا الآن أمارس بالفعل دوري الذي خلقني الله لأجله.

- لا تفطري قلب أمك، فهي تتوق لليوم الذي ستراك فيه عروسًا ترحل إلى بيت زوجها في موكب زفاف فخم، لقد أنجبت الكثير من الأولاد، أما أنت فابنتها الوحيدة، درة هذا البيت وزهرته المتفتحة.

- عجبًا، تلك هي المرة الأولى التي تحدثني فيها عن الزواج!

- حسنًا، إنها سنة الكون.

- أبي، لن أتزوج من أحد من الأمراء.

- إذًا، فمن الذي تتمنين الزواج منه!

- لا أعرف، كل ما أعرفه هو أنني لن أتزوج إلا من رجل حقيقي، رجل يستطيع أن يحرك قلبي إعجابًا بخلقه ومآثره، وينتزع دمعاتي فرقًا

عليه. والآن، اسمح لي يا أبت؛ فقد حان موعد الدرس، تعلم شيخي يحب الدقة والالتزام.

***

في سوق غرناطة الكبير المزدحم بالبشر، أخذ الجندي الأشقر يدور على الدكاكين ينتقي أفضل الهدايا لشيخه ومعلمه الشيخ «أبو الحسن»؛ فهو لم يره من مدة طويلة. كان يحب الشيخ أبا الحسن حبًّا جمًّا، ويفتقده ويفتقد أحاديثه وعلمه، لم تكن العلاقة بينهما علاقة تلميذ بمعلم بل هي أقرب لعلاقة الابن بأبيه،فالشيخ أبو الحسن كان خطيبًا في أحد مساجد إشبيلية؛ حيث كان يعيش هو مع أسرته وهو طفل صغير، وكان والده يداوم على حضور دروس الشيخ بانتظام، ويصطحبه معه وهو طفل صغير، حتى ألفه الشيخ وأحبه، ولم يكن له مجلسٌ إلا بجواره،فكان كلما دخل المسجد يتخذ طريقه إلى مجلسه بجوار الشيخ دون أن يعترضه أحد. وكان الشيخ يحرص على ملاطفة الصغير ومعاملته باللين.

وعندما حاصر القشتاليون إشبيلية ومعهم جيش من غرناطة بقيادة ابن الأحمر؛ أكل الجوع وشدة الحصار أهلها، ثم رحلوا عنها مرغمين، وسلموها إلى القشتاليين.

هلكت أسرة الصغير في الحصار، ومن تبقى منهم في رحلة الطريق، وكادت أن تنتهي حياته لولا أن أنقذه الشيخ من الهلاك، وكفل الشيخ ذلك اليتيم واصطحبه معه إلى غرناطة، وأوكل رعايته إلى أحد مريديه الأتقياء

وامرأته العاقر التي تتوق للأمومة؛ فكفلاه وأحسنا تربيته حتى صار فتًى يافعًا، ثم توفاهما الله بعد أن أدَّيا رسالتهما تجاهه، وأحسنا اليه. وبكاهما بحزن بعد أن أصابه اليتم للمرة الثانية، لكنه في كل مراحل حياته لم يترك للشيخ درسًا، فتلقى على يديه العلم والفقه، ولم يبتعد عن الشيخ إلا عندما استخدمه ابن سراج وأجبره على خدمته، ثم انتقل بعدها إلى الثغور، ولكم تألم عندما عرف بأمر سجن شيخه، وتمنى لو يكون معه في جهاده وفي محنته. وعندما علم بأن الثورة انتهت وخرج الشيخ من السجن، ذهب إليه مسرعًا ليعوده، لكنه فوجئ بأن الحاكم أمر بألا يخرج الشيخ من بيته، ووضع حارسًا على باب البيت.

ما كان لأحد أن يمنعه من زيارة شيخه، فاستمر يرتاد داره سرًّا، وفي كل مرة يتخذ هيئة بائع أو ساقي الماء، فيدخل إليه دون أن يمنعه الحارس وينهل من علمه وفقهه، وهذه المرة كان ينتوي أن يبدو في هيئة بائع عطور متجول.

وقف أمام دكان للعطور، وأخذ ينتقي عطرًا فاخرًا لشيخه، وهو يفكر في اللحظة التي سيلتقيه فيها، وكيف سيكون اللقاء، وهل سيعجبه العطر وسائر الهدايا التي انتقاها بنفسه من أجل شيخه؟ فجأة، سمع صوت حادث تصادم في الطريق، فالتفت يتطلع إلى المشهد الذي اجتمع الناس له، فرأى عربة فاخرة توقفت في منتصف الطريق، وأمام العربة افترش الأرض بهلولٌ من البهاليل، رقيق الحال، مرقع الملابس، متسخ الوجه، أشعث الشعر.

كان يبدو- من المشهد- أن العربة قد صدمت البهلول الذي قام من موضعه ببطء وهو يتأوه، ويمسك بظهره. تناول هرة صغيرة تتخبط بين عجلات العربة وهي تموء بخوف، وأدخلها من فتحة جيبه لتستقر داخل ملابسه. فجأة، خرجت رأس سمين عليها عمامة ضخمة من نافذة العربة، وبصق بصقة مقززة، وهو ينظر للبهلول المجنون، الذي اعترض طريق عربته، وقال بصوت منكر: أبعدوا عبد الشؤم من طريقي.

أخذ بهلول يقفز، ويصرخ، عندما هاجمه حارسي العربة بالسوط، وأسلم ساقيه للرياح واختفى من السوق. وعاد الحارسان إلى العربة. كان السمين ينظر باتجاه البهلول، الذي جرى بعيدًا، ورأسه يمتلئ بالكثير من الأفكار والأسئلة، وعيناه تضيق كما لو كان يفكر، ثم أمر سائق العربة أن يكمل طريقه، فانطلق مسرعًا.

امتعض وجه الجندي الشاب بشدة، وضاقت روحه وهو يراقب المشهد المنفر، فازدرد ريقه كما لو كان يبتلع غصة في حلقه، لكم يكره الأمراء والأعيان وظلمَهم للعباد. فجأة، استولت عليه رغبة عارمة أن يقوم بعمل ما، فانطلق يجري خلف العربة دون أن يفكر ماذا يمكن أن يفعل! ولكن في زحام السوق، اصطدم بإحدى القرويات؛ فأسقط سلة الخضر من فوق رأسها، كاد أن يتركها ويكمل مطاردته للعربة، لكن صيحات الاستهجان والاعتراض من المارة أوقفته. وعندما نظر في وجه الفتاة القروية اتسعت عيناه، وتوقف قلبه لحظة، ثم عاد ينبض بجنون. لا يصدق أن القدر قد يجمعه بها يومًا! إنها هي.. لمحها مرتين من قبل تدرس في

بيت الشيخ، كانت أصغر سنًّا في تلك الآونة، ولم يصدق أن صبية حسناء كبرعم يستعد للتفتح، تتعاهد العلم وتحرص عليه!. لو كان وقتها حرًّا لطرق باب أهلها دون إبطاء، لكنه كان مكبلًا بقيود ابن سراج.

ذلك الخجل الذي كسا وجه الفتاة ونظراتها الزائغة أصاباه بالارتباك فانحنى يجمع الخضراوات، التي تبعثرت على الأرض؛ ليعيدها إلى السلة. ومن آن لآخر، يرفع رأسه إليها ويهمهم بكلمات اعتذار مرتبكة، وقد وقفت بحياء تمسك ببعض وشاحها بين أسنانها، وتتبعثر نظراتها يمينًا ويسارًا، مد السلة إليها بصمت؛ فأحنت رأسها قليلًا، فوضع السلة فوق رأسها وهو يعتذر مجددًا، فأمسكتها جيدًا ورحلت مسرعة. تتبعها بناظريه وقلبه يخفق بين أضلعه، وعندما اختفت شعر بالضيق يطبق على روحه.. هل أضاعها ثانية!

أزعجه الأمر حتى بات يلوم نفسه أنه لم يسألها عن اسم أبيها ومكان بيته. لحق به فرسه الجموح فربت على وجنتيه، وسحبه من لجامه، وسار حائرًا لا يملك لجامًا لفكره الشارد وروحه الهائمة. فجأة، التفت إلى فرسه، وهتف بفرح: إنها ذاهبة إلى هناك!

تلفت حوله عندما شعر بأن صوته كان عاليًا جذب أنظار الناس إليه، فأمسك بأذن الفرس، وهمس له: هي في طريقها الآن للشيخ، لن أضيعها مجددًا، سأذهب لشيخي، وأحدثه عنها.

***

في بيت الشيخ أبي الحسن.

بيت أنيق بسيط، متوسط الحال، ملحق به حديقة صغيرة مزدانة بالزهور الريحان والنباتات الطبية، وفيها يفضل التوأم عثمان وعلي البقاء حتى تفرغ أختهما عائشة من تلقي دروسها ليبدءا درسيهما، وأخذا يشاكسان ذلك الجندي القصير المستغرق في النوم على أحد مقاعد الحديقة، والذي كُلّف بمراقبة الشيخ منذ زمن طويل، والتأكد من عدم خروجه من بيته. ولم ينتبه أحد لتلك العينين اللتين ترقبان المكان ومَن فيه بحرص بالغ، وذلك الشبح الأسود الملثم الذي يتسلل خفية عن الأعين، ويدخل البيت من بابه الخلفي دون أن يراه أو يشعر به أحد، حتى اختبأ في أحد الأركان.

في داخل البيت، مكتبة جدارية عظيمة مليئة بالكتب التي خطها الشيخ بيده، وإلى جانب المكتبة يجلس الخادم بهلول ذو الشعر الأشعث والملابس البسيطة البالية على الأرض، يداعب قطة صغيرة وجدها يومًا في الطرقات. دائمًا ما يحادثها بصوت هامس، وما بين الحين والآخر يهتز جسده برعشة للحظة ثم يهدأ. كانت ركبته تؤلمه من أثر حادث اليوم في السوق، فأخذ يمسح عليها برفق وهو يشكو إلى قطته ألمه، ويلومها أن قفزت أمام العربة؛ فاضطر لاعتراض طريق العربة لينقذها.

وأمام المكتبة، جلست عائشة إلى منضدة مستطيلة في مواجهة الشيخ المعلم.

كان الشيخ أبو الحسن من فقهاء قرطبة- بلدة العلم والعلماء- قد تجاوز الستين ببضعة أعوام، ذا وجه سمح ولحية مستديرة بيضاء

وعينين سوداوين يشع القوة والعزم منهما، ثم انتقل إلى إشبيلية، ثم غادرها عندما احتلها القشتاليون، وطردوا منها أهلها، ثم انتقل إلى مملكة غرناطة، وتولى الخطابة والإمامة في أحد مساجدها.

التفّ حوله الناس، وأحبوه لما لمسوه فيه من تقوى وشجاعة وجهر بكلمة الحق وعدم مصانعة الأمراء والابتعاد عن مجالس السلاطين حتى قامت الثورة. فسجن مع الأمير عبد الرحمن، وبعد أن أخمدت الثورة خرجا من السجن، وتم التشديد من الحاكم على مراقبتهما، وألزموا الشيخ بيته إكراهًا، لا يصلي حتى في المسجد، ولا يلتقي تلامذته ومريديه. لكن الأمير عبد الرحمن عهد إليه سرًّا بتربية وتهذيب أبنائه وتعليمهم علوم دينهم، فكانوا يبدلون هيأتهم، ويذهبون إلى بيته دون أن يثيروا ريبة الحارس. وكذلك فعل بعض تلامذته وداوموا على تلقي العلم على يديه سرًّا. وكان لعائشة مكانة كبيرة لديه لما رَآه فيها من حرص على المداومة على الدرس والتعلم والسؤال والفهم والحماسة. وكانت تتفنن في تبديل هيأتها؛ لتذهب إلى بيت الشيخ، فتارة بائعة حليب، وتارة قروية، وتارة بائعة خضر.

كانت تجلس أمامه، وعلى وجهها علامات التردد والقلق؛ فقال مشجعًا، وكأنما يدرك خبايا نفسها: أفصحي بصدق عما يقلقك. إن ما يجب أن تهتمي له الآن هو إرضاء والديك.

- وهل عليّ القبول مضطرة بالزواج من أحد الأمراء لأرضيهما!

- مضطرة! لو أن هذه هي الحقيقة، ما كانوا ليطلقوا عليك مدللة أبيها!

- وهل تراني- حقًّا- مدللة؟

- في أغلب الأحيان.

لم تعترض، ولم تغضب، فهي تعلم أن في كلماته الكثير من الحقيقة، فارتسمت على وجهها ابتسامة ماكرة.

فقال باسمًا: أعلم أنك تفهمينني جيدًا، وتدركين ما أود قوله، الزواج هو سنة الله في هذه الحياة.

اختفت ابتسامتها، وقالت بقلق: زواج! في كل ليلة، أتذكر حكايات أمي التي كانت تقصها عليّ وأنا صغيرة، عن أرض لنا سلبها الأعداء، عن سلاطين أقوياء، عن جيوش نصرت بالرعب ورجال يركضون نحو الموت ليمنحونا الحياة

- نعم، صحيح، أرض الأندلس كلها كانت يومًا لنا، أرض واحدة لها سلطان واحد قوي، مجرد ذكر اسمه يلقي الرعب في قلوب الأعداء.

- والآن، أحاط بنا الأعداء من كل جانب قسموا بلادنا واستباحوا أراضيها. في كل ليلة يداهمني شعور بأنها آخر ليلة لي أنام آمنة في غرناطة. كم مملكة للأعداء تحيط بِنَا! تتربص كالضباع الرابضة، وتتحين الفرص للانقضاض على آخر أرض لنا في الأندلس.

مملكة أراجون، وليون، ومملكة البرتغال، ومملكة قشتالة. أيمكن لرمانة الأندلس أن تبقى آمنة؟!

- كلها أراض كانت ملكًا للمسلمين واستولى الأعداء عليها، ليس بقوتهم، إنما بضعفنا نحن وتكالبنا على الدنيا؛ فالأخ يقاتل أخاه ليوطد ملكه، ليس هذا فحسب، بل يستعين عليه بالأعداء ويتصنّع ويتذلل لملوك الأعداء ويدفع لهم الجزية، بل يمنحهم جنودًا من جند الإسلام؛ ليعاونوه على احتلال أرضٍ مسلمة وحصار وإسقاط مدن وقلاع المسلمين، وتجويع وتشريد رجال ونساء وأطفال المسلمين!.

- ولهذا منعوك من الخطابة؛ لأنك تذكر الأمير، ومعاهدة العار.

- وأي عار! باسم السلام والأمن استُبيحت الحرمات وشُرد الضعفاء، باسم الحفاظ على الأرض سُلمت الأرض للأعداء وهجر منها أهلها، قرطبة لم تجد من ينقذها من الحصار، كانت تستجدي العون من إخوة العقيدة والدين ولا من مجيب، انفرط العقد وتساقطت البلاد والحصون وأراضي المسلمين.

- وبيعت نساء وبنات المسلمين في سوق النخاسة.

- وإشبيلية ضاعت بمعاونة من جنود المسلمين، مسلمون يحاصرون مسلمين، والحكام والأمراء يهرولون لتقديم الجزية والهدايا وإعلان الولاء لملك قشتالة، بل ويحضر الأمير مجلس الكورتيس كأي والٍ عيّنه الملك النصراني على إحدى حصونه. كل هذا الذل والخضوع لماذا؟! من أجل الحفاظ على ملكه وقصوره! كيف له أن

يتنازل عن حصون ومدن وأراضٍ للمسلمين، ويمنحهم للأعداء بلا مقابل! أهي أرضه أم أرض أبيه؟!

حاولت أن تخفف من حدة غضبه: يا معلمي، لقد مرت سنوات على تلك المعاهدة، وقتها ماذا كان في وسعه أن يفعل؟ كيف له أن يوقف زحف الأعداء، ومملكته لازالت وليدة وضعيفة! كان عليه عقد هدنة.

احمر وجهه غضبًا، وهبَّ قائمًا: هل أنت مقتنعة حقًّا بذلك؟! نعم، مرت سنوات ونحن ندفع ونتنازل وتنهب أراضينا. تدركين كم من أراض استُلبت منا بمثل تلك المعاهدات، كم من مسلمين شُردوا من ديارهم وهلكوا جوعًا، كم من نساء وأطفال سُبُوا واسترقوا. رأيت كل هذا بعيني، تركت بيتي في قرطبة وطردت من بلدي، المسجد الذي عشت عمرًا أخطب فيه، تحول إلى كنيسة وعلقت فوق مآذنه الأجراس والصلبان، وانتقلت من بلد إلى بلد، ومن قلعة إلى قلعة، وعشت كل تلك الأحداث الرهيبة. في إشبيلية، رأيت الناس يهلكون من الجوع، وعلى أسوارها من الخارج يحاصرهم مسلمون، وبعد الاستسلام بلا حيلة تَرَكُوا ديارهم وأراضيهم ورحلوا ليحتلها الأعداء، بل وهلك منهم خلق كثير في الطريق من الجوع. ومدن أخرى أحيط بهم وقتلوا تقتيلًا، وأخرى غدروا بهم بكل خسة، أعطوهم الأمان وتمكنوا منهم، فلم يرقبوا فيهم إلًّا ولا ذمة، ولم ينجُ من سيوفهم أحد.

عقدت كفَّيْها وأسندت جبينها إليهما، وداهمها اليأس والألم، واحتبست الكلمات في حلقها، واستمعت إليه: لولا موت ملكهم

فرناندوا الثالث الذي لقبوه بالقديس من كثرة ما استولى على أراضي المسلمين؛ لكانت غرناطة الآن محتلة من الأعداء، ولكنت أنت الآن سبية، أمةً لقشتاليٍّ من الأعداء.

أصابتها قشعريرة باردة، وانقبض قلبها بشدة، وهي تستمع إلى كلماته المؤلمة: لكن الله أراد لنا فرصة أخرى؛ علّنا نستجيب ونرجع إليه. مات فرناندوا فتعطلت- مؤقتًا- خططهم للاستيلاء على رمانة الأندلس، والآن تولى ابنه ألفونسوا العاشر تركة ثقيلة من العداوات والحروب بين قشتالة وأرجون من جانب، وبين قشتالة والبرتغال من جانب آخر. وسرعان ما سيسوي أموره معهم، وبمجرد استتباب الأمر له سيُجْهز على آخر قطعة أرض للمسلمين في الأندلس.

هبَّت قائمة، وقالت- وقد داهمها الخوف الشديد: علينا أن نوقف هذا، يجب أن نقاتل حتى نوقفهم.

- نقاتل!! بدل من أن نفكر في كيفية استعادة أراضينا وتأمين حدودنا، صرنا نفكر في كيفية عقد المزيد من المعاهدات واسترضاء الأعداء وندفع الجزية لهم؛ كي لا يعتدوا علينا.

- حتى كلمة الحق يسكتونها، ويحبسونها خلف الجدران!

- تلك هي عاقبة الظالمين، فكما تركنا أرضنا للأعداء، ولم نُغثْ إشبيلية، فسيأتي اليوم الذي سيمتنع فيه أهل إفريقية والمغرب عن إنقاذنا، وبمجرد أن تسقط القطعة الباقية من بلاد الأندلس في يد

الأعداء، سينتهي الإسلام من هذه الأرض إلى أمدٍ لا يعلمه إلا الله، وسنصبح في التاريخ عبرة.

حملقت فيه برعب، وقالت بذهول: كلامك مخيف للغاية يا معلمي. ألا تظن أنك متشائم للغاية؟!

- أنت أيضًا تحاولين الهروب من الواقع الأليم.

- علينا أن نجد حلًّا لإيقاف ذلك المصير الرهيب.

- لا حل إلا بأن يكفّ الحكام عن الظلم، وأن تراقب الرعية ربها وتخشاه، وتسعى لصد هجوم الأعداء عن البلاد بالجهاد بالنفس والمال.

نظر نظرة جانبية، وظهر القلق على وجهه، وسكت لحظة، فتساءلت بقلق: أهناك شيء؟

قال وهو يرسم على وجهه ابتسامة مطمئنة: لا، ولكن هل سنظل نتكلم طوال الوقت، ونترك الصبيين في الحديقة! إنه موعد درسهما.

قامت من مقعدها مضطرة؛ فهي تعرف شيخها جيدًا لا يحب الاعتراض، كما أن الحديث قد وصل إلى نقطة مؤلمة مرهقة، مما جعلها بحاجة إلى بعض الراحة، واستنشاق الهواء لتهدأ قليلًا.

قالت طائعة: حسنًا.. سآتي بهما.

قال بهدوء: هلا قطفت لي بعض أوراق الريحان من الشجيرات التي في الحديقة.



ابتسمت قائلة، وهي تخرج من الباب: حبًّا وكرامة يا شيخي ومعلمي.

بمجرد أن خرجت إلى الحديقة، التفت إلى بهلول، وقال آمرًا: بهلول.

هب بهلول قائمًا، وهو يقول: أمرك سيدي.

قال: اذهب بسرعة إلى السوق، وأتني ببعض الفاكهة.

قال بهلول بحيرة: ولكني ذهبت الصباح!

هتف الشيخ زاجرًا: أسمعت ما قلته؟ اذهب الآن.

على الفور، قفز بهلول من مكانه بالرغم من ألم ركبته، وهو يقول: على الفور سيدي.

اتجه الشيخ إلى المكتبة الكبيرة، وأخذ يبحث بين الكتب.

ظهر الشبح الأسود في المكان، وكأن الأرض انشقت وأخرجته، واقترب من الشيخ بهدوء، ثم رفع خنجره ليطعن الشيخ في ظهره. فجأة، سحب الشيخ سيفًا قديمًا معلقًا بجوار الكتب، والتفت ضاربًا به فتصدى للخنجر، فوجئ الشبح الأسود الطويل بما فعله الشيخ، وأخذ ينظر بتوتر في عينيه الممتلئتين بالثقة والثبات، وارتجف قلبه رغمًا عنه. قال الشيخ بفهم: إذًا، فهذا هو آخر ما في جعبتهم! أن يستأجروك لقتلي.

فاجأته جرأة الشيخ، وأصابته ببعض التردد، كان الشيخ يقاومه بشجاعة ورباطة جأش رغم فارق السن والقوة بينهما. وعاد الشيخ

بالذاكرة إلى المعارك والمناورات التي شارك فيها سابقًا؛ دفاعًا عن إشبيلية أثناء الحصار، وتقدمه الصفوف لقتال الأعداء مقبلًا غير مدبر.

سمعا صوت عائشة وأخويها قرب الباب، وهما يتدافعان خنجرًا أمام سيف، وتوتر الأسود وخشي من انكشاف أمره، فتغلب على الشيخ المسن بفارق القوة الكبير بينهما، وأسقط سيفه وطعنه في صدره طعنتين. ودخلت عائشة وهو يطعنه الثالثة؛ فأصيبت بالجمود للحظة، ثم استفاقت بسرعة وأطلقت صرخة مدوية، وتناولت كتابًا كبيرًا من على رفٍّ قريب منها، ورمته بكل قوتها نحو الأسود فاصطدم بجبينه، لكن العمامة السوداء التي يلبسها تلقت أغلب الضربة، ثم اندفعت نحوه بشجاعة، وأخرجت خنجرها الذي تحمله في حزامها، وضربت به كفَّ القاتل الممسك بالخنجر المغروس في صدر الشيخ؛ فجرح كفه جرحًا عميقًا، وقطع جزءًا من لحمه، فتأوه الأسود بصوت مكتوم، وسحب الخنجر من جسد الشيخ، ووجهه إلى عائشة التي صدت اندفاع الخنجر نحوها بخنجرها، وتقاطع النصلان وتدافعا، والشيخ يقول له، وهو يسقط أرضًا: ابتعد عن الصبية.

كان الأسود حجمه ضعف حجمها، وقوته تدفع الخنجر باتجاهها، لكن صرخة مدوية انطلقت في المكان، لم تكن هي صاحبتها.. بل كان بهلول الذي راعه المنظر وأفزعه؛ فانطلق يصرخ ويولول ويندب ويقفز، ويدور حول نفسه بجنون، ثم أخرج من جيبه قارورة صغيرة

تحوى حبيبات سوداء صغيرة تشبه الفحم المفتت، فتح سدَّتَها، وقذف بما فيها على وجه القاتل، الذي صرخ بألم شديد بمجرد أن لامست الحبيبات لثامه وملابسه، ودفع عائشة دفعة قوية أسقطتها أرضًا، وغطى وجهه بكفيه، وتصاعدت من ملابسه أبخرة خضراء غريبة لها رائحة لاذعة، فحمل خنجره وولى هاربًا من المكان.

فزعت عائشة عندما وجدت الشيخ مضرجًا بدمائه، وهتفت بأخيها: عثمان، أحضر الطبيب بسرعة.

ساعدها عثمان وعليٌّ على نقل الشيخ إلى فراشه، ثم انطلق عثمان مسرعًا؛ ليستدعي الطبيب، وحاولت عائشة جاهدة إيقاف النزيف كما تعلمت عن التعامل مع الجروح، وأخذ الشيخ يتلو الشهادتين عدة مرات. بكت عائشة وانتحبت عندما رأت جراحه الغائرة، وشعرت باقتراب أجله؛ فقال لها: لا تبك يا صغيرتي، بل ابتسمي ابتسامتك المشرقة، فاليوم أنالها.

ضغطت أسنانها بغلٍّ: صدقت يا معلمي، أمة تقتل عالمًا تقيًّا ورعًا، أمة تُسحق كلمة الحق فيها؛ لا تستحق الحياة.

قال وهو يزفر زفرات الموت: بهلول، أين البهلول؟

قالت باكية: لا أدري، اختفى.

- أوصيكم به خيرًا، أحسنوا إليه وأكرموه، ولا تدعوا أحدًا يؤذيه.

- تجلد يا شيخي؛ فالطبيب في الطريق.

- (تلا الشهادتين). أشهد الله أنني بذلت ما في وسعي لأنبه الحكام حتى طردوني، وعشت بين الناس أؤمهم في الصلوات وأحذرهم، وأشرح لهم في كل خطبة الخطر القادم حتى حبست في بيتي، ولم أسكت فبقيت أحذر تلاميذي وأنبههم، وأدعو الله أن يشفع لي ذلك. لقد دافعت بكل جهدي عن أرض الإسلام، وشاركت في معركة أنيشة، وقاتلت بجوار الكلاعي عالم بلنسية ومحدثها، وجاهدت بكل شيء، وبذلت كل ما في وسعي؛ حتى لا تسقط إشبيلية.

- يستحقون الهلاك، قتلة، كلهم قتلة. قتلوك يا شيخي؛ كي لا يستمعوا إلى كلمة الحق.

- عليكم أن توقفوا ذلك، أنتم الشباب، يا من تربيتم على الإسلام ودرستم العلم وفهمتموه.. أنقذوا بلادكم ودينكم، أو موتوا وأنتم تحاولون. لو ضاعت آخر أرض نقف عليها في تلك الجزيرة فستغرب شمس الإسلام عن بلاد الأندلس، وتكون فاجعة وطامة وعارًا يتوارثه الأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. يجب أن يتدخل أحد ليوقف هذا المصير، يجب أن يبقى الناس على كلمة سواء.. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

أغمض الشيخ عينيه مسلمًا الروح لبارئها، وانخرطت عائشة في بكاء شديد هي وعلي، وعندما سمعت صوت حصان بالقرب من الباب، ظنت أن عثمان عاد ومعه الطبيب.

دفع الباب ببطء شابٌّ أشقر، أدركت من زيه أنه جندي محارب، دخل عليهم بخطوات متمهلة والصدمة تعلو وجهه، وهو ينظر إلى جسد الشيخ الغارق في دمائه، جلس على ركبتيه بجوار الفراش وتحسس جسد الشيخ، وتأكد من موته، وترقرقت عيناه بالدموع، وتشكلت ملامحه بالغضب العارم، وضغط أسنانه بغيظ، وهو يقول: من فعل هذا بشيخي ومعلمي؟!

رفعت عائشة وجهها الباكي، ونظرت للجندي بعدما انتبهت لكلمة شيخي ومعلمي في حديثه، وفهمت أن الجندي الشاب هو أحد تلامذة الشيخ، فقالت بصوت يختلط فيه الغضب بالدموع: رجل طويل متشح وملثم بالسواد، ولا يبدو منه سوى عينين رماديتين تمتلئ حقدًا وشرًّا.

ارتسمت في عقله صورة ذلك الملثم المكسو بالسواد، الذي رآه يعبر الطريق ليلًا، ويختفي في الأزقة: ولكن من هو؟

- قاتل مرتزق، لديه خنجر بمقبض فضي مرصع بالجواهر والياقوت، وقطع غائر في كفه الأيمن، وهو زبون دائم في الحانات.

- وكيف عرفت كل هذا؟

- رائحة الخمر كانت تفوح من ملابسه، والجرح الغائر صنعه خنجري.

- ومن يجرؤ على قتل عالم على تقوى وصلاح!

رد على نفسه دون أن ينتظر ردًّا من أحد: فهمت، إنه شخص لا يريد أن تصل الحقيقة للناس.

نظرت عائشة نحوه، وهزت رأسها موافقة.

رفع رأسه عاليًا، وجري دمعه على خديه، والغضب العارم يقطر من كلماته: قسمٌ لا أحنث فيه أبدًا، لأثأرن لك يا شيخي، وإن كان هذا هو آخر عمل لي في هذه الحياة.

* * *

(3)

في قصر الأمير عبد الرحمن المبني فوق ربوة تطل مباشرة على بيوت البلدة. رقَتْ عائشة سلم البرج الشرقي للقصر بعد صلاة الفجر حتى وصلت إلى أعلاه، وأخذ هواء الصباح الربيعي العليل يداعب شعرها الطويل المموج المنسدل على ظهرها بنعومة، وتتراقص خصلاته القصيرة على جبينها ووجنتيها. وقفت في شرفة البرج تنظر إلى البلدة الجميلة وبيوتها الراقية المبنية بطراز فريد، الحدائق والساحات والحمامات، الأحياء الفقيرة التي تقع في الجهة الأخرى، بيوت الصناع والحرفيين والبائعين، الأزقة والحارات والدكاكين. ثم نظرت نحو قصر السلطان، وهو يتلألأ على الجبل البعيد ككوكب دري. كان لون السماء يتبدل بمرور الوقت من الأسود إلى الزرقة القاتمة، ثم تتفتح تدريجيًّا، ويخالطها بعض من حمرة أشعة الشمس التي لم تظهر بعدُ في الأفق، وثوبها السندسي تظهر ألوانه الخضراء الزاهية مع ضوء الشروق الوليد. ورويدًا رويدًا يفرش الضياء أشعته على كل البلدة. تأملت المساجد ببنائها المعماري الفاخر ومآذنها العالية، وأخذت تراقب الناس وهم يخرجون من المساجد بعد أن صلوا الفجر وينتشرون في الطرقات يستعدون لفتح المحال والدكاكين. بدا لها طيف شيخها في الأفق البعيد، فأصابتها رجفة حزينة، هزت كيانها وهي تتذكر حديثه وهو يحتضر:

ستهدم المساجد، وتعلو الصلبان، وتتفجر بحور الدماء، ويقتل الرجال، ويسبى الأطفال، وتغتصب النساء، سيفتن الناس في دينهم، وسينزع الإسلام منهم بالإرهاب والتعذيب، ويهجَّرون من بيوتهم، ولن يبقى شيء من الإسلام في الأندلس. فاضت عيناها بالدموع، فأغمضتهما بقوة؛ لتنسكب أنهارًا فوق وجنتيها. فتحت عينيها فجأة، وامتلأ قلبها بالرعب؛ فقد رأت كل المآذن وقد تحولت إلى أبراج للكنائس تعلوها الأجراس والصلبان، وفوق قصر السلطان ارتفع صليب فضي ضخم. وكل البيوت فقدت طرازها الإسلامي، وارتسمت على الجدران الصور والصلبان. والطرقات خربت، والحمامات هدمت، والناس يجرون بفزع في كل اتجاه. وفي آذانها علت أصوات أجراس الكنائس تُضرب بقوة، وتُخالطها أصوات أنين الضحايا وصرخات النساء والأطفال المعذبين تحت آلام آلات التعذيب الرهيبة. أخذت ترتعد بشدة والغضب يأكل قلبها، ويشتعل في أطرافها. قبضت بيديها على طرف الشرفة، وعصرت كفيها حتى ابيضت أصابعها، عقدت حاجبيها وقد استقرت نظرة في عينيها تمتلئ بعزيمة ماضية لا تقهر وهمة عالية لا تنكسر، ثم هتفت: لأجل هذا قتلوك يا شيخي! يريدونها هكذا.. يريدون أن يسلبوها الإسلام، ينتزعون منها هويتها انتزاعًا.. يبيعونها لأعدائها بثمن بخس. صرخت بأعلى صوتها: قسمًا بالله، لن أدعهم يفعلون هذا مادامت روحي مستقرة في جسدي، سأبذل كل ذرة في كياني لأحُول دون ذلك، لن تغيب شمس الإسلام عن الأندلس طالما بقي فيّ نفس يتردد.

انزوت عائشة حزينة متألمة في غرفتها لا تغادرها منذ جنازة الشيخ، دخل أبوها عليها، وجلس أمامها يتأمل عينيها الحزينتين، ويبحث عن ابتسامة جميلة غابت عن محياها، ثم تنهد بألم، وقال: إلى متى هذا الحزن يا ابنتي! لقد لقي الشيخ ربه شهيدًا كما تمنى.. نحسبه كذلك إن شاء الله.

كانت صامتة تمامًا؛ فأكمل: البلد بأكملها خرجت لتشيعه وتصلي عليه.

عصرت قبضتيها، وهبَّت قائمة، وهتفت بغضب والدمع ينسكب من عينيها: من يريد قتل كلمة الحق بين الناس؟ من يريد أن يضرب على آذانهم وأعينهم فلا يروا الحقيقة ولا ينتبهوا للخطر المحدق بهم؟

- أكثر مما تتصوري، الشيخ رحمه الله كان يؤلمهم، ويقض مضاجعهم بكلماته.

- لا يمكن أن يفلت القاتل بجريمته. لا بد للقتلة أن ينالوا العقاب. لابد من القصاص للشيخ.

- دعي هذا الكلام لأولاده، هم من يجب أن يطالبوا بالقصاص لأبيهم.

- أولاده في إفريقية، والله وحده يعلم إن كان الخبر قد وصل إليهم أم أنه لا يزال في الطريق. تركوه وحيدًا وتفرقوا في البلاد، كلٌّ يسعى على رزقه من الدنيا، أما تلامذته فهم يملئون البلاد. كان الشيخ يحسن إليَّ كما لو كنت ابنته التي أنجبها، وعليَّ أن أسعى للقصاص له.

- أنت يا فتاة!

أدارت وجهها ونظرت في مرآتها الكبيرة التي تحتل ركنًا من غرفتها، وتأملت شعرها الطويل وملامحها الغضة الرقيقة وهيأتها الأنثوية وملابسها الحريرية، ثم قالت: نعم. أنا الفتاة المنعمة التي نشأت في بيت الأمراء.. سأثأر لشيخي.

التفتت لأبيها، وقالت بغلٍّ: لقد تخلى القضاة عن واجبهم، والشرطة غضت الطرف، والحاكم لا يبالي، والأمراء لا يخفون ارتياحهم لمقتل الشيخ، حتى الفقيه، لم يحرك ساكنًا، واعتصم بالصمت؛ كي لا يغضب الأمراء! كلهم ساهموا في هروب القاتل بجريمته، ولم يسعَ أحد حتى لمعرفة من دفع له لقتل الشيخ؟ ولماذا؟ أما أنا.. فسأعرف، وسأجد القاتل، وسأسعى خلف من دفع له، وسأقتص لشيخي.

عادت تنظر لمرآتها، ثم هتفت بعزيمة وإصرار: سترى يا أبت.

❊❊❊

على صهوة جواد أسود كلَيلٍ بلا قمر، انطلقت عائشة في طول البلاد وعرضها، ومن شرقها إلى غربها في زيها الأسود الذي يخفي كافة معالمها، ولا يظهر منها سوى عينيها تبحث بإصرار لا يهدأ وعزيمة لا تكل عن قاتل يتلحف بالسواد، في يده قطع غائر حديث، وفي وجهه آثار حرق، ويرافقها في رحلتها أخوها عمرو متنكرًا في زي شاب من العامة على حصان بني.

استنتجت عائشة أن القاتل من زبائن الحانات بعد أن آذتها رائحته النتنة- كما لو كان منقوعًا في دلو من الخمر- وهي تقطع جزءًا من لحم يده بخنجرها، فسألا في أغلب الحانات الشهيرة المتواجدة في أحياء الأعيان عن أوصافه، ولم يتوصلا لشيء.

قال لها عمرو بضيق وهو يسير بجوارها: لم نجده! والآن، ماذا عسانا نفعل؟

- علينا أن نستمر بالبحث حتى نعثر عليه.

- ماذا! لا يمكن أن نقضي عمرنا كله في البحث عن شبح أسود لا يعرفه أحد، أريد أن أعود لحياتي وللصيد ولمبارزة الشباب.

- لو قضيت كل لحظة في عمري أبحث عنه، فلن أتراجع حتى أجده أو أقضي وأنا على ذلك.

- يا لك من عنيدة.

قفزت فوق فرسها الأسود برشاقة، ورفعت رأسها بشموخ، وهي تمسك باللجام، وتقول بثقة: بل مثابرة، ولن أكل أو أمَلّ، وسأثأر لشيخي مهما طال الزمن.

زفر عمرو بضيق: يا لي من بائس!، فأنا مضطر لمرافقة أختي الوحيدة لحمايتها، ومُكره أن أطاوع جنونها بالثأر.

قالت بابتسامة ودٍّ كبيرة لم ير منها شيئًا: والآن.. إلى أين سنتجه؟

قال مستسلمًا: فلنبحث في الحانات الرخيصة في الأزقة الفقيرة، وأنت عليك أن تعودي إلى البيت ريثما أنتهي من بحثي هناك، فتلك الأماكن خطرة وقذرة، ولا يمكن أن..

قاطعته بإصرار، وهي تنطلق بالفرس: هيا.

تبعها وهو يهتف: انتظري.. لا يمكن لأميرة أن ترتاد تلك الأماكن.

قالت: أنت محق، لا يمكن لفتاة تؤمن بحرمة الخمر أن ترتاد أوكار الشياطين.

قال مؤيدًا: حسنًا؛ فلتعودي إلى البيت.

قالت: ولكن من سيبحث هناك هو الفارس الأسود.

لم تترك له فرصة للاعتراض، وانطلقت بالفرس وانطلق هو خلفها مستسلمًا لعنادها.

* * *

توجها من فورهما إلى إحدى الحانات الرخيصة، التي اشتهرت بين الناس بأنها مأوى اللصوص. وتوقفا أمام بابها، وعندها اعترض عمرو طريق أخته، وقال بحزم: سأدخل أنا، وانتظري أنت هنا. كادت أن تعترض، لكنه سبقها بقوله: إن لم تنتظريني هنا؛ فسأنسحب وأبلغ أبي، لن أدع أختي تدخل إلى مثل هذا المكان. وافقت على مضض، ثم قالت تغيظه: إن تكاثروا عليك فاطلب العون من الفارس الأسود.

رماها بنظرة نارية، ثم أعطاها ظهره، ودخل الحانة. كان المكان ضيقًا وقذرًا، ورواده من سفهاء القوم واللصوص والرعاع. تحسس عمرو مقبض سيفه في غمده عندما وجد شجارًا عنيفًا يدور بين أحد الزبائن وحارس المكان. تجاهل الشجار، واتجه نحو الساقي، وسأله عن أوصاف الرجل المطلوب. أما عائشة، فقد كانت تقف في الخارج تتفحص الزقاق وباب الحانة بنظراتها الثاقبة؛ لعلها تلمح ضالتها وهو يدخل أو يخرج من الحانة.

رفع الساقي عقيرته عاليًا في وجه عمرو: ما هذا اليوم! هل سنترك العمل ونتفرغ للرد على أسئلة الزبائن السمجة! قلت من قبل إنني لم أرَ أي شخص يحمل خنجرًا مرصعًا يتخفى في زي أسود.

عقد عمرو حاجبيه، وأخذ يفكر عمن يبحث عن القاتل سواهما؟

قال: ومن سأل عنه قبلي؟

قال الساقي بضجر: أحد الجنود كان هنا قبلك، ورحل قبل وصولك بدقائق.

علت أصوات الشجار، وانضم له آخرون من الجانبين (من العاملين في المكان ومن بعض الزبائن)، فاتسعت دائرته واشتدت حدته، واقترب من عمرو.

تركه الساقي، وانضم لفريقه في الدفاع عن الحانة، وأخذ عمرو يتلمس سبيلًا للخروج وهو يشد قبضته على مقبض سيفه، وارتفعت قذائف القناني الزجاجية في الهواء؛ لتسقط على طرفي الشجار.

وعمرو يسير إلى جوار الحائط، ويتجه نحو الباب، ويتجنب قدر المستطاع الإصابة بقذيفة قنينة طائشة، واشتد الهرج، واشتعل الجنون في المكان، وصارت أمطار القناني الزجاجية قريبة منه للغاية، واشتبك عمرو رغمًا عنه في الشجار العام، وهو يحاول أن يجد طريقًا للخروج.

انتبهت عائشة في الخارج على صوت الشجار والهرج داخل الحانة؛ فتحفزت حواسها، وأمسكت بمقبض سيفها في وضع الاستعداد. ومضت لحظات ولم يخرج عمرو، فاستشعرت أنه ربما يكون في ورطة، وقررت اقتحام الحانة، فاندفعت مسرعة إلى الداخل. وبمجرد أن اقتحمت الباب حتى فوجئت بعاصفة من القناني المتطايرة، واضطرت أن تخفض رأسها حتى لا تصاب، ولمحت عمرو الذي كان قد وصل بصعوبة إلى قرب الباب، فاتجهت إليه لكنها فوجئت أمامها بثور سمين هائج سكران يندفع نحوها، وهو يحمل في يده جزءًا من قنينة مكسورة، ويصدر صوتًا كالخوار.

رفعت ذراعيها أمامها بسرعة؛ لتتقي ضربة موجهة من سن القنينة الزجاجية المكسورة نحوها، فحمت وجهها، لكن كفها أصيب، وبدأ ينزف دمًا. ورغم جرحها، تناولت بسرعة أحد المقاعد الخشبية الملقاة بجوار الجدار، وضربت به الرجل السمين على وجهه فأسقطته أرضًا.

وأخيرًا، استطاعا الخروج بصعوبة من الباب، وسارا في الزقاق، وأصوات الشجار في الحانة لازالت تطرق سمعهما، وعائشة تمسك بكفها المجروح لتوقف الدم، وعبد الرحمن يتمتم بكلمات ساخطة

وعلامات الغضب تملأ ملامحه. وعندما رأى جرح أخته أخرج من جيبه منديلًا، وربط به كفها، وهو يلقي بكلمات اعتراضية ساخطة ويزفر ويتأفف، ثم هتف بها: أين كان عقلي وأنا أطاوع جنونك! كيف لنا أن ندخل إلى هذا المكان القذر المليء بحثالة البشر!

- لم أكن أتخيل أن بلدتنا تلك تحوي كل هذا العدد من أوكار الشياطين المسماة بالحانات!، هل يعرف هؤلاء القوم أن الخمر محرمة! كيف يترك الأمير تلك الأماكن المفسدة مفتوحة للعامة والرعية؛ لتفسد الشباب، وتأكل عقول الرجال! وأين من يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر من أهل البلدة لينصحوا هؤلاء!

- إن من يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر مع شيخك في القبور.

تذكرت كلمات شيخها.. أتظنين أن الشاب الذي أتقن الرقص الأندلسي، وتعلق قلبه بالنساء، وتذوق الخمر؛ يستطيع أن يحمل سيفًا أو يبلي بلاءً حسنًا في ميدان الجهاد! من سيقود الأمة للجهاد وأولوا الأمر مشغولون ببناء القصور الفاخرة، والتنافس على صرف أموال المسلمين في تزيينها وتعميرها، يريدون جنة الأرض، ولم أرَ أيًّا منهم يحرص على تعمير جنته في الآخرة!

فقالت بأسى: كان عليهم أن يقتلوه.

نظر لها عمرو بدهشة، وهي تكمل: كان هو الغصة الحارقة في حلوقهم، صار الفساد والمحرمات تجارة رابحة تدر أموالًا لا تحصى، وتأكل من صحة

الشباب وعقولهم، وحتى تروج تجارة المحرمات؛ كان عليهم إسكات أي صوت يقول كلمة حق، أو يحاول إيقاظ الأمة لتنقذ ما بقي من شبابها.

- كان أعداؤه كُثرًا يا أختاه، وكلهم يريدون قتله، فمِمَّن ستثأرين والقائمة طويلة!

- سأثأر لشيخي ولو كان هذا هو آخر عمل لي في هذه الدنيا، وسأجد القاتل ولو عشت عمري كله لا هم لي إلا البحث عنه.

- أوصاف القاتل يمكن أن تنطبق على آلاف البشر في هذه المدينة، فكيف ستجدينه إذًا؟

- سأجده، وسترى.

سمعا صوتًا قريبًا يهمس: هاي، أنتما.

تلفتا حولهما حتى وجدا صبيًّا يقف بحذر على ناصية الزقاق خلف برميل خشبي كبير، وهو يتلفت حوله وكأنما يخشى أن يراه أحد، أخذ يشير إليهما، وهمَّت عائشة أن تتقدم، لكن عمرو رفع يده يوقفها محذرًا خشية أن يكون فخًّا، نظر يمينًا ويسارًا ثم تقدم بحذر، وخلفه عائشة. وعندما اقتربا من الصبي، همس لهما سمعتكما تسألان الساقي عن شخص يتوشح بثوب أسود، ويحمل خنجرًا فضيًّا مرصعًا.

قالت عائشة بصوت خشن كصوت الرجال: نعم، هل تعرفه؟

صمت الصبي، وأخذ ينظر إليهما، ففهمت عائشة أنه يريد مالًا، فوكزت أخاها ليعطيه، فنقده على الفور بعض المال. فرح الصبي

وانطلق لسانه: إنه زبون دائم هنا، لكنه في إحدى الليالي جاء متخفيًا في الأسود، ولكنني عرفته على الفور بمجرد أن سمعت صوته، وهو يجلس إلى طاولة في ركن قصي، ولم تمض دقائق حتى جاء رجل غريب ليس من رواد المكان وجلس إلى نفس الطاولة كان يحمل في خاصرته ذلك الخنجر المرصع الذي تسألان عنه.

قال عمرو: صفه لنا.

قال الصبي: كان طويلًا، وكتفاه عريضتان، ويبدو عليه الغنى من ملابسه، كما لو كان أميرًا، و.. و..

صمت مجددًا، ففهم عمرو أنه يريد المزيد من المال؛ فنقده زيادة بسرعة، فانفك لسان الصبي: كان ملثمًا، وصوته رخيم، ويلبس في خنصره خاتمًا فضيًّا به فص ياقوتي ضخم، ويحمل معه عملات ذهبية تفوح منها رائحة عطره، شممتها عندما اقتربت من طاولتهما لأنظف ما سال عليها من بعض قطرات الشراب التي سالت من كأس الأسود، وتعجبت كثيرًا، فلم يسبق لي أن رأيت نقودًا معطرة.

ضاقت عينا عائشة، وسألته: هل كان الآخر يشرب؟

عندما صمت مجددًا، نقده عمرو المزيد من المال؛ فأجاب: لا. الأسود فقط هو من كان يشرب، وعندما خرج الرجل المتنكر في الثوب الأسود خرج بعده بقليل الرجل الغني، لكنه لم يكن يحمل في خاصرته الخنجر.

رحل الصبي، ومشت عائشة بجوار أخيها متجهيْن إلى مربط فرسيهما، وقالت ببطء وكأنما تفكر بصوت عال: والآن عرفنا من دفع للقاتل ليقوم بفعلته، إنه أحد الأمراء.

قال عمرو: أو ربما كل الأمراء دفعوا له! الأمور تزداد تعقيدًا؛ كنا نبحث عن واحد.. والآن صرنا نبحث عن اثنين.. أحدهما أمير.

اعترض طريقهما فجأة حصان كبير يمتطيه شاب يرتدي زي الجنود، وهتف بصوت يمتلئ غلًّا: أخيرًا عثرت عليك أيها القاتل المجرم.. سأنتقم لشيخي منك.

أشهر سيفه في وجه عائشة التي يغطيها السواد من رأسها لقدميها، فنفضت عنها المفاجأة، واستعادت رباطة جأشها بسرعة، واستلت سيفها، ووقفت أمامه متحفزة. قفز الجندي من فوق حصانه أمامها مباشرة، وسحب عمرو سيفه من غمده، ووقف متحفزًا. هتف الجندي موجهًا كلامه لعائشة، وهي بزى الفارس الأسود: انتظرتك أيامًا وأنا أراقب ذلك المكان القذر بلا كلل حتى ظهرت أخيرًا، أشار لكفها المصاب والمضمد بمنديل عمرو: الحمد لله أن وجدتك قبل أن يشفى جرح كفك وتختفي بين الناس.

هتف عمرو: أنت مخطئ، ليس هو..

لم يترك له فرصة ليكمل وهتف بغضب عارم وهو يرفع سيفه ويهوي به على رأس عائشة: لن تستطيع خداعي، سأقتص لشيخي منك.

رفعت عائشة سيفها، وصدت ضربته القوية، لكنه أعقبها بثانية وثالثة، وهي تصد ضرباته القوية بصعوبة، وتدخل عمرو بسرعة ليدافع عن أخته، واشتبك معه في مبارزة سريعة، لكن الجندي ضرب سيفه بضربة فنية دقيقة أطاحت به بعيدًا، ثم التفت لعائشة واشتعلت بينهما مبارزة عنيفة.

كانت عائشة تدافع عن حياتها، وتصد ضرباته القاتلة، وتقفز وتقوم بحركات بهلوانية؛ لتبتعد عن مرمى ضرباته أو تصدها بسيفها، وفي نفس الوقت تتقي توجيه ضربة قاتلة له، فقد عرفت فيه تلميذ الشيخ الذي رأته في بيته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وعندما تناول عمرو سيفه مجددًا اشتبك بسرعة معه؛ ليترك الفرصة لعائشة لتهرب. وانطلقت عائشة تجري بين الأزقة الملتوية، وترك الجندي عمرو، وانطلق يركض خلفها، وركض خلفه عمرو محاولًا حماية أخته. كان الثلاثة يركضون خلف بعضهم البعض تحت جنح الليل بين الأزقة والحارات وعبر الطرق.

دخلت عائشة أحد الأزقة الضيقة المظلمة، لكن الجندي لم يدخل خلفها، بل التف من الجهة الأخرى، وتسلق أحد البيوت ذات الطابق الواحد، وعندما وصل إلى السطح قفز برشاقة إلى سطح البيت الملاصق له، وظل يقفز من سطح بيت لآخر حتى وصل إلى نهاية الزقاق قبل أن تصل عائشة بلحظات، وقفز إلى الأرض ليسد عليها نهاية الزقاق. فوجئت به أمامها، ولم تستطع التراجع أو الهرب، ولم تجد مفرًّا من مواجهة سيفه، اشتبكا في مبارزة حامية عنيفة في الظلام، وانضم لهما عمرو محاولًا التدخل، أو صد هجوم الجندي الشرس، فيبعده بضرباته العنيفة.

أرهقت عائشة، وكادت تسقط، وكاد سيفها أن يتحطم من عنف ضرباته القوية. وفجأة، تجمد الجندي في مكانه وجحظت عيناه، وترنح قليلًا، وسقط منه سيفه، ثم خر على وجهه.

أصيب عمرو وعائشة بالدهشة لما حدث للجندي، ما الذي أصابه وكيف خرَّ على وجهه بهذه الطريقة الغريبة!؟ رفعت عائشة وجهها لأعلى، وأخذت تحملق في الفراغ المظلم، وشعرت بأن هناك شيئًا غير طبيعي في المشهد. ضاقت عيناها وهي تحاول أن تتبين ذلك الشيء الذي يختفي في الظلام.

هتف عمرو: صخر!

التفتت له عائشة بدهشة، ثم كررت بتعجب: صخر!

اندفع عمرو نحو ذلك الكائن المتواري بين خيوط الظلام، وغاصت عيناها في الظلام حتى تبينت- أخيرًا- ملامحه. هتف عمرو وهو يشرئب بعنقه، ويرفع وجهه لأعلى ليصل ببصره إلى وجهه: ما الذي أتى بك إلى هنا؟ وكيف عرفت مكاننا؟ وما الذي فعلته بالجندي؟

ظل صخر صامتًا كعادته، جامد الوجه لا يتحرك، يقف كنخلة سامقة لفحتها النار فأحالتها إلى السواد الحالك.

قالت عائشة بتوعد: صخر، هل علمت أمي بمكاننا؟

بالكاد تبينت حركة رأسه التي تجيب على سؤالها بالنفي، تنفست الصعداء، وقالت بارتياح: الحمد لله.

أردفت: إياك ثم إياك أن تخبرها أين وجدتنا.

لم يمكنها الظلام من تبين إيماءته لكنها مطمئنة إلى أنه لن يفعل.

نظرت للجندي المفترش الأرض، ثم سألت صخر: أنت لم تقتله، أليس كذلك؟

من جديد لم تتبين حركاته، لكنها فهمت أنه لم يفعل، فأشارت إليه آمرة: هيا إلى البيت.

***

كان عمرو يجلس على مقعد خشبي بجوار الفوارة الرخامية القابعة في منتصف حديقة قصر والده يراقب عائشة وهي تسير فوق مسطبة الفوارة الدائرية وتقطعها بسرعة ورشاقة في خطوات متكررة، تدور وتدور بلا كلل، وثوبها الحريري الفاخر بتدريجات ألوانه الزرقاء الزاهية والمطرز بأجمل الخيوط والألوان يصدر حفيفًا مع كل لفة، وتتطاير أكمامه الشفافة مع نسمات الهواء، وضفيرة شعرها الأسود المجدولة بحبات من اللؤلؤ اللامع تتراقص على ظهرها تاركة بضع خصلات قصيرة حرة تزين جبينها الناصع.

هتف عمرو بضجر: كفي عن الدوران بهذه الطريقة؛ أصبتني بالدوار.

قالت وهي لا تزال تدور: عقلي لا يفكر إلا بهذه الطريقة.

- وكيف يفكر عقلك وهو يدور في دوائر مفرغة!

- كيف نخرج القاتل من جحره؟

- عندما يشعر بالخطر؛ سيظهر بالتأكيد.

توقفت فجأة عن الدوران، ونظرت إليه مليًّا، ثم قالت بتفكير: علينا أن نجبره على الظهور.

- لا تتمادي في تلك اللعبة؛ فأمك بدأت تقلق.

- أمي!

- ألم تلحظي أنها أطلقت صخر خلفنا؟

التفتت إلى أحد أركان الحديقة، ورأت صخرًا مستلقي على العشب على جانبه الأيسر في ظل شجرة، وظهره لهما كما لو كان في قيلولة. صمتت متفكرة في كلمات أخيها، لم يكن صخر عبدًا عاديًّا، بل يعتبره الجميع فردًا من الأسرة؛ فقد تربى في حجر أمها منذ اشتراه جدها طفلًا ووهبه أمها، فربَّته بين أبنائها وأحسنت إليه، فصار لا يأتمر إلا بأمرها، ولا يسير إلا في ظلها وتحت بصرها.

- أشعر بأننا تحت الرقابة الصارمة. كيف وصل إلينا أمس! أكاد أجن.

- حتى لو كان يراقبنا فهو لا يزعجني، لم يخبر أمي بما حدث أمس، ولن يخبرها.

- لا تسرفي في ثقتك تلك؛ فهو عبدها المطيع، ولا يعصي لها أمرًا، وأمي قد تتغافل، لكنها لا تغفل أبدًا.

- دعنا من صخر الآن، وأخبرني كيف نخرج القاتل من مخبئه.

كان صخب الصبيَّان عثمان وعلي يملأ الحديقة وهما يتبارزان بسيفين من الخشب، ويركضان خلف بعضهما البعض بمرح،

شرد عمرو قليلًا وهو يتأمل الصبيين، وتذكر عائشة وهي تبارز الجندي، ثم انفجر ضاحكًا: وكأنني رأيت هذا المشهد من قبل، أخيرًا وجدت من يتغلب عليك.

ألقته بنظرة مغتاظة بعد أن فهمت ما يرمي إليه، وكادت تطلق لسانها نحوه، لكنها فجأة نظرت إلى الصبيين، ولمعت عيناها وكأنما أضاءت عقلها فكرة مبدعة. قفزت من فوق مسطبة الفوارة، وجرت إلى أخويها عثمان وعلي، وهتفت بهما: ماذا تلعبان؟

توقفا عن اللعب، ونظرا إليها بدهشة، وكأنما يتساءلان عما جعلها تهتم فجأة بما لم تهتم به أبدًا من قبل.

قال عثمان: كما نلعب كل يوم!

قالت بلهجة ماكرة: ظننت أنكما تلعبان لعبة المطاردة بين الجندي والقاتل الأسود!

انتبه الصبيّان، وتحفزا لاستقبال قصة مثيرة، وهتف علي بحماس: وما قصة تلك المطاردة؟

قالت: ألم تسمعا بها؟ عجبًا!

قصت عليهما القصة بمزيج من التشويق والمبالغة، حتى صاح علي قائلًا لعثمان بحماس بالغ: أنا الجندي وأنت القاتل.

رد عليه عثمان بثورة: بل أنا الجندي.

أخذا يتشاجران على مَن مِنهما يكون الجندي، وابتسمت عائشة، وأخذ عمرو يراقبها بصمت مندهشًا من تصرفاتها الغريبة.

قالت عائشة لأخويها: لا شك أن أنيسة الخادمة تعرف هذه القصة.

هز عثمان رأسه نفيًا: لا أظن ذلك.

قالت متصنعة الدهشة: لا يمكن أن تفوتها قصة كتلك، بالتأكيد سمعت بها في السوق.

قال عثمان: لو كانت سمعت بها؛ لكانت حكتها لنا.

قالت بمكر: لا شك أنها لو سمعتها فستجدها قصة مثيرة للغاية.

نظر الصبيان إلى بعضهما البعض، وانطلقا يتسابقان ليبلغاها بالقصة. ووقفت هي تنظر إليهما برضا، وهما يبتعدان.

اقترب منها عمرو، وتساءل بدهشة: حسنًا، ما الذي يدبره عقلك الصغير؟

- علينا أن نستفزه للخروج من جحره.
- وهل ستقنعه أنيسة بذلك!
- أين ذكاؤك يا أخي العزيز!
- أفصحي عما في عقلك دون ثرثرة فارغة.

–   ما الذي ستفعله إذا ما وجدت منافسًا من رفقائك يسعى لأخذ مكانك في الصدارة، ويريد أن ينتزع منك الزعامة؟

عقد حاجبيه بغضب عندما تذكر ما فعلته به في الغابة، وقال بعزم: سأنازله حتى أهزمه.

–   عقول الرجال كلهم واحدة، هذا هو ما سيفعله القاتل إذا ما شعر بأن أحدًا ما يريد أن يستولي على مكانه وينتزع منه مصدر رزقه.

–   أخشى أن من دفع له المال ليقتل الشيخ لن يعجبه هذا أبدًا.

نظرت له وهي تفكر، وبدأ يداهمها القلق، ثم قالت: فلنعرف طريقه أولًا، ثم نبحث عمَّن دفع له بعد ذلك.

***

جلس عمرو فوق سطح البيت المواجه لباب حانة اللصوص، والمكون من طابق واحد، وإلى جواره أخته عائشة في زيها الأسود كقطع الليل يرقبان كل حركة تدور في الزقاق في انتظار ظهور الشبح الأسود قاتل الشيخ.

تململ عمرو قائلًا: يبدو أننا سنظل هنا أبد الدهر، ولن يظهر أبدًا.

–   لن أبرح حتى يظهر.

–   فشلت خطتك يا أختاه، وعليك أن تعترفي بالحقيقة، وتستسلمي، وتتركي الأمر للشرطة والقضاء. هيا، فلنعد إلى البيت، لازلت لا أصدق أننا استطعنا الفكاك من مراقبة صخر.

- الشرطة! الشرطة منشغلة بجباية المال من الفقراء، وحراسة الأغنياء، وثوب القضاء امتلأ بالثقوب والرقع البالية. ماذا تنتظر من شرطة رئيسها فاسد مفسد! وقضاة باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، يتركون الحانات وأوكار المجرمين، ويسكتون عن قتل شيخ يقول كلمة حق، ولا يقيمون الحدود إلا على الفقراء والمساكين.

- لا تأملي أن تصلحي الكون، حتى لو انتقمت لشيخك، فلن يتغير أي شيء، عليك أن تستسلمي وتعلني فشلك.

ابتسمت عندما رأت شبحًا متشحًا بالسواد يدخل الزقاق، ويتجه إلى باب الحانة، وقالت بثقة بالغة: عندما أعلن استسلامي فسأكون جثة هامدة بالتأكيد، أما الآن فلا مانع لدي أن أتقبل منك اعتذارًا مهذبًا، واعترافًا بأنني كنت على حق، وأن خطتي نجحت بالفعل.

نظر إلى حيث تنظر، ورأى القاتل يدخل من باب الحانة؛ فهمس بانبهار: لقد ظهر بالفعل، نجحت خطتك وأجبرته على الخروج من مخبئه.

هبت من مكانها، وقالت: لا تضِع الوقت، لقد وقع الفأر في المصيدة.

قفز الاثنان من سطح البيت إلى الأرض، واقتحما الحانة بلا تردد، وأشهرا سيفيهما، واتجه عمرو إلى اليسار، وعائشة إلى اليمين؛ ليطوّقا القاتل الذي كان يجلس إلى إحدى الطاولات القصية يغطي جسده بالملابس السوداء، ويخفي وجهه بلثام أسود، وعندما رآهما يتجهان نحوه انتفض من مجلسه ووقف يواجههما.

وانتحى رواد الحانة جانبًا، وكثير منهم فرُّوا عندما رأوْا حربًا تشتعل بالمكان بين شبحين أسودين، وتردد الساقي والعمال كثيرًا في التدخل؛ رهبة من منظر السيوف المشهرة والفارسين الملثمين.

اندفعت عائشة تهاجم القاتل بسيفها بشجاعة، لكنه قفز لأعلى قفزة هائلة كما لو كان يطير، وهو ينتزع سيفه من غمده في نفس اللحظة، ثم نزل على الطاولة التي كان يجلس إليها برشاقة بارعة موجهًا سيفه مباشرة نحو رأسها في ضربة قوية. طوحت رأسها إلى الخلف لتتفادى ضربته القاتلة، ودارت بجسدها كله دورة رأسية بارعة مبتعدة عن مرمى سيفه، وقبل أن يهاجمها ثانية قفزت فوق طاولة أخرى بجوار التي يقف عليها. وبذلك أصبحت في نفس مستوى جسده، ثم اندفعت بسيفها تبارزه بمهارة من فوق الطاولة.

حاول عمرو أن يتدخل، لكنه رأى أخته تبلي بلاءً حسنًا، فوقف متحفزًا مستعدًّا يراقب الاثنين وهما يتبارزان برشاقة ومهارة فريدة.

اشتدت وطأة ضربات القاتل، وعائشة تقفز يمينًا ويسارًا؛ لتفادي ضرباته القوية، فطوح سيفه بضربة مستعرضة كادت أن تطيح برأسها لولا أنها تراجعت للخلف قفزًا من فوق الطاولة إلى الأرض فلم ينالها سيفه، وقبل أن يأتي بحركة أخرى هوت بسيفها على الطاولة الخشبية التي يقف عليها فقسمتها نصفين لتهوي أرضًا ويختل توازن القاتل، ويسقط فوقها على ظهره، وتستغل هي فرصة سقوطه لتهوي بسيفها على رقبته، وكادت بالفعل أن تقتله لولا أنه تدحرج بسرعة عدة مرات مبتعدًا عن سيفها.

ورغم ذلك، استطاع السيف أن يصيب كتفه، لكنه قفز رغم جرحه قفزة رشيقة، ووقف على أقدامه، وهو يصد ضرباتها القوية.

كانت تكرُّ للأمام في ضربة فنية يصدها القاتل بسيفه، ثم تفر للخلف وسيفه يكاد ينزل على عاتقها، فتنجو من ضربة قاتلة. وعمرو تشتعل عروقه بالغضب والتحفز ينتظر اللحظة المناسبة للتدخل. وجهت له ضربة شديدة كادت أن تصيب ذراعه، لكنه ابتعد في الوقت المناسب، ودار حول نفسه موجهًا لها ضربة هائلة تفادتها بقفزة للخلف، لكنها اصطدمت بطاولة خلفها لم تلحظها؛ فانقلبت الطاولة واختل توازنها، وسقطت أرضًا واصطدمت رأسها بأحد أرجل الطاولة المقلوبة وشعرت بدوار شديد، فأغمضت عينيها بقوة وفتحتهما، ورأت القاتل يقف فوق رأسها، ويرفع سيفه عاليًا وينهال به على رقبتها. مدت يدها تتحسس الأرض من حولها تبحث عن سيفها فلم تجده، وأيقنت بهلاكها، وأخذت تراقب سيف القاتل، وهو يهوي على رقبتها، لكن السيف توقف قبل أن يصل إليها؛ لقد اعترضه سيف عمرو في اللحظة المناسبة، وتصدى لسيف القاتل، واشتبك معه عمرو في مبارزة عنيفة، والقاتل يحاول أن يبعد عمرو عن طريقه ليجهز على عائشة.

نهضت عائشة ببطء، والدوار لازال يعصف برأسها، واستندت إلى كرسي قريب منها، وشعرت بقطرات تسيل من جانب رأسها. وعندما تحسستها بأصابعها وجدتها دماءها، أخذت تبحث عن سيفها، وعندما وجدته بجوار الطاولة المقلوبة؛ انحنت لتأخذه فوقعت عيناها

على رجل طويل ذي لحية رفيعة يقف بجوار الساقي، شعرت بأن عينيه مألوفتان لديها، وكأنها رأتهما في مكان ما من قبل، أخذت تتفحصه جيدًا من فوقه لتحته. وعندما وقعت عيناها على يده اليمنى ارتجفت؛ فقد رأت فيها أثرًا لجرح عميق. كان الرجل ينظر إلى المبارزة القائمة بين عمرو والقاتل، لكنه أدار رأسه فجأة ليتحدث إلى الساقي الذي يقف بجواره فرأت في خده ثقوبًا غائرة بها آثار حرق. استعاد خيالها في لحظة منظر بهلول وهو يلقي في وجه القاتل بمسحوق أسود، والقاتل يصرخ وتفوح منه رائحة لحم مشوي.

لم يعد لديها أدنى شك في أنها تقاتل الشخص الخطأ؛ فالقاتل يقف أمامها الآن يتصنع أنه شخص عادي من رواد الحانة. أمسكت بسيفها، واتجهت نحوه وعندما انتبه إليها وأدرك أنها تقصده وتشهر سيفها نحوه؛ انطلق يركض من باب الحانة، وانطلقت هي تجري خلفه بلا تردد.

عندما رآها الملثم الأسود الذي يقاتله عمرو تجري ظنها تهرب من الحانة؛ فهجم هجمة شرسة على عمرو، وأطاح بسيفه وانطلق يركض خلفها، تناول عمرو سيفه بسرعة، وخرج من الحانة يتبعهم ركضًا.

كانت مطاردة غريبة مثيرة في أزقة وحارات المدينة، أربعة أشخاص يركضون خلف بعضهم البعض تحت أستار الليل السوداء والناس نيام.

وصل الشخص المتنكر في السواد أولًا إلى عائشة المتنكرة مثله، والتي أدركت أخيرًا أنه الجندي تلميذ الشيخ، والذي يريد أن يثأر له مثلها، وأنه فكر في نفس الخطة التي فكرت فيها ليجد القاتل. بدأ يسدد لها ضرباته، وهي تحاول صدها وتفاديها بكل جهدها. وعندما شعرت بأن القاتل يهرب مبتعدًا، ولن تستطيع أن تمسك به؛ هتفت تخاطبه بصوت خشن، وهي تصد سيفه بسيفها: لست أنا ضالتك أيها الغبي، أنت تطارد الشخص الخطأ، نحن الاثنان هدفنا واحد.

أشارت برأسها إلى آخر الزقاق؛ حيث وصل القاتل، ويكاد يختفي: من تريده هناك، يوشك على الهرب.

تردد لحظة، وقلب نظراته بينها وبين الرجل الذي اختفى في آخر الزقاق، وصل عمرو إليهما وهتف بعائشة: أين ذهب؟

قالت بسرعة: اختفى في آخر الزقاق.

صرخ بعجلة: لن أفلته.

وانطلق يجري نحو آخر الزقاق، وتبعته عائشة، وتردد الجندي لحظة، ثم انطلق خلفهما ركضًا. عند آخر الزقاق، كان هناك مفترق طرق، فقال عمرو بعجلة: سأبحث من هذه الجهة، وأنت ابحث في جهة الأخرى.

لحق بهما الشاب، وقد استوعب ما يحدث، فأشار له عمرو قائلًا: وأنت ابحث في الطريق الرئيسي، لا أظن أنه قد ابتعد كثيرًا.

انطلق الثلاثة كلٌّ في اتجاه يبحثون عن القاتل. دخلت عائشة في الطريق الضيق الذي عبر بها إلى زقاق آخر، لكنها توقفت فجأة من هول الصدمة، فلقد رأت القاتل ملقًى أرضًا، ومن صدره يبرز مقبض الخنجر المرصع الذي ارتكب به جريمته، ودماؤه تسيل على الأرض، وجسده يرتجف وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

أطلقت من فمها صوت صفير يعرفه عمرو جيدًا، فانطلق إليها مسرعًا. وعندما رأى المنظر هتف بغيظ: سأبحث عمن فعلها.

كان الشاب قد انضم إليهما، ورأى القاتل مقتولًا؛ فقال لعمرو: لن تستطيع اللحاق به، رأيت عربة فاخرة يبدو أنها لأحد الأمراء أو الأعيان تنطلق مبتعدة على الطريق الرئيسي بسرعة كبيرة.

اقتربت عائشة من القاتل، ونزلت على ركبتيها قائلة بخشونة: من دفع لك لتقتل الشيخ؟

كانت عيناه جاحظتيْن، وفمه يغرغر.

فقالت: أخبرني من أمرك بقتل الشيخ قبل أن تذهب إلى ربك، وتلقى حسابك.

نظر إليها ولسانه يتحرك، وكأنما يريد أن يقول شيئًا. كان عمرو يشاهد الموقف بدهشة وصمت.

ونزل الجندي الشاب على إحدى ركبتيه، وسأل القاتل: من فعل

بك هذا هو من أمرك بقتل الشيخ.. أليس كذلك؟

خارت قواه وخمدت أنفاسه، وغادرت روحه جسده.

وقف الثلاثة ينظرون بخيبة أمل إلى الجسد المسجى أمامهم بعد أن فقدوا آخر خيط يمكن أن يكشف لهم سر مقتل الشيخ، وقال عمرو: لقد نال جزاءه بنفس الخنجر الذي طعن به الشيخ.

قالت بحسرة: ويبقى من أمر بالجريمة، ومن دفع له حرًّا يسعى في الأرض فسادًا دون أن يكتشف أمره أحد.

قال الشاب بغلٍّ: قسمًا لن أترك ثأر شيخي مهما طال الزمن، سأطارد كل من أعان على قتل شيخي ولو بشق كلمة، وسأقتص منه.

انحنى عمرو على جثة القاتل، وبدأ يبحث في ملابسه، فسألته عائشة عما يفعل؛ فقال: أبحث عن أي دليل أو خيط يقودنا لمن دفع له.

انحنى الشاب على الجثة، وبدأ يصنع صنيع عمرو. فجأة، أخرج من بين طيات حزامه رقعة مطوية، فتحها وأخذ يقرأها

اشتعلت ملامحه بالغضب: إذًا فهذا هو ثمن قتل شيخي!

أكلهما الفضول، فسأله عمرو: ما المكتوب في الرقعة؟

عصر الرقعة بين يديه، وهو يطحن أسنانه بغلٍّ، والدماء تكاد تنفجر من وجهه القاني: الأمير عبد الرحمن! لا نجوت إن نجا



كانت كلماته كصاعقة برقت فجأة، فأصابت شجرة وأشعلت فيها النيران. اختطفت عائشة الرقعة من بين يديه، وأخذت تقرأها وشاركها عمرو. كادت أن تسقط مغشيًا عليها عندما قرأت الاسم عدة مرات وتأكدت أنه هو، وعندما رفعت رأسها لم تجد للجندي أي أثر في المكان. وأدركت على الفور إلى أين سيذهب، وما هي خطوته القادمة.

* * *

(4)

في حي الأعيان..

وعلى أحد الطرق الرئيسية المعبدة بعناية، والتي تنتشر على جانبيها الزهور الملونة والأشجار الخضراء، يطل بناء كبير مبني بالأحجار البيضاء لا تخطئه عين عابر للطريق، فما من أحد لا يعرف أشهر حمام في البلدة، ذاك الذي يرتاده الأثرياء والأمراء والتجار والأعيان. وقفت أمامه عربة فاخرة يجرها حصان مسرج بسرج فخم، ولجام مجدول، وترجل منها أحد الأمراء ودخل المبنى.

وفي إحدى غرف الحمام الداخلية، أخذ الخدم يساعدونه في خلع ملابسه، ولف نصف جسمه السفلي بمئزر فاخر. دخل الرجل إلى القاعة الكبيرة، والتي تحوي أحواضًا ضخمة للماء الساخن، الذي يتصاعد منه البخار بكثافة، ويخفي أغلب معالم الحمام بسحابة رقيقة بيضاء، ويترسب على جدرانه الناعمة المزينة بنقوش جميلة بارزة على شكل نباتات.

وفي الأركان الأربعة تماثيل بيضاء عَلى شكل حيوانات دقيقة الصنع، وعلى المصاطب الرخامية المنتشرة في الحمام، جلس بعض رواد الحمام وبعضهم اضطجع، وآخرون يسترخون في أحواض الماء الدافئ.

أخذ ذلك الأمير الشاب ذو الوجه الرفيع واللحية الصغيرة المنمقة والملتفة حول أسفل ذقنه؛ يدور في الحمام، ويبحث بعينيه الجاحظتين البارزتين المكتحلتين في كل الوجوه حتى وصل إلى ركن قصي بعيد عن الزبائن يضطجع فيه أحد الرجال بجسمه الضخم على مصطبة رخامية عريضة وهو مغمض العينين، له شعر رمادي أصلع من الأمام، ومن الخلف طويل حتى كتفيه، ووجه مستطيل بملامح قاسية وحاجبين كثيفين، وشارب رمادي ضخم يغطي شفته العليا.

عندما جلس الأمير الشاب بجواره على المصطبة، ظهر بوضوح الفارق الهائل بينهما في الحجم، نظر الأمير حوله واطمأن إلى أنه لا أحد ينتبه إليه أو ينظر نحوه؛ فتظاهر بأنه لا يعرف الرجل، وهمس دون أن يلتفت إليه: الأمير يأمرك بمهمة عاجلة.

قال الضخم بصوت خفيض، ودون أن يفتح عينيه، وكأنه يعرف محدثه حق المعرفة: أمر الأمير نافذ، هات ما عندك.

- الغبي الذي قتل الشيخ.

- لقد انتهى أمره واختفى من على وجه الأرض.

- ما كان عليك أن تقتله.

- غبي، فضح نفسه وأصبح هدفًا مرصودًا ومطاردًا. كنا مضطرين أن ننظف ذيلنا حتى لا يتعقبه أحد، ويصل إلينا.

- ولهذا أخفيتم جثته قبل مجيء الشرطة؟

- هذه شئون خاصة في جماعتنا، ولا يحق لأحد السؤال عنها.

- القصر كله انقلب لمقتل الشيخ، وهناك من الأمراء من يطالبون بالقصاص من قاتله، أبناء الأمير عبد الرحمن أقاموا الدنيا من أجل الانتقام من قاتل الشيخ، والفقيه متربص، ولا أحد يتوقع خطوته القادمة.

- وها قد تحقق لهم ما أرادوا، وما أردنا نحن أيضًا، ذلك جزاء كل من تسول له نفسه ليعمل وحده من خلف ظهري.

- لو لم تقتله لقتلوه هم، أو على الأقل كان عليك أن تترك الجثة للشرطة حتى تنتهي القضية تمامًا.

- ترك الجثة خطر، وقد يؤدي إلى كشف جماعتنا، تلك أمور لا دخل لأحد بها. ذلك خطأ الأمير، ما كان عليه أن يتفق معه دون أن يخبرني، رغم أنها ليست المرة الأولى التي يتعامل فيها مع جماعتنا.

- حسنًا، وها هو يعد بأن يعطيك ما تطلبه حتى تختلق قاتلًا يحمل القضية، ويسكت الأصوات المطالبة بالقصاص، ويهدئ البيت الملكي من الداخل.

- عملي هو القتل لا تسليم القاتل! والأمير يعلم ذلك.

- السعر قابل للتفاوض، يعطيك كل ما تطلبه وزيادة، وتنفذ المهمة، المهم هو أن يهدأ الأمراء الشباب، وتنتهي تلك القضية.

أخيرًا فتح الضخم عينيه، وتألقت فيهما لمعة طمع، وظهر على وجهه التفكير العميق، وقال: ليس هناك سوى شخص واحد يمكن أن

تنطبق عليه تلك الجريمة دون عناء أو تشكيك من أحد. بل وسيكون محل ترحيب من جميع الأطراف.

- المهم ألا يثير المشاكل، أو يطلب المزيد من المال، وألا يبحث خلفه أحد، أو يثير الشبهات، والقيل والقال. تعلم أن الأمير لا يجب أن يذكر اسمه بسوء.

- اطمئن، لن يطلب مالًا على الإطلاق، ولن يسبب لنا إزعاجًا أو مشكلات، ولن يهتم به أحد، وحتى لو حاول الدفاع عن نفسه فلن يصدقه أحد. إنه الشخص المثالي للمهمة.

***

كان عليهما أن يسبقاه إلى القصر بأي ثمن..

فالقصر بعيد عن البلدة بقصورها وأحيائها وأزقتها وبيوتها ودكاكينها. يقع في مروج غرناطة الهادئة وبالقرب من غابة الأشجار. كان القصر يبدو كبناء وحيد فريد تحتضنه الطبيعة الربانية الساحرة.

وصل عمرو وأخته، وبمجرد أن دخلا إلى القصر، هتف عمرو: ها قد وصلنا، والآن هلَّا أخبرتني لم أتينا إلى هنا؟!

لم تجب سؤاله، بل لم تسمعه، فبمجرد أن وطئت عتبة القصر غادرت روحها جسدها، وأخذت تحلق في المكان، وتسترد ذكريات طفولتها الجميلة من الغرف والقاعات والجدران والأثاث، وكأنما تجمع خيوط ماضيها خيطًا خيطًا؛ لتغزل منه ثوب الحنين والشوق لأيام لن تعود.

استفاقت من ذكرياتها على هتافه: أنا هنا، ها.. أين أذنيك؟

نظرت إليه، ولاح في ملامحها عدم الرضا أن غادرت ذلك الجزء المحبب من ذكرياتها.

- ما الذي نفعله هنا بالضبط؟

- لا أدري!

أخذ يضرب كفًّا بكف وهو يكاد يجن: قطعنا كل تلك المسافة من غرناطة إلى هنا، وأنت لا تدرين لم جئنا إلى هنا! إنه خطئي من البداية أن أتبع عقلك الطائش.

اتجه نحو باب الخروج، فاستوقفته قائلة: انتظر.

التفت إليها فأكملت: علينا أن نتدارس الأمر جيدًا.

- ما الذي علينا أن نتدارسه! الأمر واضح، الجندي المجنون يبحث عن صاحب القصر؛ ليقتص منه، وبدلًا من أن نذهب لأبي ونسأله.. لم أعطى القاتل صك بيع القصر؟ نأتي إلى القصر الذي لم يطأه أحد منّا منذ وقت طويل!

- تخيلت أنه..

- ماذا! تخيلت أنك ستجدين أبي هنا؟ يا لخيالك الجامح، ولم يأتي إلى هنا! لا شيء يـ.. لقد جننت بالفعل، هل صدقت حقًّا أن..

- لا تتسرع، وتتحدث بما لم أقله، كل ما في الأمر هو أنني أتيت إلى هنا؛ لأبحث عن إجابات للأسئلة التي تملأ عقلي.

- وهنا ستجدين الإجابة! يا للعقل! ألم يعلمك شيخك- رحمه الله- أن أقرب طريق لمعرفة الحقيقة والإجابة على الأسئلة الحائرة هو سؤال صاحب الشأن؟ أم أنك لا تثقين به!

- من تقصد؟

صمت برهة، وهو يقتحم عينيها؛ ليعرف أثر الكلمة التي ألقاها بها، لكنه تغلب على غضبه، وزفر بضيق محاولًا طرد الشيطان الذي سيطر على حديثهما، ثم قال مبدلًا دفة الحديث المفخخ: بكلمات شيخك.

كانت تعي جيدًا أن هذا ليس هو مقصده، لكنها تقبلت إجابته الملتوية لتبعد ذلك الخاطر الشيطاني المزعج الذي يمكن أن يشعل نيران شك قد تحرق البيت بأكمله.

- دعنا من تُرَّهاتك، وانتبه إلى ما أقول، علينا أن نعرف لم أعطى صك ملكية القصر إلى قاتل الشيخ؟

- أعتقد أن أحدهم سرقه.

- ومن سرقه سرق أيضًا الخاتم الخاص بأبي!

القاتل ابتاع القصر بالفعل، هذا هو المكتوب في الصك بوضوح، فمن يستطيع سرقة خاتم أبي؟!

تقدم من الجدار الذي في صدر القاعة، وأمسك بأحد البسط المعلق على الجدار وانتزعه بقوة، فبدا خلفه مجموعة كاملة متناسقة من الخناجر مختلفة الأشكال والأحجام ومقابضها الفضية مرصعة بالياقوت معلقة على الجدار بشكل منسق.

أشار عمرو إلى المكان الخالي من أحد الخناجر: هو نفسه من سرق أحد الخناجر، وأفسد المجموعة الرائعة. وهذا هو ما أحاول أن أسمعك إياه يا ذات العقل الصغير، علينا أن نذهب لأبي مباشرة ونسأله.

- وماذا لو أنكر؟ أو أقصانا عن الأمر برمته؟

باعد ما بين ساقيه ورفع قبضتيه متخذًا وضعية القتال، وهو يضغط أسنانه: أطلقت ثعابين الريبة أيتها المرتابة، إياك أن تفـ..

نظرت إليه نظرة تنبئ بخطر ما، ثم وضعت سبابتها على فمها مشيرة له بالصمت، فانتبه لها وأطبق فمه، وهو ينظر حوله بحذر محاولًا تبين ما يقلقها. أحكمت لثامها الأسود حول وجهها، ثم تسللت بخفة القطط نحو باب مغلق لأحد الغرف، انحنت على الأرض في وضعية السجود، ووضعت خدها على الأرض، وألقت بنظرة أسفل باب الغرفة، ثم هبت قائمة، وعادت إليه بخفة وهمست في أذنه: هناك أحد ما في الغرفة، سمعت صوتًا خافتًا.

نظر إلى الباب، ثم إليها، وقال بشك: أخشى أن يكون عقلك قد سيطر عليه مرض الارتياب. سأرى..

تسلل خارجًا، ورفعت هي صوتها لتوهم المتسلل أنهما لم ينتبها إليه: حسنًا، فليكن، سأسأل أبي، ولتتحمل أنت ما سيفعله بنا.

كانت قد وصلت إلى باب الغرفة، ووضعت يدها على مقبض الباب بتحفز في انتظار إشارة عمرو كما اعتادت منه. سمعت صوتًا قويًا من داخل الغرفة، ثم تحطم شيء تبعه صوت صافرة عمرو؛ فاقتحمت الغرفة على

الفور، لتجد نفسها وجهًا لوجه أمام المتسلل، وهو يحاول الهرب من عمرو، الذي هبط عليه من نافذة الغرفة، وكم كانت دهشتها عارمة عندما عرفته!.

ألقى بنفسه أرضًا، وتكور جسده على بعضه، وغطى أذنيه بذراعيه، وأخذ يصدر أنينًا متصلًا، وأصوات خوف ورعب.

قالت بدهشة: ما الذي أتى بهذا إلى هنا؟!

- ربما قدم على قدميه.
- سار من غرناطة إلى هنا!
- لم يكن ينقصنا إلاه، ماذا سنفعل به؟
- لا أدري، لكن الشيخ أوصانا به خيرًا.

مرق الجندي فجأة من النافذة المفتوحة كوطواط ضخم، وهبط أمامهم، وأخذ يتأملهم بعيني فهد متحفز، ثم قال: سبقتماني بالفعل، أين صاحب القصر؟

سارعت عائشة: هل تظن أنه..

لكن عمرو أسكتها بوكزة خفيفة من مرفقه، ثم قال للجندي: لم نجده، ليس هنا سوى هذا...

نظر الجندي الشاب إلى ذلك المكوم على الأرض، ثم قال: ها، إذًا فقد أحكم الأمير الجريمة، استأجر القاتل ووهبه القصر كمكافئة له على قتل الشيخ، واشترى ذمة الخادم ليساعد القاتل على التسلل إلى بيت الشيخ وتنفيذ جريمته. الآن عرفت ثأر شيخي عند مَنْ.

هتفت: أنت مخطئ.

لكن بهلول أخذ أنينه يعلو، ويتحول إلى صراخ الفزع، وأخذ يتدحرج على أرض الغرفة حتى التجأ إلى أحد الأعمدة الرخامية، وجلس خلفها ظنًّا منه أنها قد تخفيه عن أعينهم.

هتف الجندي بإصرار: لا معنى لوجود خادم الشيخ هنا إلا ذلك، إنهم عصبة من القتلة تواطئوا على قتل شيخي يتزعمهم صاحب هذا القصر.

تبادلت عائشة مع عمرو نظرات القلق والحيرة، وعندما اتجه الجندي الشاب إلى العامود الذي يحتمي به بهلول، اشتعلت النار فجأة في المكان وارتفع لهيبها، فارتد الجندي للخلف وهو يحمي وجهه بذراعه. تحرك عمرو وعائشة بارتباك، وانتزعا الفرش والستائر محاولين إخماد النيران بها، وعاونهما الجندي، لكن الأعجب أن النار خمدت فجأة كما اشتعلت فجأة، ووقع الثلاثة في بحر من الحيرة والتساؤلات.

هتف الجندي: عجبًا! أهو ساحر؟

دارت عائشة حول نفسها تبحث عن بهلول في الغرفة، ثم هتفت: أين ذهب؟

انطلق الجندي إلى البهو الخارجي، وأخذ يبحث عن بهلول، لكنه انتبه فجأة إلى الجدار الذي يتصدر القاعة، وتأمل مجموعة الخناجر للحظة، ثم قال لهما: الآن اكتملت أركان الجريمة القذرة.

***

في مقر رئيس الشرطة..

كان المكان يضج بالحركة الدائبة، والجميع في حالة قلق وتوتر شديد بعد أن وصلتهم أخبار محاولة اغتيال ولي العهد (محمد الفقيه) في مروج غرناطة، لولا أن أنقذه حرسه الخاص.

وجرى البحث على قدم وساق عمن أطلق سهمًا غادرًا على موكب ولي العهد وهو في نزهة صيد في الغابات.

أخذ رئيس الشرطة يحادث نفسه، والقلق يأكل قلبه: يا إلهي! لم ننته بعدُ من جريمة قتل الشيخ؛ لتفجعنا جريمة جديدة، ماذا لو أن ولي العهد قد فقد حياته لا قدر الله!؟ إذًا لانقلبت الدنيا على رؤوس بني أشقيلولة أصهار بني نصر، ولثار بنوا نصر مطالبين بالثأر!، كيف لنا الخلاص من ذلك المأزق!

كان يعمل عقله في إيجاد حل يخرج به بني أشقيلولة من تهمة اغتيال ولي العهد، وتهمة قتل الشيخ، وإيجاد قاتل لا يختلف عليه اثنان؛ يهدئ المطالبين بالثأر، ويبعد التهمة عن قبيلته التي ينتسب إليها. يكفي ما بين بني نصر وبني أشقيلولة من مشاكل، فبرغم أواصر المصاهرة إلا أن حاكم مالقة من بني أشقيلولة الذي ولّاه أمير غرناطة النصري يسعى لثورة تجعله يستقل بمالقة عن بني نصر، وما كان ينقص بني أشقيلولة إلا محاولة اغتيال ولي العهد النصري ابن أمير غرناطة.

انتزع نفسه من أفكاره القلقة، ونظر إلى قائد الحرس الذي تقدم إليه بعدة أوراق: المعلومات التي طلبتها، سيدي.

تناول منه الأوراق بضيق، وقرأها كلها، ثم نظر إليه وعلى وجهه أمارات النصر، وقال بظفر: إذًا، فلقد حُلت الجريمة أخيرًا، من كان يتوقع أن مثل هذا الشخص التافه قاتل خطير! آمرك أن تأتني به حالًا.

– هرب سيدي، ولا أحد يعرف مكانه، ولا ندري له سبيلًا.

– الأوراق تقول إن الشهود رأوه يتسكع بالقرب من قصر الأمير عبد الرحمن في الغابات، في نفس اليوم الذي أطلق فيه السهم على ولي العهد!

– نعم سيدي، لكنه اختفى بعدها.

– إذًا، أرسل سرية للبحث عنه، وأطلق المنادي في طرقات البلدة يعلن عن مكافئة لمن يمسك به.

– أمرك سيدي.

قال وعيناه تلمعان بالغضب: يجب أن يكون تحت يدي حيًّا أو ميتًا قبل الغد، لن يهدأ القصر الكبير قبل أن نجد المجرم الذي قتل الشيخ، وحاول اغتيال ولي العهد.

ثم أطبق كفه بقوة، ولوح بقبضته، وهو يقول: ونقتص منه.

***

على الهضبة المطلة على شاطئ البحر، وقد مضى أكثر من نصف الليل.. وفي داخل القلعة، كان يعقوب الإشبيلي يقطع ممراتها الطويلة مسرعًا، وهو يكمل ارتداء ملابسه، ويضع الغطاء المعبر



عن هويته حول رأسه قبل أن يصِل إلى القاعة، التي بها حاكم القلعة الكونت ريموند.

دخل إلى القاعة الكبيرة، ليجد ريموند ومعه أبو سارة، فتوجس خيفة من قدوم ذلك النخاس إلى القلعة في ذلك الوقت المتأخر من الليل، قال- بتوتر- موجهًا حديثه إلى الكونت: سيدي، بلغني أنك تريد رؤيتي الآن.

قال ريموند: أبو سارة يريد التحدث إليك في أمر هام.

دبَّ الرعب في أوصاله، ونظر إلى أبي سارة مترقبًا.

فقال أبو سارة: ذاك الذي كنت تبحث عنه، وخرج فارًّا من إشبيلية بعد الحصار، ماذا كان اسمه؟

- صالح، اسمه صالح.

هزّ رأسه موافقًا، فأردف يعقوب: لكنه هلك في الطريق.

- هل رأيت جثته بعينيك أنت، أو أي أحد تعرفه؟

- لا، ولكنه حتمًا لم ينج من ذلك المصير، كيف ينجو ونصف أهل إشبيلية أهلكهم الحصار، إمّا داخل أسوارها أو في الطريق بعد أن خرجوا منها؟!

- لا تكن واثقًا إلا مما رأته عيناك، إن عقله الفذ قد يعطيه آلاف الحلول للبقاء على قيد الحياة.

أعطاه رسالة، تناولها منه وفضَّها بسرعة، وهو يستمع إليه: وصلتني هذه الرسالة من عيون لي في شرطة غرناطة أجزل لهم العطاء، أعتقد أنها هامة بالنسبة لك.

عقد يعقوب حاجبَيْه باهتمام، وتغيرت ملامح وجهه، واتسعت حدقتاه دهشة: لا أصدق! ذلك الذي كنت أبحث عنه منذ سنوات، نعم.. هو، تلك هي أوصافه، يا للسماء! لقد صدقت بالفعل إنه مات. والآن فقط عرفت أين كان يختفي طوال هذه المدة، وفي أي شخصية يتخفّى.

- لقد رأيته مصادفة قبل مقتل الشيخ. في البداية، لم أُعرِ الأمر اهتمامًا، لكن بمجرد أن علمت بما حدث لقاتل الشيخ وهو في بيته وكيف احترق وجهه بمادة غريبة ألقاها خادم الشيخ على وجهه، حتى اشتعل الشك في نفسي.

- وهل لك علاقة بمقتل الشيخ؟

- لا، لكن دبة النملة في أي زقاق من أزقة غرناطة لا تخفى عليّ، ولأنني لا أدع شيئًا للمصادفة أو الاحتمالات؛ أرسلت لهم بأوصافه التي عرفتها منك، وطلبت منهم أن يبحثوا عنه بين المهاجرين من إشبيلية، ولم يتوصلوا إليه إلا بعد أن اتهمته الشرطة بقتل الشيخ.

- نعم، فهمت، ذلك من حسن طالعي، فتلك الجريمة هي التي أخرجته من جحره، وجعلتني أعثر عليه بعد كل تلك السنوات من البحث المضني.

- بل ما أخرجه هو اتهامه بمحاولة اغتيال ولي العهد، ذلك ما أصاب شرطة غرناطة بالجنون، هم بحاجة لمجرم لا يختلف عليه أحد ليصرف التهمة عن أمراء بني أشقيلولة، ويهدئ الحرب التي توشك على الاشتعال.

- لا أهتم بكل هذا الهراء، علينا أن نحضره إلى هنا بأية طريقة؛ فهو الوحيد القادر على إتمام العمل.

قال ريموند، بخبث: إذًا فأنت تعترف أخيرًا بفشلك بعد سنوات من التجارب الفاشلة والأموال الطائلة التي أنفقناها عليك وعلى أبحاثك، بأن هذا الشخص هو الوحيد الذي بيده مفتاح الحل، وأنه قادر على إنجاز العمل الذي فشلت أنت فيه.

شعر بطعنة غائرة في كرامته، جعلت الدماء تغلي في عروقه، لكن معرفته التامة بشراسة وقسوة ريموند أجبرته على الاعتراف: نعم، أعترف.

هز ريموند رأسه متعجبًا: إذا كان الأمر كذلك؛ فيجب أن نحضره إلى هنا بسرعة، وقبل أن تمسك به الشرطة.

أبو سارة: سأرسل رجالي للبحث عنه.

قال يعقوب مداهنًا: ذلك الثعبان الأرقط لا أحد يستطيع العثور عليه ولا إخراجه من جحره سوى فرسان القلعة، هم الأجدر لتلك المهمة الصعبة، فلا شرطة ولا حتى جيشٌ بإمكانهم الوقوف أمام براعتهم وإقدامهم.

قال ريموند، وقد انتفخ غرورًا: حسنًا، سأرسل كتيبة الشهاب لتأتي به.

أبو سارة: لا شك أن المنادي يجوب المدينة الآن يلقن الناس أوامر الشرطة بالإمساك بالقاتل أو الإرشاد عنه.

ريموند: إذًا، فقد أصبح كفأر يخشى كل الناس، ويختبئ في الجحور. وبمجرد أن يقرصه الجوع؛ سيخرج للبحث عن طعامه بين براميل القمامة والفضلات، وما أسهل أن نمسك به حينها.

***

انطلقت ضحكة ماجنة في أرجاء بيت الأمير عبد الرحمن مما جعل وجه عائشة يمتقع وهي تنظر إلى روزيلما ابنة رئيس الشرطة الجالسة أمامها تضحك على موقف حدث لها في السوق مع أحد أصحاب الدكاكين وهي تبتاع منه أثواب الحرير. نظرت إلى أمها التي لاذت بالصمت، وارتسمت على وجهها ابتسامة مستسلمة متحرجة، وأسرَّت في نفسها الدهشة والتعجب من قدرة أمها على تحمل ضيفتيها بصبر عجيب في كل مرة تأتيان لزيارتها إلى أن تنتهي تلك الزيارة الثقيلة.

اتكأت روزيلما إلى ظهر الأريكة الخشبية المزينة بالأرابيسك، وأراحت مرفقها إلى وسادة حمراء مخملية مريحة، وهي تتذوق حبات من العنب، وأمامها مائدة كبيرة مملوءة بكل ما لذ وطاب من فاكهة طازجة وجافة وعصائر وحلوى، قالت تكمل قصتها التي لم يضحك لها أحد سوى أمها، التي تجلس بجوارها وتروّح- كعادتها- بمروحتها القشتالية، رغم اعتدال الجو والنسائم اللطيفة التي تزورهم

من النوافذ المنتشرة في القاعة: أتاني البائع بكل أنواع الحرير في دكانه وأنا أتحسس كل ثوب ولا يعجبني، ثم تركته مرتبكًا يتعثر ببضاعته التي افترشت أرض الدكان، ثم سقط على وجهه وأنا وصديقاتي نضحك.

أطلقت ضحكة أخرى أشد من الأولى، وعائشة تهز رأسها تعجبًا وضجرًا تحاول أن تستوعب ما المضحك في الأمر!

قالت أم عمرو بدهشة: ألم يعجبك أي شيء في الدكان؟! عجبًا؛ إن دكان أبي خالد يحوي أفضل أنواع الحرير في البلدة.

حركت شفتيها بغير رضًا: لم أجد بغيتي فيه، أعتقد أنني سأرسل من يأتيني بأثواب حريرية من أرجون رأسًا، إنها الأفضل دومًا.

تأملت عائشة بإعجاب ثوبها الحريري الفاخر المرصع باللآلئ، والمطرز بأجمل الخيوط بدقة وروعة، وقالت بشرود: نعم، صحيح، لا أفضل من المدجنين في صناعة أفخر أنواع الحرير وتطريزه. تلك اليد الماهرة التي غزلت لك ثوبًا بمثل هذه الروعة، قلَّ أن تجدي من هو بمثل مهارتها.

وكزتها أمها بمرفقها برفق؛ كي تنتبه من استغراقها في رؤيتها الخاصة للأمور، فنظرت إلى روزيلما وأمها وهما يتطلعان إليها بصمت، والقلق وعدم الرضا على ملامحهما، فابتسمت مجاملة وابتلعت لسانها رغمًا عنها، وهي تتأمل ثوب روزيلما الرائع والفريد، وتفكر في أحوال المدجنين السيئة، ومملكة أرجون التي تستعبدهم وتستولي على جهدهم بثمن بخس، وتجبرهم على تغيير ملتهم وأسمائهم العربية، ثم

تأتي روزيلما ومثيلاتها لتدفع ثمنًا باهظًا لثوب صنعه صناع مهرة تحت غزو أعداء يسرقون عرقهم وأقواتهم.

وكزتها أمها ثانية، فبدلت عبوس وجهها بضحكة مغتصبة، وقالت بتحرج: هل أصبُّ لكما بعض العصير؟

لوَت روزيلما فمَها، وشغلت أمها نفسها بالترويح بمروحتها، ثم أكملت حديثها عن السوق ودكان الحرير: أيًّا يكن، فأسواق غرناطة لم يعد بها الكثير من البضائع الجيدة، وكان علي العودة إلى القصر قبل غروب الشمس؛ فلم تعد البلدة آمنة ليلًا.

هتفت أم عمرو بدهشة: كيف يا بنيتي؟ بلادنا دومًا آمنة.

عائشة ساخرة: إن كان هذا هو رأي ابنة رئيس الشرطة؛ فماذا يمكن أن يقول العامة!

ألقت إليها أمها بنظرة تأنيب، وقالت أم روزيلما باهتمام، وهي تعبث بالمروحة التي في يدها: ألم يبلغكما الخبر؟!

انحنت إلى الأمام، وكأنما ستقول أمرًا هامًّا سيذهلان لسماعه: ألم تسمعا بالمجنون الطليق الذي تبحث عنه الشرطة!

قالت أم عائشة باهتمام: لا، لم نسمع.

قالت عائشة: أي مجنون هذا؟!

تبادلت روزيلما وأمها نظرات ماكرة بعد أن انتزعتا الاهتمام اللتان كانتا تبتغيانه من عائشة وأمها. قالت الضيفة الكبيرة وكأنما ستذيع سرًّا



ذا أهمية كبرى من مصادر عُليا: أخبرني زوجي (رئيس الشرطة) أن هناك قاتلًا مجنونًا طليقًا في طرقات البلدة، والشرطة تبحث عنه.

ثم غمزت لعائشة، وهي تخفض صوتها: إنه قاتل شيخك.

ظهر على وجه عائشة الصدمة من الخبر، وقالت بدهشة: ماذا! من هو؟

قالت روزيلما بتلذذ، واستمتاع بالنميمة وبإثارة دهشة من حولها: كان خادمًا للشيخ، قتله وهرب بعدها، بل إنه حاول اغتيال ولي العهد، عليه لعنة الله.

سألت عائشة، باهتمام: وأين هو الآن؟

قالت: اختفى في أزقة البلدة، لكنني واثقة تمامًا أن والدي سيجده حتمًا.

هبّت عائشة قائمة، وهمّت بالانصراف من المجلس؛ فتعجبت الأم من ردة فعلها، وهتفت: إلى أين يا ابنتي؟!

التفتت إليها، وقالت: سأطلب من أخي عمرو أن يشترى لي بعض الأغراض من السوق، كما سمعت لم تعد البلدة آمنة للنساء.

قالت روزيلما بدلال: ولم لا تنادينه ليأتي إلى هنا، ويلقي علينا السلام؟

ردت ببرود ساخر، وهي ترمي بكل كلمة نحو صوبها: سأخبره أن يغطي رأسه وجيبه كي لا يثير الفتنة.

رحلت على الفور، وتركتها والدماء تغلي في رأسها وخديها من الغيظ. وأم عمرو تتعرق حرجًا، ونظراتها الحائرة تتردد بين ضيفتيها وابنتها التي غادرت المكان.

***

على الساحل، وفي مكان وَاسِع تحول لساحة كبيرة؛ لتدريب جنود الجيش، نصبت أدوات التدريب والخيام ومرابط الخيل. وكان هناك مجموعة من الجنود يمارسون تدريباتهم على السيف والفروسية وأعمال الحرب. ومن بعيد، لاح جندي قادم على حصانه يثير الرمال حتى وصل إلى ساحة التدريب؛ كان هو أحمد الذي ترجَّل وترك حصانه في مربط الخيل، ثم انضم للجند، وأخذ يراقب بإعجاب صديقه الأشقر المندمج بملابس التدريب في مبارزة حامية الوطيس مع رفيق له، ثم ناداه عدة مرات فالتفت نحوه، فاستغل رفيقه في التدريب التفاتَتَه؛ فانقض عليه، لكنه كان ماهرًا فاعتدل بسرعة، وصد ضرباته بسيفه، ثم أنهى المبارزة بضربات فنية سريعة، وأسقط سيف رفيقه.

ثم انضم إلى أحمد الذي بادره قائلًا: حركة بارعة للغاية.

أخذ يجفف عرقه: شكرًا.

- لا زلت عند رأيي، أنت الأبرع في المبارزة على الإطلاق.
- أنهيت النزال سريعًا؛ لأستمع إلى ما ستقوله.
- وجدت ما كنت تبحث عنه، وعرفت مكان قصر الأمير في غرناطة.



انتبه إليه قائلًا بلهفة: حقًّا!

- بل وأكثر من ذلك، أتيتك بتاريخه الأسود وجرائمه من سنوات، لكني أخشى عليك يا صديقي مما ستواجهه؛ كيف لك أن تتهم أحد الأمراء- مهما كانت سيرته- بالقتل! ومن سيصدقك؟

- أيًّا يكن من هو؛ فلن أتركه أبدًا.

- لكن الشرطة لها رأي آخر، لقد أعلنت عن شخصية القاتل. والآن تتهمه بالجريمة، وتجوب البلد بحثًا عنه.

أعطاه ورقة مطوية، تناولها، وفضّها بسرعة وقرأها، ظهرت الدهشة على وجهه، وقال: غير معقول! لا أستطيع أن أصدق، أواثق أنت من ذلك؟

- عليك أن تثق بمصادري؛ فابن عمي قائد كبير في الشرطة.

- ولكن لم يتهمون الخادم المجنون؟! ربما يكون ساعد القاتل على الدخول إلى بيت الشيخ، لكنني متأكد من أنه لم يقتل.

صمت لحظة، واتسعت عيناه دهشة، وكأنما ومضت في عقله فكرة: فهمت، إذًا فالأمير قرر التخلص من كل من له صلة بجريمة قتل الشيخ! يا إلهي، إنه أخطر مما تصورت. عليّ أن أصل إلي المجنون قبلهم.

- استمع إلي، لقد علمت من أحد الفرسان أن القائد معجب بمهاراتك للغاية، وينتوي أن يضمك للفرسان. تلك فرصتك الحقيقية؛

لتكون في المكانة اللائقة بك وبمهارتك، لا تضيع مستقبلك من أجل مخاطرة لن تعود عليك بأية فائدة. شيخك لقي ربه شهيدًا، لا فارق إن كان قاتله أميرًا أو مجنونًا أو مأجورًا. أما أنت، فمستقبلك كفارس وربما قائد أيضًا يتوقف على حسن سلوكك في الفترة القادمة، ومدى رضا قادة الجيش عنك. عليك أن تترك الأمر للشرطة.

- لن أخفي عليك، فلا أثق كثيرًا بالشرطة، ولا بإجراءاتهم العادلة، كما أن الأمر متورط به أحد الأمراء الذي ينبئ تاريخه بالخطر الداهم على كل من يعاديه. من يعلم؟ ربما يدبرون للمجنون ميتة في السجن تريحهم من القضية برمتها، ضميري لا يسمح لي أن أعلم بكل هذا، ثم أتظاهر بأنني لا أدري، أين أذهب من حساب ربي!

ضرب أحمد جبينه بكفه من الغيظ: أعلم كم أنت عنيد ومندفع، وقد تضحي بكل ما تملك من أجل ما تؤمن به. والآن، ماذا ستفعل؟!

جرى نحو حصانه في مربط الخيل، وحلق في الهواء بقفزه بارعة، ليستقر على صهوة جواده، ثم أمسك باللجام بقوة وهو يهتف: سأقتص لشيخي بنفسي.

انطلق الفرس كالريح العاصف مثيرًا الغبار، وعينا أحمد تتبعانه بدهشة وإعجاب حتى اختفى عن ناظريه، وهو يتمتم بأسف: فارس نبيل أنت يا صديقي في عالم الغدر والخسة.

❋❋❋

هتف عمرو مستنكرًا: خادم الشيخ! ذاك ما يقوله الجندي الشاب أيضًا.

زجرته بصوت خفيض: اخفض صوتك، لا أريد لأحد أن يسمعنا وخاصة أنيسة وصخر.

خفض صوته قائلًا: لقد رأينا القاتل، وقتل أمامنا في الزقاق؛ فما دخل خادم الشيخ بالأمر!

- لا أدري، وهذا الخادم أنقذني من يد القاتل، ألقاه بشيء غريب أسود اللون كالفحم المطحون، حرق جزءًا من لثامه ووجهه، ثم اختفى بعدها ولم أره ثانية، كما أن شيخي أوصاني به خيرًا.

- إذًا، فلا يمكن أن يكون القاتل!

- جثة القاتل كانت ملقاة في الزقاق أمامنا، فلم يلقون بالتهمة على خادم الشيخ!.

- هذا هو خطؤنا الوحيد، كان علينا أن ننتظر حتى تأتي الشرطة وترى الجثة.

- إذًا لتركت الشرطة الجثة والقاتل وأمسكت بالفارس الأسود لتكشف عن شخصيته. لقد كان له معهم صولات وجولات، ولا شك أنهم يريدون الانتقام منه.

- ألازلت تصدقين أساطير الطفولة التي كانت أمي تحكيها لك!

- ليست أساطير بل هي الحقيقة، الفارس الأسود كان موجودًا والشرطة كانت تطارده وتبذل غاية جهدها في الإمساك به، هناك ثأر

بينه وبين رئيس الشرطة، وهو رجل سمج، تمامًا كابنته. وإذا ما عرف بوجود الفارس الأسود؛ فلن يهدأ حتى يمسك به.

- يا لعقلك الطفولي العاشق لتلك الأسطورة!

- عمرو، إياك أن تسخر من هذا الأمر أبدًا.

وضع يده على فمه بطريقة مضحكة، فقالت بجدية متجاوزة أسلوبه المرح: بالتأكيد سيخشى أن يدور الزمن دورته، وتعود أيام الفارس الأسود الذي حيَّر الشرطة، وأرعب الجواسيس، وهزَّ هيبة الأمراء، وعجز الجميع عن كشف هويته.

- كنت تتمنين الزواج منه وأنت طفلة من كثرة ما حكت لك أمي حكاياته ومغامراته، و.. أساطيره.

- (زمجرت) ها..

- حسنًا، سأكف عن ذلك، لكني لا أستطيع أن أصدق أنه كان يومًا موجودًا إلا في الأساطير وحكايات الأطفال، إنه بطل اخترعه العامة؛ ليتغلبوا به على شعورهم بالهزيمة، هم في حاجة لبطل يدافع عنهم، وإن لم يكن حقيقيًّا.

- بل هو حقيقي، وإياك أن تنطق بهذا الكلام ثانية.

- حسنًا، علينا أن نعترف بخطئنا في ترك الجثة، وهروبنا من المكان؛ فقد اختفت ولم تعثر عليها الشرطة.

- بالتأكيد له شركاء هم من أخفوا جثته.

- شركاء من تقصدين؟ القاتل أم مَن قتله.

صمتت تمامًا، وأشاحت بوجهها بعيدًا، زفر هو بضيق، ثم قال: ولكن لمَ تتهم الشرطة بهلول! لقد اختفى بعد موت الشيخ، ولم يره أحد.

- لا شك أنه تعرض لضغوط كبيرة من الأمراء؛ ليجد القاتل، فلم يجد أسهل من إلصاق الجريمة ببهلول المجنون. بهلول هو الشخص المناسب، فهو لن يستطيع الدفاع عن نفسه، ولا إثبات براءته، وعلينا أن نصل إليه قبلهم.

- ومالنا وماله!

- لأنه لا أحد سوانا يعرف أن بهلول بريء لم يرتكب جرمًا، وحياته الآن مهددة؛ فقد يقتلوه كما قتلوا القاتل المأجور. كما أنني أحمل له جميل إنقاذي من القاتل، وشيخي أوصاني به. أضف لكل هذا أنه دليل براءة أبي أمام الجندي المجنون الذي يطارده ليقتص منه. أكملت بإصرار لا يحتمل النقاش: سنخرج الليلة نجوب البلدة بحثًا عنه.

***

(5)

في أحد الأحياء الفقيرة والتي تمتلئ بالبيوت المتلاصقة، وفي داخل زقاق ضيق يتلوى كالثعبان، تراصت بجوار جدار بيت قديم بضعة براميل خشبية كبيرة تستخدم لجمع القمامة.

وعلى ضوء مصباح خافت يشق بصعوبة ظلام الزقاق، لاح شبح أسود في هيئة إنسان ضخم الرأس، يتحرك في الظلام ويتنقل بين البراميل. انحنى فوق برميل وكأنه يفتش فيه وأخذ يميل بجسده حتى سقط بداخله، وارتفعت ساقاه لأعلى، وأخذ يحركهما في كل اتجاه، ويقاوم بصعوبة للخلاص من البرميل حتى اختفى جسده كله بداخله.

وفي الجوار كان صوت منادي البلدة الجَهْوَري يصدح في الأرجاء قادمًا من الشارع الكبير في آخر مدخل الزقاق الضيق، وهو يقول: (يا أهالي البلدة، بأمر رئيس الشرطة، القبض على بهلول المجنون قاتل الشيخ أبي الحسن حيًّا أو ميتًا؛ لحماية البلاد والعباد والممتلكات منه، وعلى من يجده أن يدل الشرطة عن مكانه).

أخذ المنادي يكرر نداءه ليسمعه الجميع، حتى مرَّ من أمام مدخل الزقاق المظلم وتجاوزه.

كان صوت المنادي يبتعد، والبرميل يهتز بشدة ويتمايل حتى سقط على جانبه، وخرج منه ذلك الشبح زحفًا، وجلس بجواره مقرفصًا رجليه، والقمامة والفضلات تغطيه من شعر رأسه الأشعث حتى أصابع قدميه. اتسعت عيناه بشدة، ولاح بياضهما على أضواء المشاعل الخافتة البعيدة، وهو يحدق في الظلام بجنون ويبتسم.

قال بصوت منخفض: بهلول المجنون قتل الشيخ، بهلول المجنون!، هي هي هي، أمسكوا بهلول المجنون القاتل، هاهاهاهاه

أخذ يطلق ضحكات مجنونة، ويقفز كالقرد على ركبتيه عدة مرات، ثم انطلق يجري، وهو يضحك ويقفز حافي القدمين في الزقاق المظلم. لكنه سمع صوت أقدام كثيرة قادمة من مدخل الزقاق؛ فتجمد في مكانه، وكسا الخوف ملامحه. ثم تراجع بخطوات مرتبكة وجرى إلى آخر الزقاق، لكنه توقف ثانية عندما سمع صوت أقدام لعدة أشخاص يدخلون الزقاق، ويقتربون من المكان الذي يقف فيه. ارتد عائدًا إلى وسط الزقاق، وأخذ ينظر إلى الجهتين برعب لا يدري إلى أين يذهب! التصق بجدار بيت قديم من طابق واحد وانكمش خائفًا، ثم قفز داخل برميل القمامة المجاور لباب البيت واختفى بداخله.

وصل إلى المكان أولًا مجموعة من عصبة القتلة هدفهم الوصول لبهلول وقتله قبل أن تمسك به الشرطة بأمر من الأمير وزعيم العصبة؛ حتى يُدفن كلُّ أثر للجريمة. لكنهم وجدوا أنفسهم أمام كتيبة الشرطة القادمة من مدخل الزقاق؛ فظنوا أن الشرطة تلاحقهم ولم يجدوا

فرصة للتراجع والخروج من الزقاق؛ فاشتبكوا مع الشرطة في معركة شديدة، ولم يهتموا لذلك الشاب الذي كان مارًّا في الطريق، فسمع ضجيجًا عاليًا، وأصوات صليل قادمة من داخل الزقاق، فأتى مسرعًا؛ ليستكشف ما الذي يحدث. وكان هو الجندي الذي يبحث عن بهلول، فوقف مكانه يراقب ما يحدث دون أن يتدخل. وفي خضم المعركة، لم يلحظ أحد من المتطاحنين في الزقاق أن البرميل المجاور لباب البيت يتحرك ويرتفع عن الأرض، ويعلو ببطء وكأنه يطير، حتى وصل إلى سطح البيت.

كانت عائشة وعمرو فوق سطح البيت يسحبون الحبل الذي ربطوا به البرميل، بعد أن رأوا بهلول يختبئ فيه، وعندما أمسكوا بالبرميل فوق سطح البيت، ساعدوا بهلول على الخروج منه. لكن أحد اللصوص رفع رأسه إلى أعلى ولمحهم؛ فصرخ: إنه يهرب.

توقف الجميع عن القتال، ونظروا إلى أعلى. جرى الثلاثة- عمرو وبهلول وعائشة- فوق سطح البيت باتجاه البيت المجاور له، وجرت العصابة والشرطة في نفس الاتجاه تتبعهم على الأرض، لكن الجندي الشاب فكّر قليلًا، وأدرك أنه من المستحيل- فعليًّا- اللحاق بهم وهم يتنقلون من سطح بيت إلى آخر وهو على الأرض؛ فقرر استخدام نفس طريقتهم، فتسلق الجدار بخفة حتى وصل إلى السطح، وتبع الثلاثة قفزًا من سطح بيت لآخر. وبدأت المسافة بينه وبينهم تتضاءل؛ بسبب بطء بهلول الذي كان أحيانًا يتعثر.

نجح عمرو وعائشة في إبعاد بهلول عن الشرطة وعصبة القتلة، واستطاعوا الابتعاد عن المنطقة بمسافة كبيرة. وقف الثلاثة على سطح أحد البيوت يلتقطون أنفاسهم من طول الركض والقفز، لكن الجندي برز لهم فجأة، واستل سيفه مهددًا.

هتف عمرو: أنت مجددًا!

قال لعمرو: هذه المرة لا حاجة لي عندكما، حاجتي عند من ساعد على قتل شيخي.

أشار بالسيف نحو بهلول، هتفت عائشة بصوت خشن: ساعد على قتل الشيخ! ألا تستطيع التمييز يا هذا! إنه مجنون.

قال بعناد: بل هو مخادع كبير يتظاهر بالجنون؛ حتى لا يعاقب، فإما أن تخلوا بيني وبينه، أو أقاتلكما لأصل إليه.

انكمش بهلول على نفسه بخوف وتراجع مبتعدًا، واعترض عمرو وعائشة طريق الجندي، وقالت عائشة: هو لم يفعل شيئًا، وعليك..

قاطعها قائلًا بحزم: إذًا، لم تتركا لي الخيار.

هاجمهما بسيفه، فتصديا له، ودارت معركة سريعة بينه وبين عائشة فوق سطح البيت.

هتف عمرو فجأة: علام تتقاتلان!

توقفا لحظة ونظرا إليه، فقال بضجر: لقد هرب بهلول.

نظر الجندي حيث يشير عمرو، فرأى «بهلول» قد قفز إلى سطح البيت المجاور، فاندفع يتبعه بحماس، فوضعت عائشة ساقها في طريقه؛ فتعثر الجندي بها وسقط على وجهه.

تركته، وانطلقت خلف أخيها الذي سبقها بالقفز للبيت المجاور، ولحقا ببهلول، وهبط الثلاثة من سطح الدار على السلم إلى الأرض، وخرجوا من باب البيت إلى أحد الأزقة. لكن مفاجأة قوية أوقفتهم، فقد وجدوا في الزقاق ثلاثة من الفرسان ضِخَام الجسم، ملابسهم يرتسم عليها صليب كبير، ويغطي وجوههم قناعٌ من البرونز يخفي ملامحهم، ويمنحهم مظهرًا غامضًا مخيفًا، كانوا يقفون في الزقاق وانتبهوا لهم بمجرد أن رأوهم كما لو كانوا بانتظارهم. تراجع بهلول خلف عمرو وعائشة، وهو يئن رعبًا، وتقدم الفرسان منهم.

وصل الجندي في تلك اللحظة، وفوجئ بالمشهد العجيب، لكنه لم يتردد لحظة، وانخرط مع عائشة وعمرو في قتال الفرسان الثلاثة. كان القتال ضاريًا، والفرسان شديدو البأس، وعائشة تقاوم بصعوبة وتقفز بخفة أمام خصمها لكي لا يطالها سيفه، وعمرو يستغل قصر قامته أمام خصمه ويحاول إصابته في أسفل جسمه، أما الجندي فقد كان يبادل خصمه ضربة بضربة وبأسًا ببأس، والمعركة بينهما متعادلة. لكن فجأة، دوَّت فرقعة هائلة في المكان، وانتشر دخان أخضر اللون وكثيف للغاية أصاب كلَّ من في المكان بالسعال الشديد وانعدام الرؤية للحظات. وعندما انزاحت ستائر الدخان الكثيف، أدرك الجميع أن بهلولًا لم يعد له أي أثر.

❋❋❋

هب رئيس الشرطة من مكانه، وهتف بذهول: الفارس الأسود! هل عاد من جديد؟ وكيف عجزتم عن الإمساك به!

قائد الكتيبة: لقد استطاع الهرب، ومعه المجنون، وشخص ثالث عن طريق القفز عبر أسطح البيوت.

- وأين كُنتُم؟

- كنّا نطاردهم في الأزقة وبين البيوت، لكنهم نجحوا في الهرب.

ضرب المنضدة التي أمامه بكفه، وهتف: يا لكم من أغبياء، كلكم أغبياء. في المرة السابقة، ظننت الناس يبالغون، يحاولون إحياء أسطورة البطل المجاهد في عراك الشوارع، وفي الغالب لن يخرج عن كونه فتًى موتورًا يريد أن يقلد الفارس الأسود الذي أستمع إلى حكاياته من هنا أو من هناك. لكنه عاد، عاد بالفعل، عاد من جديد، يا لها من أيام نحسات.

تجمد لحظة، ثم التفت إلى قائد الكتيبة، وتساءل: ولكن، ما علاقته بالخادم المجنون؟! ولماذا يسعى لحمايته وتهريبه من الشرطة؟! ومن هو ثالثهم؟

رد، بحيرة: لا معلومات لدي، سيدي.

غلبه توتره؛ فانفعل: عليك أن تقلب البلدة كلها بحثًا عنه. أريده هنا مكبّلًا في أغلاله.

قال، بحيرة: من منهما سيدي؟

صرخ غاضبًا: المجنون يا أحمق، هل أوهمك غباؤك بغير ذلك! أتظن أنك تستطيع الإمساك بالفارس الأسود!

تمالك نفسه، وازدرد ريقه، ثم قال: فلننه قصة المجنون أولًا، ثم نبحث بعد ذلك عن الفارس الأسود.

❊❊❊

في غرفته الفخمة الضخمة في قصره الكبير القريب من الكنيسة المشيدة في القلعة، كان الكونت ريموند يرتدي أفخر ثيابه وأكثرها أناقة أمام مرآة كبيرة تعكس صورته الطولية من رأسه وحتى حذائه.

أشار إلى خادمه الرفيع الأسمر ذي العينين الواسعتين والخد الهضيم بطرف بنانه؛ ففهم على الفور ما يريده سيده دون حاجة للكلام، فقد كان الخادم أصمًّا أبكمًا لا يجيد في الحياة سوى إطاعة سيده وخدمته في قصره. فتح الخادم علبة ضخمة تمتلئ بالحلي الذهبية، وأحضر لسيده صليبًا كبيرًا من الذهب الخالص ومرصعًا بالأحجار الكريمة ومعلقًا في سلسلة ذهبية. تناوله سيده ولبسه حول عنقه بعناية كبيرة، وتأمل مظهره بمزيج من الفخر والغرور، ثم أشار إلى خادمه ثانية؛ فأسرع بإحضار أفضل عطوره، وأخذ ينثر قطرات العطر على رأس سيده وملابسه بعناية فائقة، كما تعود من سنوات.

خرج الكونت ريموند من قصره على فرسه الصهباء في موكب هائل، ومعه زوجته الأميرة القشتالية الجميلة خوانا، وحاشيته يجوب

الطرقات، وتجمع الناس من كل مكان كبيرهم وصغيرهم يشاهدون الموكب الذي يتكرر كثيرًا، وكأنما يتعمد ريموند أن يشاهده سكان البلدة من المدجنين وهو في أوج قوته واستعلائه، وهو ذاهب للصلاة في الكنيسة.

اقترب من الكنيسة ورفع رأسه يتأمل برجها العالي، وأخذت تغزو رأسه صور المعركة الضارية التي دارت في هذا المكان من سنوات، جدران البرج العالي الذي كان يومًا مئذنة عظيمة تؤذن خمس مرات كل يوم، وعليها آثار قديمة لدماء المجاهدين الذين قاوموا ببسالة حتى آخر فرد فيهم اقتحام كتيبة الشهاب- يوم أن كان ريموند قائدًا لها- للمسجد.

كانت تلك الدماء القديمة على المئذنة تذكره دومًا بعجزه عن الاستيلاء على المسجد إلا بعد أن قتل كلَّ من كان يدافع عنه، وكان يوم اقتحامه للمسجد يوم انتصاره الحقيقي على حامية الحصن. وكان أول ما فعله بعد أن سحق أعداءه، وأخضع كل سكان البلدة لطاعته؛ أن دخل إلى المسجد، وأمر بتعليق الأجراس الضخمة في مئذنته، وملأ قاعاته بالتماثيل والصلبان والصور.

رفع رأسه- باستعلاء وفخر- وهو يعبر البوابة الضخمة للكنيسة، واستعادت روحه نشوة الشعور بالنصر.

لم يستطع ريموند إكمال صلاته؛ فقد جاءه رسول من غرناطة يخبره بفشل الكتيبة التي أرسلها للإمساك ببهلول، فانطلق من فوره إلى

القلعة للقاء الرسول القادم من غرناطة، واستدعى أعوانه ومستشاريه. دخل إلى القاعة الكبرى، واجتمع بمستشاريه، واستمع إلى الرسول الذي حكى له كل ما حدث.

قال الكونت، بعد تفكير: الفارس الأسود! ذاك الذي أحرق أفضل فرسان كتيبة الشهاب في قصر الأمير عبد الرحمن بمروج غرناطة؟

قال أحد المستشارين: نعم هو، وكان يتتبع رجالنا في غرناطة من سنوات، وقتل أيضًا أفضل جواسيسنا هناك.

أجابه آخر: لا أحد يعرف حقيقته، ظهر فجأة بعد معاهدة الهدنة، واختفى فجأة دون أن نكتشف فيمَ ظهر، ولا فيم اختفى!

الكونت: وها قد ظهر من جديد!.

قال آخر: ربما ليس هو. قد يكون شابًّا متحمسًا يحاول تقليده، فما الذي كان يبقيه مختفيًا كل تلك السنوات إلا أن يكون قد مات.

أسند الكونت ظهره لظهر مقعده، وابتسم ساخرًا: إذًا، فهناك من يريد إحياء أسطورة قديمة تروى ظمأه لنصر، وإن كان زائفًا!

فكر لحظات، ثم قال: أيًّا يكن من هو؛ فأمره لا يهمني الآن. أرسل لكتيبة الشهاب أن تقطع البلدة بحثًا عن المجنون، وشدد عليهم أن يأتوا به حيًّا.. أفهمت؟

شدد قائلًا: أريده حيًّا.

قال أحدهم: ولكن، أين يمكن أن يجدوه؟

الكونت: فليبحثوا أولًا في الأماكن التي كان يتواجد فيها قبل أن يقتل الشيخ.

قال أحد المستشارين: وان اعترضهم الفارس الأسود!

قال، هازئًا: فليرسلوا إلي برأسه.

* * *

قضى عمرو وعائشة أيامًا يبحثان في الأزقة والطرقات عن بهلول، وفي كل طريق يشاهدان جنودًا قشتاليِّين يجوبون البلدة كما لو كانوا في نزهة، يرتادون الحانات والدكاكين، ويسهرون في بيوت الخنا، ويدورون سكارى يعربدون في الطرقات.

تذكرت كلمات شيخها المحذرة: عندما يترك الرجال الجهاد، ويضيع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس، وينشغل الحكام بإزاحة بعضهم البعض عن الكراسي، ويستعينوا بالأعداء على إخوانهم في الدين؛ فالمصير معروف.. الهلاك.

أصاب عائشة الغم والضيق الشديد، وأفصحت عن غضبها لأخيها: وكأنني أسير في طرقات قشتالة لا غرناطة. لعن الله المعاهدات التي تجعل بلادنا موطئًا لحثالات البشر، ومرتعًا للأعداء يعيثوا فيها فسادًا.

أصدر عمرو صوتًا يعبر عن مدى ضجره الشديد: أيام، ونحن نبحث بلا جدوى، وكأننا نبحث عن إبرة في كومة من القش! كان بين أيدينا، وكنا في غنى عن هذا العذاب.

- كيف نعثر عليه في ذلك البلد الكبير!

- علينا أن نفكر كالمجانين لنعرف إلى أين ذهب.

- ها يا ذكي، قل لي ماذا كنت ستفعل لو كنت مجنونًا مطاردًا في بلدة كبلدتنا هذه!

- كنت سأعود إلى البيت.

- أهذا عقلك! بالتأكيد سيكون هذا هو أول مكان تبحث فيه الشرطة.

- أنا أفكر بعقل المجانين، مجنون مطارد، إلى أين يمكن أن يلوذ إلا بالبيت!

أخذت تفكر في كلماته، ثم قالت بشرود: البيت.

تحت جنح الليل، وبعيدًا عن أعين الشرطة، تسلل عمرو وعائشة إلى بيت الشيخ الراحل أبي الحسن. دفعت الباب ببطء؛ فأصدر صريرًا. نظرا في الخارج، واطمئنا إلى أنه لا أحد في المنطقة. كان البيت مظلمًا باردًا خاويًا، تأملته عائشة بحسرة، وملأ الشجن نفسها حزنًا على المكان الذي تلقت فيه العلم، وعلى صاحبه الذي كانت تعتبره في مقام الأب.

انتفض عمرو فزعًا، واستل سيفه بسرعة البرق عندما ظهر شبح أسود أمامه في الظلام، فطعنه بقوة؛ فسقط الشبح على جانبه محدِثًا جلبة كبيرة، أخذ يلهث من المفاجأة ويبتلع ريقه، وقالت عائشة: ما هذا!

قال: لا أدري، ولكنه ليس بشرًا، ربما دمية على هيئة إنسان.

تقدما ببطء، ولم ينتبه عمرو لتحرك الأرض من تحت قدمه. وفجأة، سمعا صوتًا في الظلام من جهة اليسار؛ فجذبت عائشة عمرو من رقبته بقوة، فخفض رأسه، واستطاعت إنقاذه بصعوبة من شيء ما عبر في لمح البصر فوق رأسه، وغرز في الجدار.

اقتربت من الجدار وتمعنت في ذلك الشيء المغروز فيه، وقالت: إنه بلطة حطّاب.

- عجبًا! هل البيت مفخخ؟ من يقوم بتلك الأفاعيل؟ أيمكن أن يكون بهلولًا؟

- ربما، لا أستبعد ذلك، علينا الحذر.

أشهرت سيفها، وتقدمت بخطوات حذرة، مرت بين عمودين، ولم تشعر بالخيط الرفيع المربوط بينهما، وهو يحتك بنصل السيف وينقطع بلا صوت، فسقطت فوق رأسها شبكة صغيرة من الخيوط الرفيعة، تمزقت على الفور، واندفعت منها عناكب كثيرة، وحشرات تجري فوق رأسها وجسدها. صرخت فزعًا، وأخذت تقفز وتنفض الحشرات

عن رأسها وجسدها، وألقت بجسدها على الأرض، وأخذت تتدحرج يمينًا ويسارًا؛ لتتخلص من بقايا الحشرات على ملابسها.

انفجر عمرو ضاحكًا من منظرها، فهبَّت قائمة وهتفت غاضبة: بدأت أفقد صبري.

- لم يعد لدي شك أن من فعل هذا هو بهلول المجنون.

- فقط، تقع يدي عليه، وسترى ما سأفعله به. المهم أن نحترس ونحن نبحث عنه.

- إذًا، فأنت مصرّة على البحث عنه بنفسك في سائر البيت، وتلقي كل الأفخاخ على رأسك، والسقوط في كل المصائد التي وضعها لمن يقتحم البيت!

- ألديك حل آخر؟

- بالتأكيد، فلنناديه.

- يبدو أنه أعجبك التفكير بعقل المجانين!، وهل تعتقد بذكائك المتَّقد أنه سيأتي إلينا بمجرد أن ننادي (يا بهلول، نحن أصدقاء الشيخ، اظهر وبان عليك الأمان).

سمعا صوت مزلاج يفتح، وصرير باب يتحرك، وتسلل ضوء للردهة قادم من إحدى الغرف. اتسعت حدقتاهما، وحملقا بذهول في بهلول الذي ظهر من خلف باب الغرفة، وهمس عمرو بدهشة: إنه هو!

لمحا على وجهه علاماتِ الخوف، وبدأ القلق يتسلل لقلب عائشة عندما رأت شبحَ رجل يقف بجواره.

همس عمرو لأخته: يبدو أننا لسنا أول من فكر بعقلية المجانين.

قالت؛ عندما بدأت تظهر ملامح الرجل في الضوء القادم من الغرفة: وكذلك لسنا أول من نجح بتجاوز الأفخاخ والمصائد. بالتأكيد، لن ينجح في ذلك سوى شخص يعرف الشيخ جيدًا، ويعرف هذا البيت.

ابتسم عمرو قائلًا: لا أحد سواه، ذلك الذي يعترض طريقنا في كل خطوة نخطوها.

تقدم الجندي في الردهة، وهو يدفع «بهلول» أمامه، فوقف الاثنان أمامه، وقال هو: جيد أنكما أتيتما الآن، فلتشرحا لي الأمر قبل أن أجز رأسه بسيفي.

عمرو: ولمَ لمْ تسأله مباشرة؟

الجندي: يتظاهر بالجنون.

قالت عائشة بصوت غليظ من خلف لثامها الأسود: ولماذا لا تصدق أنه مجنون بالفعل؟!

قال: لأن الأمر لم يعد قاصرًا فقط على الاغتيالات، بل أصبح شديد الخطورة.

تساءلت عائشة بدهشة: ماذا تعني؟

قال: لأن هذا الذي تنعتانه بالجنون على علاقة مريبة بفرسان القلعة، ربما يكون جاسوسًا لهم في غرناطة، أو رسولًا ينقل الأخبار والرسائل بينهم وبين الأمير الخائن أمير الحصن الذي سلمه إليهم.

هتفت عائشة بصوت غليظ: لماذا تصر على نعته بالخيانة؟!

أجاب بتنَمّر: لتاريخه الأسود، وأفعاله الشائنة في حصار إشبيلية. يتظاهر أمام الناس بالورع والتقوى والزهد، وهو ينفق من أمواله ويوزع قصوره على عصبة القتلة المأجورين، كل الدلائل تشير إلى وقوفه خلف الاغتيالات والقتل. والآن مع ظهور فرسان القلعة في غرناطة، صار الأمر أخطر بكثير من مجرد اغتيالِ فردٍ مهما بلغت مكانته. والآن، أريد أن أعرف ما علاقة هذا المجنون بفرسان القلعة؟ وما الخيانة الجديدة التي يدبرها الأمير؟

كادت عائشة أن تصرخ في وجهه، لكن عمرو أسكتها بسؤال وجهه للجندي: وما الذي يجعلك واثقًا إلى هذه الدرجة بأن له علاقة بفرسان القلعة؟

أجاب: لأنهم يريدونه حيًّا، كانت لديهم فرصة كبيرة لقتله لو أرادوا، لكنهم لم يفعلوا، فكيف يمكن تفسير ذلك إلا بأنه جاسوس!

أسكتهما رد الجندي، وجعلهما يفكران مليًّا في الأمر، لكن عائشة قالت بتأكيد: ليس هو من قتل الشيخ.

الجندي: وما الذي يجعلك متأكدًا، ولم يكن موجودًا في المكان سوى إحدى تلامذته من بنات الأمراء!

أخذت عائشة تعمل عقلها بسرعة؛ محاولة إيجاد مخرج أو إجابة مقنعة، لكن عمرو سبقها بقوله: هي من أخبرتنا.

نظر له الجندي باهتمام، وصمتت عائشة مترقبة ما سيقول، ولكن عمرو استطرد قائلًا: كنا هناك قبلك وسألناها، ويمكنك أن تسألها بنفسك.

كاد قلب عائشة أن يتوقف، وهي تنتظر من أخيها أن يكشف سرها أمام الجندي، لكنه صمت.

قال بحيرة: ولكن، ما علاقته بفرسان القلعة؟

قالت: هل تعرف من أي جماعة دينية هم؟

قال: أظنهم تابعين لجماعة فرسان قلعة رباح أو فرسان القنطرة، لست متأكدًا، لكنهم اتخذوا من القلعة مقرًّا لهم، واقتطعهم ملك قشتالة مساحات شاسعة من الأراضي حول القلعة مكافأة لهم على بأسهم وقوتهم وحماسهم في خوض الحروب ضد الممالك الإسلامية تحت إمرته. وكذلك لانتصاراتهم المتلاحقة وإسقاط الكثير من الحصون والقواعد الإسلامية.

قالت: وما الذي يريدونه من بهلول؟

رفع سيفه مهددًا «بهلول» الذي انكمش على نفسه بخوف: هذا هو ما كنت أحاول استخراجه منه قبل وصولكما.

فجأة، انفتحت الأبواب بدوي مرعب، واقتحم البيت مجموعة من الفرسان بأقنعتهم البرونزية وملابسهم المطرزة بعلامة جماعة فرسان القلعة. حصرهم الجندي بسرعة فوجدهم عشرة، وقد انتشروا في المكان، وحاصروا كلَّ من فيه.

تراجع الثلاثة للخلف وانضموا لبعضهم البعض، ورفعوا سيوفهم لأعلى بتحفز، أمّا بهلول فقد انبطح أرضًا، وأخذ يزحف على بطنه حتى اختبأ خلف أحد الجدران. تقدم أحد الفرسان ووقف في وسط الردهة، وأخذ يدور برأسه وكأنما يبحث عن شيء ما، ثمنظر نحو الجدار الذي يختبئ خلفه بهلول، وأشار برأسه إشارة فهمها فرسانه، واتجه أربعة منهم نحوه، وانتزعوه من خلف الجدار، وهو يصرخ فزعًا، وأخذوه للخارج.

هز الفارس رأسه مجددًا للفرسان المتبقين في المكان؛ فتقدموا نحو الجندي وعائشة وعمرو في تشكيل نصف دائرة يضيقون الخناق حولهم.

همس الجندي لهما: لو تفرقنا فسيصطادوننا، فلنحمِ ظهور بعضنا البعض.

أعطى كل منهم ظهره للآخر مشكلين شبه دائرة وجوههم لخارجها، والفرسان الستة يتقدمون منهم، وينتشرون حولهم في دائرة واسعة.

همس الجندي: استعدًّا.



مرت لحظات حذرة متوترة، والفرسان الستة يتقدمون مضيقين الدائرة حول الثلاثة.

صرخ الجندي فجأة: هجوم.

كانت لهم الضربة الأولى، لكن الفرسان صدُّوا ضرباتهم بمهارة فائقة ثم ردُّوا الهجوم، ودارت رحى معركة حامية، وكان من نصيب كل واحد منهم اثنان من الفرسان يهاجمانه بضراوة. كادت رأس عمرو أن تُشَق نصفين بضربة قوية من أحد الفرسان، لكنه تفاداها بصعوبة شديدة. ونال الجندي الشاب ضربةً قوية في ساقه من أحد خصميه، وهو مشغول بصد الآخر؛ فجَرَت دماؤه غزيرة، وسقطت عائشة على الأرض، وكادت أن تفقد رأسها لولا أن توقف السيف في الهواء، وابتعد عن رأسها في اللحظة الأخيرة، مما منحها فرصة للوقوف على أقدامها بسرعة، وصد ضربات خصمها والانخراط في نزال الآخر. وكاد عمرو يفقد حياته بضربة محكمة عنيفة كادت أن تصل إلى بطنه، لولا أن توقف السيف قبل أن يصل لجسده، فنظر إلى خصمه مندهشًا فوجده قدْ خرَّ على وجهه دون أن يلمسه.

ازداد الوضع سوءًا، وبدأت سيوف الفرسان تجد طريقها نحو أجساد الثلاثة، ودماؤهم تسيل من جراحهم المتعددة، وشبح الهزيمة يقترب بسرعة، والموت يحوم فوق الرؤوس، لكن صرخة هائلة مرعبة دوَّت في المكان؛ جعلت القتال يتوقف للحظة، وانشقت الأرض عن شبح متشح بالسواد من رأسه حتى أطراف قدميه يقفز في الهواء دورة

رأسية كاملة، وتستقر قدماه على الأرض. واستلَّ سيفًا ضخمًا، فتعلقت عيون الجميع بذلك الغريب الذي اقتحم المكان، واتسعت عينا عائشة بانبهار، وهمست: الفارس الأسود!

عقد عمرو حاجبيه، وقال بذهول: إنه حقيقي!

وأخذ الجندي الشاب يراقب الموقف بتوتر، وهو يقلب عينيه بين عائشة- وهي في زي الفارس الأسود- وذلك الذي اقتحم المكان وهو مغطًّى بالسواد.

استحوذ الفارس الأسود على انتباه فرسان القلعة الستة؛ مما أعطى فرصة للثلاثة لِلَمْلَمة شتاتهم، والوقوف على أقدامهم، والقبض على سيوفهم. تقدم الفرسان نحوه متحفزين بسيوفهم؛ فأطلق صرخة مهولة، وهجم نحوهم هجمة شرسة.

***

عند مطلع الفجر في بيت الشيخ أبي الحسن، دار رئيس الشرطة في البهو الكبير، وأخذ يتفحص الدماء التي ملأت المكان، والجثث التي افترشت الأرض على ضوء المشاعل التي يحملها أفراد الشرطة، الذين وصلوا إلى المكان في وقت متأخر من الليل.

رفع رأسه، وتفحص المكان من حوله، وقال ببطء: لقد دارت في هذا المكان معركة رهيبة.

عاد أفراد الشرطة الذين أرسلهم لتفتيش البيت وحجراته وقاعاته، وقال أحدهم: لا أحد في البيت، وكل شيء في مكانه، ولا قتلى ولا أثر لقتال في بقية الحجرات.

قال مفكرًا: إذًا، فالمعركة دارت فقط في هذا البهو.

التفت لمساعده، وقال: معركة هائلة دارت في هذا المكان بين فرسان القلعة وأشخاص مجهولين!

- لا شك أنه الفارس الأسود.
- لِمَ أنت متيقن لهذه الدرجة؟!

أشار إلى الست جثث التي افترشت الأرض أمامه، وقال: ومَن غيره يمكن أن يقتل هذا العدد من فرسان القلعة!

كما أنه استطاع مساعدة «بهلول» على الفرار من بين أيدينا.

تذكر فجأة من أتى خصيصًا إلى هنا؛ للبحث عنه، فقال: بهلول، ترى إلى أين ذهب هذه المرة! وما علاقته بفرسان القلعة؟

ظل صامتًا يفكر فيما آلت إليه الأمور، ثم التفت إلى مساعده، وافترّ ثغرُه عن ابتسامة ماكرة: لكل مشكلة حل إن أجدنا إعمال عقلنا. هذا البهلول ظهر لنا بوضوح أنه جاسوس لفرسان القلعة، أرسلوه إلى غرناطة؛ ليتجسس على الشيخ، ثم يقتله حينما تأتيه الأوامر.

- وما الذي أتى بهم إلى هنا؟ ومن قتلهم؟!
- أتوا لاستعادة جاسوسهم بعد أن أدى مهمته وتخلص من

الشيخ، لكن بعض العامة وأهل البلد رأوهم وهم يقتحمون البيت؛ فأبلغوا الشرطة التي أرسلت كتيبة قوية للتعامل معهم.

– ومن سيصدق تلك الرواية! أعتقد أن قصة عودة الفارس الأسود ستكون أكثر إقناعًا.

– أيها الغبي، عن أي فارس أسود تتحدث؟ تريدني أن أعلن للعامة أن الفارس الأسود قتل ستة من فرسان القلعة! أتدري ما الذي يمكن أن يفعله ذلك الخبر بهم؟! الفارس الأسود اللعين مجرد أسطورة، ويجب أن يبقى كذلك. لقد استغرق الأمر سنوات لنقنع الناس بذلك.

– ولكن ألن يستثير ذلك حفيظة فرسان القلعة؟ تعلم أن عدم الاعتداء عليهم من شروط المعاهدة.

– أيها الغبي، وهل فرسان القلعة لا يدركون من قتلهم! إن ما نقوله نحن أو نفعله لا يعنيهم في شيء، فهم يدركون جيدًا أننا نخاطب العامة من أهل غرناطة.

– وكيف سنقنع العامة بتلك القصة؟

– سيصدقون، أي شيء سنقوله لهم سيصدقونه، كما كانوا يفعلون دائمًا، سيصدقون لأنهم يريدون ذلك.

هز المساعد رأسه بغير اقتناع، لكنه اعتصم بالصمت بعد أن أدرك أن الكلام لا فائدة منه.

❋❋❋

(6)

كانت الشمس تنثر أشعتها الحمراء الوليدة بحنانٍ على القفار الشاسعة، والعاديات تضرب الأرض بأقدامها القوية في سباق طويل نحو الحصن، تحمل فوقها عائشة وعمرو في محاولتهما المستميتة؛ لإنقاذ أبيهما من جندي مجنون بالثأر يسعى للقصاص منه بعد أن أفضى إليهما في الليلة الفائتة- دون أن يعرف من هما- بعزمه على قتل الأمير عبد الرحمن أمير الحصن الخائن الذي باع دينه مرتين.. الأولى عندما سلم الحصن الذي كان واليًا عليه للأعداء قبل سنوات طويلة، وأضاع أرضًا مِلكًا للمسلمين، ووضع رقاب أهلها تحت سيطرة منظمة فرسان القلعة، والثانية عندما أنفق أمواله على عصبة القتلة المأجورين في حصار إشبيلية وحتى الآن؛ فاستأجر قاتلًا مرتزقًا لقتل الشيخ بمساعدةٍ من خادمه، ومحاولته اغتيال ولي العهد. والآن يريد التخلص من الخادم؛ ليواري جرائمه حتى لا ينكشف أمره للناس أو لحاكم البلاد.
كان الأمر صادمًا للغاية لعائشة، ورغم أنها تعلم أن والدها كان واليًا على الحصن، لكن الأمر ليس بهذه الصورة القاتمة بالتأكيد؛ فوالدها لم يسلم الحصن لأنه خائن، بل لأن الأمير حاكم البلاد الذي ولّاه على الحصن أمره بتسليمه بموجب المعاهدة التي وقعها مع ملك قشتالة.
لكن الجندي المتهور رفض أن يصدق ذلك، وأبى إلا أن ينال من أبيها

بعد اقتناعه التام بأن الأمير عبد الرحمن هو الذي قتل الشيخ وقاتله، وسلم بهلول الخادم لفرسان القلعة.

وبعد رحيل الجندي المجنون واختفاؤه من المكان كان عليهما هي وأخيها أن يسبقاه إلى القصر؛ ليحذّرا الأمير ويسألاه لم أعطى صك ملكية القصر للقاتل؟ ولكن صدمتهما كانت هائلة عندما قالت لهما أنيسة أن والدهما ذهب في رحلة مفاجئة مع الزهاد للدعوة في سبيل الله في المدن والقرى القريبة من الساحل. لم يعد لديهما أدنى شك بأن أباهما في طريقه الآن إلى الحصن المحتل بفرسان القلعة، وبلا شك سيتبعه الجندي ليقتص منه.

كان الأمر شديد التعقيد والغرابة، وبه الكثير مما يصعب فهمه أو تصديقه، لكنهما أدركا أن إنقاذ بهلول هو مفتاح تفسير كل تلك الأمور الغريبة، ودليل براءة والدهما من تهمة قتل الشيخ. إن بهلول ليس مجنونًا عاديًّا، بل هو شخص له أهمية كبيرة لفرسان القلعة ولأبيها أيضًا. عجبًا لهذا الموقف المؤلم الذي وُضعت قسرًا فيه؛ فكم من مرة حلمت في صباها أنها تزيح اللثام عن وجه الفارس الأسود؛ ليظهر من خلفه وجه أبيها، ثم يدور الزمان دورته لتجد نفسها في قفار واسعة متجهة إلى أرض محتلة بالأعداء لتثبت أن والدها برئ من قتل شيخها، وتنقذ حياته من القتل الخطأ على يد أحد تلامذة شيخها. تعلم جيدًا- هي وأخوها- أن التسلل للحصن وإنقاذ بهلول من سجن القلعة ليس بالأمر السهل، بل يحتاج إلى شخص يصلح كدليل، يعرف طرق

وممرات القلعة ومكان السجن وحجرات التعذيب؛ لذلك أقسمت على صخر أن يكون دليلهما ويرافقهما في رحلتهما إلى الحصن، فمن أصلح منه ليقوم بتلك المهمة!

وكم من مرة سمعت من أمها قصة نجاحه في الفرار من سجن القلعة بعد أن كان أسيرًا به لبعض الوقت، لكن محاولاتها المستميتة في إقناعه بمرافقتهما باءت بالفشل، وتلاشى في ظلمة الليل بصمت كعادته. وفي النهاية، كان عليهما الذهاب مهما حدث بعد أن صارت حياة أبيها في خطر. كانت عائشة مستغرقة في التفكير في الفارس الأسود الذي ظهر أمس أمام ناظريها. إذًا، فهو لم يكن أسطورة من الأساطير، ولا حكاية من الحكايات كما يدعي الناس. هو حقيقي.. رأته رأي العين، الفارس البطل الذي ينصر العقيدة والدين، خادم الضعفاء ومجير المقهورين. عاشت عمرها كله تحلم به، ليس هذا فحسب، بل اتخذته مثلًا وقدوة، وحققت رغبتها فعليًّا بتقليده.

لم تكن تهتم لسخرية الجميع من أحلامها وهي طفلة، ولا بابتسامة أبيها الساخرة عندما تصرح أمامه بأنها لن تتزوج عندما تكبر إلا من الفارس الأسود، ولا لمحاولات أمها الدائمة لإقناعها بأنه شخصية خياليةتملأ بها حكاياتها لتسلي صغارها.

ذلك ما كان يدور أيضًا في عقل عمرو، لقد كان يسخر من أخته دومًا عندما تتحدث عن الفارس الأسود، ويحاول أن يقنعها بأنه غير موجود إلا في الأساطير، لكنها كانت تثور عليه. والآن هو واقع وحقيقة

عاينها بنفسه، بل إنه أنقذهم من الموت المحقق على يد فرسان القلعة، وها هو الآن يرتدي زيه، ويتلثم بالسواد في طريقه إلى الحصن.

وعلى نفس الطريق خرج الجندي الشاب من غرناطة متجهًا إلى الحصن. كان يسابق الريح خلف الأمير عبد الرحمن يتتبع خطاه بعد أن ربض على شجرة قريبة من قصره، ورآه وهو يخرج من الباب في ثوب الزهاد متظاهرًا بالتقوى؛ ليخدع من حوله بسيره في قوافل الداعين إلى الله، لكنه كان في طريقه إلى الحصن على الساحل ليدبر مع الأعداء لخيانة جديدة.

في طريقه إلى الحصن، كان عقله منشغلًا بسؤال: كيف تبدَّل الأمر على هذا النحو! كيف أصبح يقاتل في فريق الفارس الأسود بعد أن كان يقاتله.

ولكن عندما يتعلق الأمر بفرسان القلعة؛ فالقتال لا يكون إلا في صف أبناء العقيدة والدين. هو أكثر من يعلم بخطورة تلك المنظمة، هكذا علمه شيخه، ورأى كيف هم كالسُّوس ينخر في بلاد المسلمين، وإن تمكنوا منهم لا يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة. وكيف استباحوا غرناطة بعد معاهدة الخزي والعار، يفعلون فيها ما بدا لهم دون أن يوقفهم أحد أو يردعهم رادع. لم يؤمن يومًا بالأساطير ولا الحكايات، لذلك هو متأكد أن الفارس الأسود ما هو إلا بطل أسطوري خرج من خيال العامة والمستضعفين. وما جعله يتيقن من ذلك بالأمس هو وجود فارسين لا فارسًا واحدًا، ولا زال متمسكًا باعتقاده بأن لا أسهل من أن يحوّل

أحدهم الأسطورة إلى حقيقة، ويقلد حكايات الفارس الأسود الخيالية، ويلبس ملابسه.

لهذا؛ فقد آثر هذه المرة أن يرتدي زي الفارس الأسود ولثامه في رحلته إلى القلعة. استغرقه التفكير في ذلك الفارس الأسود الذي انشقت الأرض عنه، وبظهوره انقلبت كل الموازين وبمساعدته انتصروا على فرسان القلعة، وهم ضعف عددهم، وتركوهم صرعى في بيت الشيخ رحمه الله. وبعدها اختفى الفارس الأسود فجأة تمامًا كما ظهر فجأة. ولملم الثلاثة الباقون شتاتهم وضمَّدوا جراحاتهم، وغادروا المكان، كلٌّ منهم يعرف إلى أين سيذهب. كان يعرف جيدًا أن الآخرْين سيحاولان عرقلته عن الوصول إلى الأمير، ويعملون بجدٍّ على استباقه إليه. والآن، أصبح يعرف هدفه جيدًا، وإلى أين يتجه.

أخذ يفكر في بهلول، وعلاقته بفرسان القلعة، ودفاع الفارس الأسود والشاب عنه، ترى هل هو حقًّا جاسوس؟ وإن لم يكن كذلك فما علاقته بالأمير؟، وما حاجة فرسان القلعة به؟ ولم يستميتون في أخذه حيًّا!

❋❋❋

اندفع يعقوب مهرولًا في طرقات القلعة متعجلًا الوصول إلى القاعة الكبيرة التي يتخذها ريموند مجلسًا له، حيث أرسل إليه من يخبره بأن كتيبة الشهاب قد أحضروا بهلولًا إلى القلعة.

اندفع إلى داخل القاعة بحماس، وهتف بعجلة: أين هو؟

أشار الكونت ريموند بطرف بنانه إلى ركن بعيد مظلم من القاعة. اتجه نحوه بلهفة، وتبين له ذلك الجسد الضئيل الذي يجلس مقرفصًا يرتجف فزعًا، ووجهه بين ركبتيه. كانت رائحته النتنة تثير الغثيان، ورغم ذلك قبض على شعره الأشعث القذر، ورفع وجهه لأعلى ليتبين ملامحه، ولم يبالِ بأنينه ولا فزعه، نظر في عينيه الجاحظتين من الجنون، وتأمل ملامحه مليًّا.

سأله الكونت بشك: أهو؟

ابتسم يعقوب بظفر وترك رأس بهلول، وقال: نعم، نعم، هو.

زفر الكونت، وقال بلهجة ساخرة: رائع، وأخيرًا حصلنا على مجنون!

قام من مجلسه، وتقدم من يعقوب، وأشار نحو بهلول الذي أخذ يزحف ببطء من مكانه، ويتحسس الجدار بأصابعه: من أجل هذا الكائن المشوّه قُتل ستة من أفضل رجالي، وأنت من اقترحت هذا. شعر يعقوب بعمق المأزق الخطير، الذي يهدد رأسه؛ فقال مدافعًا عن نفسه: أنت لا تدرك قيمة الكنز الذي حصلت عليه، ذلك العبقري ذو العقل الفذّ لا أحد في العالم يمكنه أن ينجز لك ما تريد سواه. اقترب الكونت من بهلول، وشبك كفيه خلف ظهره، وأخذ يتأمله وهو ينقب بأصابعه في الأرض وفي الجدار، حتى أمسك بحشرة زاحفة وأكلها.

تمعّر وجهه اشمئزازًا، وقال بلا اقتناع: وما الذي يمكن أن نستفيده من مجنون مثله!

قال يعقوب الذي وجد القشة التي ستنجيه من عذاب الكونت حتى حين: إنه يتظاهر بالجنون، وعند أول سوط ستحل عقدة لسانه.

فكر قليلًا، ثم قال: لا بأس من التجربة، ولكن حذار أن أفقد الأمل في جدوى أفكارك؛ لأنك وقتها لن تجد فرصة للندم.

سرت في جسده قشعريرة الرعب، وجفَّ حلقه وهو يتأمل «بهلول» الذي أخذ يبحث عن حشرة أخرى في الركن، وعقله ينقّب عن حل يقيه شر عذاب الكونت المنتظر.

***

كان الجندي يقطع بحصانه الفيافي والقفار دون راحة في أثر ذلك الأمير الخائن الذي يجد السير في اتجاه الحصن، حتى نفذ منه الماء وعرف العطش طريقه إليه، لكنه واصل المسير بدأب وجلد حتى لاحت له على جانب الطريق خيمةٌ صغيرة، وبجوارها حصان الأمير الذي يتخفَّى في ثوب الزّهاد الدعاة إلى الله، فعرف أنه توقف ليستريح من عناء طول المسير، فوقف بحصانه بعيدًا، وترجَّل. ثم تسلل بهدوء- وسيفه في قبضته- يتفحص المنطقة بحذر؛ بحثًا عن الأمير، وأخذ يقترب من الخيمة بحذر شديد حتى صار أمامها مباشرة، ثم لمح خلفها ظلَّ رجل، فالتف حولها دون أن يصدر صوتًا، فرآه جالسًا على الأرض، وظهره إليه مطأطأ الرأس، فرفع سيفه عاليًا، وقال: نلت منك أيها الخائن، قم ونازلني كرجل.

سمع صوتًا شديدَ الصرامة والعداء في أذنه مباشرة، يقول: لماذا تتبعني؟

التف بسيفه المستل في لمح البصر، يضرب خصمه الذي فاجأه بدهائه ومهارته، فاصطدم سيفه بسيف خصمه، الذي صدَّ ضربته السريعة، وانخرط معه في نزال رهيب انتهى بهزيمة الجندي وإسقاط سيفه.

وقف ينظر بتحدٍّ إلى الأمير، وسيفه المشهر الذي سيهوي في أية لحظة ليقطع رأسه، ثم هتف: هيا، اقتلني كما قتلت شيخي؛ فأنا لا أهاب الموت.

قال الأمير بصوت حاسم: لا علاقة لي بمقتل الشيخ. صدّق هذا أو لا تصدقه، لا أهتم. لكن إياك أن تعترض طريقي، فلن أطلق سراحك ثانية.

رحل الأمير تتبعه نظرات الغلّ والكراهية من الجندي الغاضب الذي يملأ حلقه مرارُ الهزيمة، وتشتعل عروقه بالرغبة في الانتقام، وأقسم بينه وبين نفسه أنه لن يتركه أبدًا.

***

صارت الشمس في كبد السماء، وعمرو وعائشة يقتربان من هدفهما حتى دخلا إلى الأراضي التابعة للحصن، وهي مساحات زراعية شاسعة ممتدة من تربة خصبة مزروعة بالمحاصيل، وبساتين كثيرة تكتظ بالأشجار المثمرة، شُقت بها قنوات ومجاري مائية متصلة بالنهر الكبير. كانا يجتازان البساتين والأراضي المفترشة بالمزروعات بحرصٍ شديد متجنبين أماكن الزرّاع والفلاحين، ونسائهم الذين يعملون في جني الثمار.

الفلاحات يقطفن الثمار من الأشجار، ويجمعنها في أوعية كبيرة من الخوص، وعندما تمتلئ يفرغنها في سلال من الحجم الكبير حتى تمتلئ، ثم تحمل إلى عربات كبيرة تأخذها إلى الحصن. اقتربا من باب الحصن الضخم، وأخذا يراقبانه من جانب. كان الحرس المدججون بالسلاح ينتشرون أمامه وحوله، يفتشون العربات والدواب والبشر بدقة وحرص. وازدحم الناس على الجانبين من الداخل والخارج؛ بسبب بطء التفتيش. أدرك عمرو وعائشة مدى صعوبة دخول الحصن للغرباء، فاتفقا على العودة إلى البساتين، والبحث عن طريقة أخرى للدخول. وبالفعل عادا أدراجهما حتى البساتين، ووارتهما أشجارها واتخذا مكانًا هادئًا بعيدًا عن الفلاحين، وتسلقا إحدى الأشجار المورقة حتى يستطيعا مراقبة مساحة كبيرة من المكان. زفرت عائشة بضيق: ما العمل الآن؟ - لا مناص من الانتظار، رأيت بنفسك الحراسة المشددة على أبواب الحصن. - لا يمكننا الانتظار، سيغلق الحصن أبوابه مع مغيب الشمس، وسنضطر للانتظار للغد. علينا أن نفكر في خطة تُدخلنا الحصن قبل مغرب الشمس. - هيا، أريني خططك الخبيثة، أم أنها لا تظهر إلا عندما أجتمع بأصدقائي في الغابات والمروج! أمر آخر، إذا ما استطعنا الدخول من باب الحصن، فكيف سندخل إلى القلعة الحصينة؟ - القلعة يحميها جيش من المقاتلين المدججين بالسلاح، وأميرها مقاتل مجنون بالارتياب. كيف لنا!؟ - هشت.. اهدئي، هناك اثنان قادمان. نظرت إلى حيث أشار، ثم قالت: لا يبدو عليهما أنهما

من الفلاحين! عجبًا ماذا يفعلان في البساتين؟ - يبدو أنهما يراقبان عمل الفلاحين. اقترب الرجلان، وكان يبدو عليهما أنهما منهمكان في الحديث عن أمر هام، وكان يصل إليهما بعضٌ من حديثهما، فهِمَا منه أنهما يتحدثان عن امرأة ينتويان فعل شيء ما بها، ويعقدان العزم على ذلك. أكمل الرجلان طريقهما، ولم ينتبها للمختبئين فوق الشجرة تواريهما أوراقها الغزيرة، حتى ابتعدا عن المكان. قالت عائشة بحزم: فلنتبعهما. - أجننت! هل نقول لهما.. هيا تعالوا، أمسكوا بنا! - علينا أن نعرف من هي التي ينتويان إيذاءها، ونحذرها. - هل انتفضت حميتك لبنات جنسك! ألا زلت تذكرين لِمَ أتينا إلى هنا! قفزت من فوق الشجرة إلى الأرض: اسخر كما تشاء، لكني لن أترك امرأة على وشك الوقوع في خطر ما، وأتظاهر بأنني لم أسمع ولم أرَ شيئًا. قال مغتاظًا: أنت تريدين أن تقدمينا لقمة سائغة لفرسان القلعة. لم تعرْه اهتمامًا، وانطلقت تلحق بالرجلين على البعد؛ لكي لا ينتبها إلى أنها تتبعهما، وخلفها عمرو. وصل الرجلان إلى قناة الماء، واقتربا من امرأة وقفت بهدوء تغسل قدميها. كمنت عائشة خلف أحد الأشجار القريبة، وتلفتت حولها؛ فلم تجد أحدًا في المكان سوى المرأة والرجلين. أخذ قلب عائشة يدق بجنون عندما رأتهما يتسللان خلفها، ويقتربان منها بحذر؛ كي لا تنتبه لهما. بلغ الخوف والقلق بعائشة أيَّما مبلغ عندما رأتهما يحيطان بها، وأياديهم تمتد نحو جسدها، وهي تنحني تغرف من ماء النهر بكفّيها

***

لولا أن هذا هو أقصر طريق للحصن، ويختصر الكثير من الوقت ما فكر أبدًا أن يعبره وحيدًا، فتلك الغابة اشتهرت بين الناس بأنها مرتع للصوص وقطّاع الطرق بسبب طبيعة طرقها الوعرة وكثرة أشجارها وأغصانها المتشابكة؛ لذلك قرر أن يمرّ من خلالها سريعًا على حصانه؛ ليقلل من نسبة الخطورة، كما أنه لا يعتبر نفسه صيدًا ثمينًا للصوص، فليس لديه ما يثير الطمع. لكن فجأة ارتفعت أمامه شبكة كبيرة منسوجة من الحبال السميكة القوية. حاول باستماتة إيقاف حصانه عن الاندفاع نحو الشبكة أو الانحراف به، لكن سرعة الحصان جعلته يسقط في الشبكة، وتطبق أطرافها عليه هو وقائده. وفي لحظة، تجمع حولهما مجموعة كبيرة من اللصوص، وهم يطلقون صيحات الانتصار والفرح بالغنيمة التي وقعت في المصيدة. أخذ الجندي يقاوم بكل قوته الشبكةَ القوية التي أطبقت عليه، وحاول أن يحرّر يده ليصل إلى سيفه، لكن الأمر كان بالغ الصعوبة. وأدرك- لحظتها- كم هم محترفون، وأنهم بالتأكيد كرّروا تلك الطريقة مئات المرات؛ لذلك فهي تنجح دائمًا. تكاثر عليه اللصوص، ومزقوا الشبكة بأسلحتهم، وأخذ بعضهم حصانه، وأمسك الباقون به، وقيّدوا حركته، وبدأوا في تجريده من كل ما معه بضراوة وقسوة، وأدرك أنه صار بلا قيمة ولا منفعة لهم عندما رفع أحدهم السيف ليضرب به عنقه. وعندما أدرك أنها النهاية، رفع رأسه بشجاعة، ونظر في عيني قاتله بقوة، وهو يستقبل الشهادة بثبات.

***

نزل الكونت ريموند سلالم سجن القلعة، التي تؤدي إلى حجرات التعذيب السفلية، وبدأت تصل لأذنيه أصواتُ السياط القاسية، وآلات التعذيب الرهيبة، ومعها صراخ المعذبين المفزع، وأناتهم المريعة. لكنه كان يسير في الممر بثقة دون أدنى مبالاة بتلك الأصوات، ويمر بين حجرات التعذيب الرهيبة دون أن يعيرها انتباهه، ولا يهتم بطرق رجاله البشعة، وهم يمارسون عملهم المعتاد في تعذيب أسراهم. دخل إلى إحدى الحجرات، وأخذ يتأمل بهلول المسجَّى أمامه، ومقيد إلى منضدة حديدية، والحارس المسئول عنه يسومه العذاب ألوانًا بأبشع الطرق، وصراخه يصم الآذان. وكلما فقد وعيه من الألم، يوقظه بدلوِ ماءٍ بارد على وجهه؛ ليبدأ في تعذيبه من جديد. التفت إلى يعقوب الواقف في الحجرة يراقب المشهد؛ حيث قرر أن يشرف بنفسه على استخراج المعلومات من بهلول، أو على الأقل إثبات أنه يدعي الجنون. لكن يبدو أن النتيجة كانت بالنسبة إليه مقلقة، فحتى الآن لم يصل لشيء، ولم يستخرج أية معلومة من بهلول، كما أنه لم يستطع أن يثبت للكونت أنه مدعٍ للجنون. وهذا ما كان يثير رعبه؛ لهذا فقد كان يبدو عليه القلق الشديد، والتعجل، وحركاته عصبية للغاية. ظل الكونت يراقب بصمت لفترة، ثم التفت إلى يعقوب، وقال: ألازلت مصرًّا على رأيك! قال يعقوب بصوت مرتعب: إنه.. إنه يتظاهر، يحاول خداعنا، ولكن، ولكن.. هو لن يستطيع خداعي أنا. قال: لقد نال قسطًا من التعذيب، لو ناله أبكم لصرخ ناطقًا. رفع سبابته أمام وجهه، وقال

بلهجة تهديد: احذر أن أفقد صبري، إن كنت تحاول خداعي لإطالة الوقت؛ فلن تنجو من بطشي. تراقص شبح الموت أمام عينيه؛ فقال برعب: أقسم لك أنه يتظاهر، فمن هو في مثل ذكائه لا يمكن أن يصاب بالجنون. زفر بضيق: سنرى. شمخ برأسه، وغادر المكان بمشية متعالية. استرد يعقوب أنفاسه الضائعة، وألقى بجسده على أقرب مقعد إليه، ثم أخذ يجفف عرقه بيدٍ مرتعشة. نظر إلى بهلول، وامتلأ قلبه غلًّا وحقدًا، واندفع إليه، وقبض على شعره الأشعث، وصرخ في أذنه بقسوة: أيها الغبي، مِمّن تنتقم! أخبرني ممن تنتقم! أتنتقم مني، أم من نفسك؟ ارحم نفسك من العذاب، أنقذ نفسك وأنقذني، فذاك الرجل وحش مفترس، لا يعرف الرحمة، أنت لم ترَ بعدُ ما يمكن أن يفعله بنا. نظر له بهلول نظرة خاوية، ثم أصدر أصواتًا بلا معنى، ورذاذُ فمه يتطاير على وجه يعقوب. دفعه يعقوب دفعة قوية، وصرخ في الحارس، وهو يمسح وجهه بطرف كمّه: أكمل عملك، وزِدْه من العذاب أضعافًا. تأمله وهو يصرخ صرخات مريعة، وقال بغلٍّ: أحمق، أحمق، تستحق كلَّ هذا، وأكثر.

***

همست عائشة في أذن عمرو، وقد بلغت ذروة انفعالها: علينا أن ننقذها، لابد أن نفعل شيئًا. قال هامسًا: لو تدخلنا؛ فسنكشف أنفسنا لكلِّ من في الحصن. قالت بإصرار: فليكن ما يكون، ولكني لن أتركهما يؤذيانها. قال: انتظري لحظة، لدي خطة. وفي تلك

اللحظة، كانت المرأة تنحني لتغترف بكفيها الماء، فهجم الرجلان عليها. لكن عمرو وعائشة وثَبَا من مكمنهما كقطين أسودين، كلٌّ منهما ينقض على واحد، ولم يفهم الرجلان ما حدث من فرط السرعة التي حدث بها، ولم يفهما كيف سقطا في الماء، ولا مَن ضربَهُما على رأسيهما.

وعندما زالت المفاجأة عنهما، وخرجا من الماء، لم يكن هناك أي أحد في المكان، ولا حتى المرأة، وأخذ الرجلان يبحثان عنها دون جدوى.

❋❋❋

نزل السيف على عنقه، فتفجرت دماؤه غزيرة، وانهار جسده أرضًا. اتسعت عينا الجندي دهشة، وهو يرى جثة من كان يهمّ بقتله تفترش الأرض. وتفشَّى الهرج والمرج بين اللصوص عندما هبط عليهم الفارس الأسود كصاعقة البرق من السماء، وطفق طعنًا وضربًا في الرؤوس والرقاب. وتحرر الجندي من قيده، وقفز إلى سيفه، وانتزعه ممن سرقه، وقتله، وأخذ يقاتل اللصوص بقوة وشجاعة مع الفارس الأسود. وانتصر الاثنان على اللصوص، وقتل منهم من قتل، وفرَّ الباقون، واستعاد الجندي حصانه وكل حاجياته.

نظر الجندي نحو الفارس الأسود، الذي أنقذه من الموت، وعرف فيه الأمير الذي تلقى على يديه الهزيمة من وقت قصير. ودون كلام، شرع الاثنان في اجتياز المنطقة الخطرة من الغابة جنبًا إلى جنب، وهما يتحرّزان لعودة هجوم اللصوص.

وحاول الجندي أن يكتم رغبته العارمة للانتقام، ويقنع نفسه بأن الأمر مؤقت، وأن الأمير الذي غيّر هيئته لهيئة الفارس الأسود ليس إلا رفيقٌ مؤقت لطريق اقتربت نهايته. ضرورةٌ حتَّمتها الظروف حتى لا يصبح كلٌّ منهما صيدًا سهلًا للصوص كفرد، وبعدها سيعود لمطاردته؛ ولهذا قرر الجندي أن يتبعه بعد افتراقهما حتى لو من بعيد، فقد أدرك أنه من السهل أن يُبدّل هيئته حتى يضلل من يتبعه، فخطرت له فكرة ونفذها على الفور عندما واتته الفرصة. وتوقفا عند جدول صغير في آخر الغابة، فاستغل الجندي انشغال الأمير بإعادة ملء أوعيته التي فرغت من الماء، وعلق في أسفل متاعه المربوط على ظهر فرسه؛ كيسًا من الحبوب كان يختزنه كغذاء لطريقه. ثم خرق في أسفل الكيس خرقًا صغيرًا، ثم ابتعد عن الفرس بسرعة قبل أن يراه الأمير، وعندما غادرا الغابة وابتعدا عن منطقة اللصوص؛ افترقا.

***

في ركن آمن من البستان، بعيدًا عن الأعين، وقفت فاتيما تواجه عائشة وعمرو بجرأة، وهما في زي الفارس الأسود، ويداها في خاصرتها بعد هروبهم من الرجلين. تأملتها عائشة، امرأة جميلة في منتصف عقدها الثالث، كانت تبدو لها كامرأة قوية عركتها الدنيا، وعاشت حياتها بمشقة وتقشف. ارتسمت في ملامحها الجميلة الحدّةُ والتحفز، ورمتهما بنظرات حادة متفرسة، ورفعت حاجبها بتحدٍّ، وقالت بصوت قوي: ماذا تريدان؟ أجابت عائشة بلا تردد، كما لو

كانت واثقة تمامًا من النتيجة: نريد الدخول إلى الحصن. ظهر التعجب على وجه المرأة، وقالت مباشرة: لماذا؟ قالت بصدق: لنا صديق تم خطفه من غرناطة، وإحضاره إلى هنا، ونريد تحريره. قالت بتفهم: لقد أحضروا شخصًا ما بالفعل إلى القلعة تحت حراسة مشددة. اعتدلت في وقفتها، وقالت بتحدٍّ: إن كنتما تعتقدان أنني سأساعدكما لمجرد أنكما ساعدتماني؛ فأنتما مخطئان. أغلب المدجنين هنا لو رأوا أي غريب أو متسلل لسلموه إلى فرسان القلعة. قالت عائشة بثقة: ولكنك لن تفعلي. قالت فاتيما هازئة: ومن أين أتتك تلك الثقة؟! قالت: لأنك تكرهين فرسان القلعة والقشتاليين، كان بإمكانك العودة للحصن ورفع شكواك إلى الكونت ضد من كانا يريدان اختطافك، لكنك أتيت بنا إلى هنا بعيدًا عن الأعين. صمتت قليلًا، ثم قالت: إجابة صائبة.

أكملت بسخرية مريرة: وهل أشكو الذئب إلى زعيم الذئاب! عائشة: إذًا، فستساعديننا على الدخول؟ قالت بتأنٍّ: الأمر صعب، لكنني سأفعل ما بوسعي لأساعدكما. واحد منكما فقط هو من أستطيع إدخاله، أما الآخر فعليه أن يجد له طريقًا آخر. أدركت عائشة أن رأي عمرو في محله، وأن المرأة ليست سهلة بالفعل، فهزت رأسها موافقة، واتفقت مع عمرو أنها ستدخل الحصن بمساعدة المرأة، وهو سيبحث عن حيلة أخرى.

انطلقت خلفها عبر البساتين، وأخذا يقتربان بحذر من تجمعات الفلاحين، وعند إحدى الأكمام المتشابكة اختبآ، وأخذا يراقبان حركة

جني الثمار، قالت المرأة: انتظري هنا حالما أعود. ربضت عائشة تراقب ما يحدث حتى عادت المرأة إليها، وفي يدها سلة كبيرة، وقالت: لو أنها خطة ناجحة لأدخلتك من البوابة في زي إحدى الفلاحات، وهذا أأمن بالفعل وأكثر مناسبة لك، لكنهم يقومون بعد الداخلين والخارجين من البوابة رجالًا ونساء كما يعدّون المال، كما أني لا أتيقن من أن تراك إحداهن وتتغاضى. بهتت عائشة، وظنت أنها قد أخطأت السمع، أو أن المرأة قد أخطأت الحديث عندما قالت انتظري، لكنها أدركت أنها عرفت حقيقتها عندما قالت ساخرة: أظننتِ أني لن أكتشفك! تنكُّرك قد ينْطلي على العالم، لكنه لن ينطلي على فاتيما، أستطيع أن أشمَّ عبق أنوثتك من على بعد أميال. تركت عائشة صوتها الطبيعي ينساب: ألهذا قبلت بمساعدتي؟ قالت بجدية: إنه فقط أحد الأسباب، فعندما تضطر امرأة للتخلي عن مظهرها الأنثوي فالخطب جلل. قالت: حسنًا أقدر لك صنيعك و.. قالت: لا وقت للحديث الآن، علينا إدخالك من البوابة، هيا اجلسي في السلة.

نظرت إلى السماء الملبدة بالغيوم، وأكملت: وقد يحالفنا الحظ الحسن بهطول المطر؛ فيلتهَّى الحرس عنا. أطاعتها عائشة، ثم أخذت فاتيما تغطيها بالخوص، ثم الثمار. كانت فاتيما تمتلك ذراعين قويَّتين، استطاعت جرَّ السلة وفيها عائشة حتى العربة، وساعدتها عدة فلاحات على وضع السلة فوق العربة، وعندما امتلأت بسلال الثمار؛ أيقظوا السائق الذي كان يغطُّ في نوم عميق في ظل شجرة، وركبها بصعوبة بسبب بطنه

الضخمة، وقفزت فاتيما إلى جواره، وانطلقت العربة إلى بوابة القلعة، وانضمت إلى طابور طويل من العربات المتراصة خلف بعضها تنتظر المرور من البوابة، ودخول الحصن. هتفت فاتيما بقلق: ما الذي يحدث؟ اشرأبّ السائق بعنقه، وألقى بنظرة على البوابة، ثم قال: يبدو أن هناك تفتيشًا دقيقًا اليوم. لوت فمها من غباء تعليقه، ثم نهضت من جلستها، ووقفت فوق العربة، ومدت بصرها نحو باب الحصن، وتابعت المشهد باهتمام، وهي تتمتم بشرود: هذا لا يحدث كلَّ يوم! يا للحظ النَّحس.

بدأ المطر بالهطول، وظنت أن الحرس سينتهون سريعًا؛ ليتوارَوْا من المطر، لكن دهشتها تضاعفت عندما استمر التدقيق في التفتيش رغم المطر. وعندما اقتربت العربة من البوابة، استطاعت أن ترى بوضوح ما يحدث، واشتعل القلق في نفسها عندما وجدت الحارس يغرز سكينًا طويلًا في السلة، ثم يسحبه ويعيد غرزه من الجهة الأخرى، ويفعل هذا عدة مرات مع كل سلة، وعندما ينتهي يقوم بإدخال العربة؛ ليكرر ذلك مع ما بعدها. شعرت فاتيما بالخطر، فذلك يعني بالتأكيد هلاكًا مؤكدًا لصاحبتها التي تختبئ في السلة، وانكشافًا عاجلًا لأمرها فينكلون بها. كان عقلها يعمل على إيجاد مخرجٍ من ذلك الموقف الرهيب، التفتت لسائق العربة الذي كان مشغولًا بحماية رأسه من المطر بغطاء ثقيل لا يُظهر سوى وجهه: لِمَ كلُّ هذا التدقيق في التفتيش؟!

قال بضجر: لا أدري؟ ربما وصلتهم أخبار بأن هناك من ينوي التسلل للحصن. أخذ عقلها يصنع جسورًا بين الأحداث وبعضها،

فلا شك بأن الأمر له علاقة بالأسير المسجون في القلعة منذ الأمس، والذي هو نفسه الذي ترغب في تحريره الفتاة التي في السلة.

زاد توتر فاتيما أضعافًا، فلم يعد يفصلُها عن البوابة والتفتيش سوى عربة واحدة، وأخذت تنفض مياه المطر عن ثوبها بحركات عصبية. وقفت فوق العربة، وضمت طرفي ثوبها، وشمرت ساعديها، وهتفت بصوت عالٍ وهي تلوح بيديها بأسلوب سوقي: هاي! ماذا تفعل؟! أفسح الطريق لندخل قبل أن تفسد الثمار من المطر. قال الحارس دون أن يتوقف عن عمله: إنها الأوامر. هتفت: ما هذا الجنون! أتريدون أن تفسدوا محصول العام؟! استمر في عمله، وكأنما لم يسمعها، فقالت مهددة: سأشكوك للكونت. أطلقت سبابًا سوقيًّا لم يصل إلى مسامعه، ثم أخذت تفرك كفَّيْها، وتقوم بحركات عصبية. عندما حان دور العربة في التفتيش، واقترب السكين من السلة التي بها عائشة. ومن زاوية قريبة، كان عمرو يراقب المشهد بعد أن تبع العربة حتى البوابة، وقد أدرك أن عائشة في خطر داهم، وأخذ يفكر في حلٍّ للموقف الصعب. رفع الحارس السكين الطويلة، وهمَّ بغرزها في السلة؛ فهتفت فاتيما: توقف. لكنه صمَّ أذنيه عنها، وغرز السكين في جانب السلة بضربة قوية، وأُسقط في يد المرأة، ووقع قلب عمرو في قدميه، وسحب الحارس السكينَ، ودفعه في الجانب الآخر من السلة.

***

كان متيقنًا من أنه لن يدخل من باب الحصن، بل سيجد طريقًا آخرَ؛ لذلك فقد اقتفى أثره. وأدرك مدى نجاح خطته عندما وجد بضع حبّات متناثرة من كيس الحبوب الذي علّقه في متاع فرس الأمير، فقد تعمَّد أن يكون الخرق في الكيس صغيرًا؛ لكي لا تتناثر الحبوب إلا بعد سير الفرس واهتزاز الكيس. ونجح في تتبع أثر الحبوب حتى وصل إلى الشاطئ؛ حيث قرية الصيادين وبيوتهم ومراكبهم التي يستخدمونها في الصيد. شعر الجندي بالحيرة: أين ذهب؟ وليس هناك سوى بيوت الصيادين والبحر!، ترى هل يعرف أحدًا من الصيادين؟ لماذا اتجه إلى البحر من البداية؟ وكيف سيصل إلى الحصن؟ أيمكن أن يفكر أن يصل إليه عن طريق البحر! وكيف سيفعل ذلك؟ عاد لتتبع آثار الحبوب، فقادته إلى مربط الخيل في خان القرية، وهناك وجد الفرس التي كان يسافر بها الأمير.

ربط فرسه في المربط، واتجه إلى صاحب الخان، وسأله عن صاحب الفرس، وأخبره بأنه كان رفيقًا له في طريق السفر، وفي عنقه أمانة يريد أن يردّها إليه. أخبره صاحب الخان بأن صاحب الفرس استأجر مركبًا صغيرًا، وخرج بها إلى البحر. سأله الجندي أن يستأجر مركبًا؛ ليذهب خلفه. لم يمض وقت طويل حتى كان الجندي قد استأجر مركبًا صغيرًا، وأخذ يجدف متجهًا نحو الهضبة التي تقبع فوقها القلعة. لم يكن يدري عمَّ يبحث! ولا كيف سيجد الأمير، لكنه يدرك أن وجهته القلعة. عندما اقترب من الهضبة، وقف في المركب الصغير،

وباعد بين ساقيه محافظًا على توازن المركب. أخذ ينظر في كل اتجاه؛ لعله يرى شيئًا. أشرق وجهه بابتسامة كبيرة؛ عندما رأى قاربًا صغيرًا بالقرب من الصخور أسفل الجرف الذي تطل عليه القلعة، وعرف أنه مركب الأمير. نظر إلى أعلى الهضبة، وتأمل القلعة المشرفة على البحر بأسوارها وأبراجها العالية، وأصيب بالدهشة العارمة، وتساءل في نفسه.. ما الذي يفعله الأمير في هذا المكان؟ وكيف سيدخل إلى القلعة؟ رسى بمركبه، وربط حبلها إلى إحدى الصخور كيفما اتفق، واتجه إلى سفح الهضبة، وأخذ يمسح المكان بعينيه؛ بحثًا عن الأمير، ثم سار عبر الصخور التي تملأ المكان، واستغرق البحث منه وقتًا حتى انتبه إلى حبل سميك يتدلى من أعلى الهضبة. ابتسم بظفر، وانطلق إلى الحبل، وأمسك به ونظر إلى أعلى، لم يرَ الأمير، وبدأ خياله يصور له ما حدث. وصل الأمير إلى هنا، وأخذ يتسلق الهضبة، ومعه الحبل؛ ليربطه في مكان آمن. اختبر الجندي قوة الحبل بجذبه عدة مرات بقوة، ثم انطلق يصعد خلف الأمير، ويتسلق الصخور بمساعدة الحبل المدَلَّى، وكلما قطع مسافة؛ وقف يستريح قليلًا، وينظر لأعلى يبحث عن الأمير، ثم يستمر بالصعود مجددًا. وكان الأمر يزداد صعوبة بزيادة وعورة المنحدر، واشتدت المشقة مع بدء نزول المطر، وابتل الجندي من رأسه حتى قدميه، وأصبحت الصخور زلقة، ووجد صعوبة في تثبيت قدمه عند كل خطوة، لكنه استمر في الصعود بجلدٍ ودأب، حتى لاح له- أخيرًا- الأمير بملابسه السوداء يسبقه بمسافة، وحول خصره

حبل آخر ممدود طرفه لأعلى يساعده في الصعود، فكان ذلك دافعًا قويًّا للجندي؛ لبذل مزيد من الجهد في الصعود ليصل إليه، مما جعل المسافة بينهما تقل بسرعة. وقف الجندي يلتقط أنفاسه بعد ما بذله من جهد كبير في الصعود، مسح وجهه وعينيه من ماء المطر، ثم نظر لأعلى من جديد؛ فوجد الأمير فوقه بعدة أمتار، لكن فجأة انزلقت قدمه، ورآه يهوي أمامه من أعلى المنحدر. كان رد فعل الجندي سريعًا للغاية، ومد يده ليمسك بملابس الأمير السوداء، لكنه لم ينجح واستمر الأمير في سقوطه نحو سفح الهضبة.

❋❋❋

(7)

توقفت السكين قبل أن تنغرز في السلة عندما سمع حارس البوابة صوتَ قائد الحرس يهتف: أفسحوا الطريق.

التفت الجميع نحو الطريق؛ لتظهر لهم عربة فاخرة قادمة يجرّها خيل مسرّجة ومحتنكة بلجام مجدول، حتى توقفت في آخر طابور العربات المحملة بالثمار.

هتف الحارس في سائقي العربات أن يخلوا الطريق بسرعة أمام البوابة لدخول العربة، التي يبدو على مظهرها أن صاحبها من طبقة الأمراء.

انتشر الهرج بين الناس، وتحرك الجميع بعشوائية بسبب الازدحام على جانبي البوابة. اشتعلت الفوضى في المكان، وبدأ الحرس يصرخون في الناس؛ ليبتعدوا عن البوابة. واضطر حارس البوابة أن يأمر العربات التي أمامه بالدخول بسرعة؛ ليفسحوا الطريق لعبور العربة الفاخرة.

رأى عمرو الهرج فانْدَس بين الحشود، واقترب من صف العربات التي تحركت بالفعل، واطمأن عندما رأى العربة التي تختبئ بها عائشة تجتاز البوابة وتدخل الحصن. وبدأ يفكر في وسيلة يدخل بها هو أيضًا،

وعندما رأى العربة الفاخرة تدخل من البوابة استغل الزحام، وألقى بنفسه على الأرض وتدحرج أسفل العربة، فبخبرته مع ذلك النوع من العربات؛ يعلم جيدًا أن العجلاتِ مرتفعة عن الأرض بمسافة كافية تتيح له التعلق بباطنها من أسفل دون التعرض للخطر.

استمسك جيدًا بالقضبان السميكة، التي تمر بين العجلات وتعمل على تثبيتها جيدًا بالعربة. وظل على هذا الوضع المرهق لا يتحرك، حتى تحركت العربة أخيرًا واجتازت البوابة، وتحمل عمرو الألم الناتج عن شد عضلاته لمدة طويلة على هذا الوضع الصعب، وظلت العربة تجول به داخل الحصن، وهو يفكر في اللحظة المناسبة للتحرر من العربة، حتى بدأت تهدئ من سيرها وتتباطأ؛ فاتخذ القرار بسرعة، وألقى بجسده على الأرض، فاحتكت ساقه بمسمار بارز من العجلة، فتمزق سرواله وجرحت ساقه، تحمل ألم اصطدام جسده بالأرض بصبر حتى ابتعدت العربة، فهب قائمًا، وهمَّ بفحص جرح ساقه، لكنه سمع صوتًا عاليًا أفزعه، فالتفت خلفه ليفاجأ أمامه بعربة أخرى مسرعة على وشك أن تدهسه.

***

أدرك الجندي في لمحة سريعة- وهو يرى الأمير يسقط- أن الحبل الذي ساعده على الصعود طرفُهُ الآخر مربوط في خصر الأمير، جذب الحبل بسرعة واستمسك به بعزم، ثم رفعه فوق نتوء صخري بارز، ولف الحبل حول ساعده عدة مرات، واستند بظهره إلى الصخور التي خلفه.

وكما توقع، فقد انجذب الحبل بقوة كبيرة بفعل ثقل جسد الأمير، وكاد أن يسحبه معه لأسفل، لولا أنه كان مستعدًّا لذلك، فتراجع للخلف جاذبًا الحبل بأقصى طاقته.

تخيل الجنديُّ الأميرَ وهو معلق بالحبل يتأرجح بين السماء والأرض، فاستمات بالإمساك به كي لا يفلت منه. بعد قليل، شعر بثقل الحبل يتخفف، وقوة جذبه لأسفل تقل، فاستنتج أن الأمير تعلق ثانية بالهضبة، وبدأ يتسلق من جديد.

مرَّ وقت طويل حتى وصل الأمير أخيرًا إلى الصخرة، التي يقف عليها الجندي. ووقف يسترد أنفاسه بعد ما بذله من جهد شاق، لكن نظرة واحدة في عين الجندي شحذت أطرافه، وأيقظت فيه روح المقاتل المتحفز المنتبه؛ فقد أدرك أن الجندي سيطالب بثأر شيخه عاجلًا غير آجل.

***

تخلص عمرو من المفاجأة بسرعة، وقفز من أمام العربة، وتدحرج على الأرض عدة مرات، حتى ابتعد عن مسار العربات، وأصبح آمنًا من الدهس.

هب قائمًا، وتلفَّتَ يمينًا ويسارًا، ثم عاد أدراجه مسرعًا ليبحث عن العربة التي بها عائشة والمرأة التي ساعدتها. وفي نفس الوقت، كانت فاتيما تحث قائد العربة على الإسراع قبل أن تغرب الشمس. وصلت العربة إلى السوق، وتوقفت أمام دكان فاتيما، وأخذت تُنزل حمولتها من السلال الممتلئة بالثمار.

انضم زاك إليها، ووقف بجوارها وهي تراقب الحمّالين، وهُم يحملون السلال إلى داخل المخزن تحت المطر، وفي نفس الوقت الذي كان عمرو يبحث عنها في السوق، بعد أن رأى عربات الثمار تتجه إليه.

وأخيرًا، لمحها عمرو وهي تقف بجوار العربة تتحدث إلى السائق، فأخذ يحوم حول المكان، وكأنما يتجول في السوق، حتى أصبح في مدى بصرها، فانتبهت له فاتيما فأومأ لها برأسه، ففهمت على الفور أنه يبحث عمن خبأتها في السلة، فأشارت له بطرفها إلى باب دكانها، ثم همست في أذن زاك الذي انطلق من فوره يدور دورتين في السوق، ثم وقف بالقرب من عمرو، وهمس في أذنه أن ينتظر إلى ما بعد غروب الشمس؛ فوقف يراقب من بعيد حتى انتهت العربات من إفراغ حمولتها، وخلا السوق من رواده عندما مالت الشمس للمغيب.

وقفت فاتيما أمام باب دكانها تراقب الطريق بحرص حتى اطمأنت، ثم أشارت لعمرو؛ فأتى مسرعًا، ودخل إلى الدكان وتبعه زاك، ثم دخلت هي وأغلقت الباب خلفها.

أخذت سراجًا منيرًا من على أحد الأرفف، وقالت له بهدوء: اتبعني. دخلوا إلى المخزن الملحق بالدكان، وكانت عائشة تختبئ في أحد أركانه خلف السلال، وظهرت لهما عندما سمعت صوت فاتيما يطمئنها. اجتمع الأربعة، وقالت فاتيما: عليكما أن تشكرا ربكما أن

وضعني في طريقكما، لو كان أحدٌ غيري من المدجنين؛ لأصبح سجن القلعة مقرَّكما، كما أن بقاءكما هنا لمدة طويلة غير آمن.

قالت عائشة: نريد دخول القلعة الليلة، فهل بإمكانك مساعدتنا؟

قالت بثقة: أعرف من يستطيع مساعدتكما، ولكن عليكما الانتظار حتى يعود.

زاك: إسماييل!

قالت عائشة بلهفة: ومتى سيعود؟

أجابت فاتيما: لا أدري، ربما يومين أو ثلاثة!

عمرو: لا يمكننا الانتظار؛ يجب أن ندخل إلى القلعة الليلة.

قالت بعد تردد: كل ما أستطيعه هو أن أساعدكما فقط حتى باب القلعة، بعد ذلك عليكما الاعتماد على نفسيكما فقط، وإن أمسكوا بكما؛ فأنتما لا تعرفاني، ولم ترَيَاني في حياتكما، اتفقنا؟

عمرو بحزم: اتفقنا.

***

كان المطر يهطل بغزارة على الصخرة البارزة، التي يقف عليها الجندي والأمير، وقف الأمير مترقبًا متحفزًا أن يبادره الجندي بهجوم مفاجئ، فابتدره محذرًا: لا تضطرني لقتلك حتى أزيحك عن طريقي؛ لأنجز ما أتيت لأجله. أخبرتك من قبل أن لا شأن لي بقتل الشيخ، لو كنتُ قاتلًا لتركتك للصوص؛ ليقضوا على حياتك.

تأمله الجندي بارتياب، وظل صامتًا يفكر، واستقر عقله إلى أن يتمهل قليلًا، ويراقب الأمير إلى أن يتبين له ما يفعل.

أكمل الأمير: عليك أن تكف عن مطاردتي حتى أنهي مهمتي هنا، وبعدها فلتبحث عن القصاص لشيخك.

قال الجندي بتحفز: فليكن، ولكن لتعلم أنني سأكون خلفك بخطوة وأراقبك جيدًا، وبعد أن ننتهي من تحرير المجنون، والخروج من القلعة، عليك أن تثبت لي بالدليل أنك برئ من قتل شيخي.

زفر الأمير بضيق، وأولاه ظهره، وعاد للتسلق، وعاد الجندي يتسلق خلفه.

****

في وقت تبديل وردية حراسة الأبراج بالضبط.

كان هذا هو اختيار فاتيما لوقت تسلل عائشة وعمرو للقلعة؛ حيث يأمَنَا رصد حرس الأبراج لهما.

وقفت فاتيما تتحدث إلى حارس البوابة الجانبية للقلعة، وتساومه على ابتياع صندوق خمر، وتعمل جهدها لإطالة أمد الحديث، وإلهاء الحارس حتى يتمكن عمرو وعائشة من تسلق النخلة المواجهة لأحد النوافذ الحجرية في جدار القلعة. وزاك يربض خلف صخرة قريبة يراقب المكان ويستعد لأي طارئ. وتحت أستار ظلام لا يكسر حدته إلا مشعل في جدار القلعة، كان عمرو وعائشة يزحفان نحو الأعلى

على جذع النخلة الباسقة بمساعدة الحبال التي ربطاها جيدًا حول الجذع، حريصان ألا يُحْدثا أي صوت يجذب الانتباه لهما، وعيناهما على برج الحراسة الخالي لبعض الوقت إلى أن يسكنه الحارس الذي سيتسلم الوردية التالية.

وصلا بسلام إلى أعلاها، ولم يُضِع عمرو أي لحظة؛ فأخرج من جراب معلق في خصره خطافًا حديديًّا ذا أربع شعبٍ مربوط بحبل قوي من حلقته الخلفية أمسك به جيدًا، ومدّ الحبل في شكل حلقات فوق بعضها، وأخذ يلفّه في الهواء بالخطاف عدة مرات، ثم قذف به بكل قوته؛ فاجتاز النافذة الحجرية في جدار القلعة محدثًا صوتًا وصل إلى أذن الحارس، الذي انتفض من مكانه، وترك فاتيما وركض يبحث عن مصدر الصوت.

ارتبكت فاتيما، ولم تدْرِ كيف تتصرف، وهي ترى الحارس يتجه نحو النخلة التي يربض فوقها عمرو وعائشة. وبسرعة بديهة، سحبت إحدى زجاجات الخمر من الصندوق، وألقت بها بكل قوتها بعيدًا في الاتجاه الآخر؛ فانكسرت على الأرض محدثة دَويًّا أفزع الحارس، فارتدّ عائدًا باتجاه الصوت ينظر يمينًا ويسارًا.

فجأة، قفز زاك من مكانه مُحدثًا صوتًا عاليًا متعمَّدًا، انتبه له الحارس، ثم انطلق كقط بري يقفز مبتعدًا، فانطلق الحارس خلفه.

هتفت فاتيما بالحارس: دعه، إنه زاك اللص الصغير.

انتهز عمرو فرصة مطاردة الحارس لزاك، وربط طرف الحبل في

النخلة، واطمأن إلى أن الخطاف مثبّت جيدًا في النافذة الحجرية بجذبه عدة مرات، ثم أمسك بالحبل، وألقى بجسده في الهواء، وتعلّق بكفّيه، وبدأ يتنقل عبر الحبل المشدود بخفة القرود، ينقل كفًّا بعد الأخرى مجتازًا المسافة بين النخلة والجدار الحجري للقلعة، وعائشة تراقبه، وتراقب عودة الحارس بقلق، حتى اطمأنت إلى أنه وصل إلى النافذة، وجلس فوقها ينتظرها.

عندما رأت فاتيما الحارس مقبلًا، جرّت صندوق الخمر، واتجهت إليه مسرعة، وأخذت تلهيه بالمساومات والحديث، وتصرف انتباهه عن الأصوات التي سمعها بأسباب شتّى.

نظرت عائشة تحتها، واطمأنت أن الجو هادئ، وأن الحراس لم ينتبهوا لهما، وأن فاتيما تقوم بدورها جيدًا؛ فأمسكت بالحبل بكلتا كفيها، واتخذ جسمها وضعًا أفقيًّا، ولفَّت ساقيها حول الحبل، وأخذت تسحب الحبل بكفّيها، وتجذب جسدها باتجاه القلعة حتى وصلت أخيرًا إلى النافذة الحجرية، وجلست فوقها تلتقط أنفاسها لثوانٍ، ولم يُضِع عمرو الوقت، فأدلى بحبل آخر إلى الأرض، وربط طرفه جيدًا في النافذة. وبحرص شديد، نزل بالحبل إلى أرض القلعة، وتبعته عائشة.

ربض عمرو وعائشة أسفل السور بين الأعشاب في الظلام يراقبان المكان، واطمأنَّا إلى أن الحرس في أماكنهم، ولم ينتبه لهما أحد.

❋ ❋ ❋

إحساس قوي يراوده، بأن الأمير قد يكون صادقًا؛ فتسلله إلى القلعة عبر هذا الطريق الخطر، وتعرضه للموت متردّيًا من فوق جرف خطير كي لا ينتبه له فرسان القلعة؛ علامات تنبئه بأنه ليس بخائن. كما أن إنقاذه له من الموت رغم علمه بأنه يطارده ليقتص منه، وقبوله بأن يصحبه في مهمته رغم علمه بأنه يراقبه وقد يفشي سره. كانت ملابس الأمير السوداء تستجلب من خياله صورة الفارس الأسود الذي قاتل فرسان القلعة معهم في بيت الشيخ، فدعا الله مخلصًا أن يلهمه الرشاد، وأن يريه الحق واضحًا، وأن يجنبه قتل إنسان بريء بالخطأ.

وصل الأمير- أخيرًا- إلى جدران القلعة، ثم أشار للجندي أن ينتظره حتى يعطيه الإشارة بالصعود، ثم أخرج خنجره، وأخذ يغرزه في أماكن معينة في الجدار وكأنما يحفظها، ثم يجذب جسده لأعلى ويضع طرف قدمه في شقوق وثقوب بالجدار موزعة بتتابع دقيق وكأنما ثقَبَها خبيرٌ بالتسلق والتسلل.

لم يهتم الأمير بالزحف السريع للظلام وانحسار ضوء النهار، إذ كان يبدو أنه يعرف طريقه جيدًا دون حاجة لأن يبصره. وعندما وصل لأعلى السور، وقف على الإفريز الخارجي، وانسلَّ إلى داخل السور في الظلام، ثم أدلى بحبل إلى أسفل الجدار حيث ينتظره الجندي. بمجرد أن رأى الجندي الحبل حتى تسلقه بسرعة ورشاقة إلى أن وصل إلى أعلى السور، وانضم للأمير.

كان من الواضح أن هذا الجانب من السور قليل الحراسة، فمن ذا الذي يتوقع اختراق القلعة من جانب الجرف الوَعْر المُطِل على تلك

المنطقة، المملوء بالصخور الضخمة الحادة حيث تتكسر أمواج البحر العاتية فوقها في هدير مخيف.

وعندما ألقى الجندي بنظرة سريعة على المشهد- الذي كان جزءًا منه منذ قليل- من فوق السور، قدَّر شجاعة الأمير وجرأته في اختيار دخول القلعة عبر هذا الطريق المخيف.

عبر السور العريض، كان الأمير يتنقل من مكان إلى مكان في الظلام رغم المطر، ويتجنب أماكن الحرس بمهارة دَهِش لها الجندي، كما لو كان يحفظ خريطة المكان عن ظهر قلب.

ثم تذكر فجأة أن شعوره بالدهشة لم يكن في محله؛ فالأمير كان يومًا ما حاكمًا للقلعة، ومن المؤكد أنه يحفظ كل شبر فيها.

ربط الأمير حبلًا في طرف السور الداخلي للقلعةو وألقى نظرة على الساحة الداخلية في الأسفل؛ فرأى عربة فاخرة تقف أمام قاعة الزائرين تمامًا؛ فأدرك- على الفور- أن الكونت حاكم القلعة لديه زيارة هامة وعاجلة لزائر هام قادم من غرناطة لن يطول به المقام، وسيرحل بعد أن يتم ما أتى لأجله، وانتابته رغبة قوية لمعرفة ما يدور في هذا اللقاء.

تمسك بالحبل جيدًا، واختبر قوة العقدة التي عقدها في السور، ثم تدلى به على الجدار، وولج من إحدى النوافذ الخشبية إلى داخل حجرة مظلمة، وتبعه الجندي خطوة بخطوة.

وعندما أصبحا داخل الحجرة، تناول الأمير شمعة من على أحد الأرفف، وأشعلها ووضعها على منضدة كبيرة في وسط الحجرة. أبصر الجندي ما حوله على ضوء الشمعة، كانت تبدو كحجرة للكتب والمخطوطات.

أخد الأمير يبحث في الكتب والمخطوطات الكثيرة الموضوعة على المنضدة ويقلب فيها، فقال الجندي بدهشة: عمَّ تبحث؟!

تجاهل الأمير سؤاله، واستمر بالبحث، حتى وجد إحدى المخطوطات قد امتلأت برسومات كثيرة ورموز عديدة، ثم بحث في الكتب حتى وجد كتابًا يحوي رسومات شبيهة بالرسومات التي في المخطوطة، والجندي يتابعه باهتمام، وهو يقلب في الكتاب والمخطوطات التي حوله، ثم سأله: ما الذي تحويه تلك المخطوطات؟ وماذا تعني تلك الرسومات الغريبة؟

لم يجبه، بل استمر في البحث حتى توقف- أخيرًا- عند مخطوطة تراصت عليها رسومات ورموز لكنها لم تكتمل إلى آخرها، رفع رأسه، وقال بقلق: لقد بدأوا بالفعل، لم يتبقّ أمامنا الكثير من الوقت، ساعدني يا الله.

التفت إلى الجندي، وقال بحزم: هيا بنا.

قال باعتراض: لا أدري عمّ تبحث!، لكن علي أن أجد "بهلول" وأحرره.

ردّ الأمير، وهو يتحرك نحو النافذة التي دخل منها: إن ما أبحث عنه سيساعدنا على تحرير بهلول من الأسر.

اكتفى الجندي بتلك الكلمات القليلة، وتبع الأمير بعد أن أدرك أن هدفهما واحد.

❊❊❊

كان عليهما اتخاذ كل أسباب الحيطة والحذر وهما يتسللان أسفل السور، ويراقبان أماكن الحرس من مكانهما المظلم. يمَّمَا وجهَيْهما نحو الجانب الشمال شرقي القلعة؛ حيث أخبرتهما فاتيما أن الممر الرئيسي هناك يتفرع منه ممرٌ إلى اليمين، في آخره سلم ينزل إلى الممرات السفلية التي تؤدي إلى السجن، كما تسمع من وصف السجناء الذين أُطلق سراحهم من هذا الجحيم.

كانا مضطرّيْن للاكتفاء بذلك الوصف المختصر لعدم وجود بدائل أمامهما، ولخوفهما من تسرب الوقت؛ فيفقدا أباهما أو بهلول. لكن كلمة عابرة في حديث فاتيما أوحت لهما بأن هناك في القلعة من يستطيع أن يساعدهما.

لم تفصح لهما عن أية معلومة إضافية؛ مما اضطرهما إلى عدم الاعتماد على كلامها المبهم، والاعتماد التام على توفيق الله وذكائهما وحذرهما.

انطلقا نحو هدفهما تارة زحفًا وتارة يمدَّان الخطا خافضي الرأس، وتخيَّرا اجتياز الأماكن التي يسترها الظلام، وإن سارَا في خط متعرج يضاعف حجم الوقت والطريق، لكنه يمنحهما بعض الأمان. حتى وصلا- أخيرًا- إلى الممر الرئيسي، وأخذا يتحسسان خطاهما فيه، وينتبها جيدًا لأي حركة أو صوت في الممر.

كان الممر مظلمًا إلا من بضعة مشاعل تناثرت على مسافات متباعدة في الممر؛ لتكسر حدة الظلام.

أسرعا الخطا في الممر ليصلا إلى الفتحة المتفرعة منه إلى جهة اليمين. وبمجرد أن وجداها، حتى تسللا إلى الممر الفرعي الذي كان غارقًا في الظلام. وكان عليهما اجتيازه بسرعة للوصول في آخره إلى السلم المؤدي للممرات السفلية.

وفي نفس الوقت، كان الأمير يسير بحذر فوق إفريز النافذة الخشبية لقاعة المخطوطات، التي خرج منها لتوِّه متجهًا إلى النافذة التي تليها، والجندي ينظر إليه مستعدًا لتتبع خطواته عند الإشارة.

مرَّ الأمير على نافذتين في طريقه، وتجاوزهما، وعند الثالثة ولج إلى داخل القاعة المظلمة.

مرق الجندي خلفه من النافذة إلى القاعة المظلمة بهدوء، وجد الأمير ينحني على الأرض في أحد الأركان؛ يحاول أن يحرك جزءًا من أرضية الغرفة بأكبر قدر من الهدوء، فوقف بجواره يتأمل ما يفعله بفضول، وأصابته الدهشة عندما وجد جزءًا من الأرض يتحرك في يد الأمير مخلفًا فجوة في الأرض، خرج منها ضوء قوي آلم عينيه حتى اعتاده.

وجد الأمير منحنيًا في وضع السجود، ينظر من الفتحة؛ ففعل مثله وانحنى على ركبتيه ينظر من الفتحة المضيئة، وبدأ يتبين المشهد ويستمع إلى المتحدثين.

كانت الفتحة في سقف قاعة استقبال الزائرين فوق الثريا الضخمة المعلَّق فيها مصابيح الزيت التي نثرت ضوءها في أرجاء القاعة المخملية الفاخرة.

تحتها جلس الكونت فوق كرسي الحاكم بصلفٍ، وأمامه ضيفه الذي أوحى منظره والعربة التي أتى بها إلى الجندي بأنه أحد أمراء غرناطة، وعرفه الأمير على الفور، إنه الأمير فرج.

سمعا صوت الكونت بوضوح، وهو يخاطب ضيفه بأنفة: وهل عرفت شخصيته الحقيقية؟

فرج: لا أحد يعرفها حتى الآن، لكني موقن بأنه لا أحد يستطيع التصدي له، وكسر شوكته سواك.

- لا أفهم، ما دخلك أنت بالأمر! ولم تخشاه إلى هذه الدرجة؟!

- أنت لا تعلم ما الذي فعله بنا خلال السنوات التي ظهر فيها!، خرّب علينا حياتنا وتجارتنا ومصالحنا.

- تقصد تجارة الخمور، والربا، وبيوت المومسات؟

- أعلم أن لديك ثأرًا عنده بعد أن قتل رجالك شر قتلة.

تغير وجه الكونت، وعرف الضيف أنه قد أصاب سهمًا؛ فاستمر في طريقه: لقد كان واحدًا وفعل بنا الأفاعيل، والآن عرفت من رئيس الشرطة أنهم صاروا ثلاثة! فما الذي يمكن أن يفعلوه بنا وكيف سيكون الحال إذا ما تضاعفت أعدادهم؟، لقد صار الأمر خطيرًا، ويدعو للتفكير، أيمكن أن يتحولوا إلى جيش؟!

صمت الكونت مفكرًا، فأكمل فرج بغلٍّ: علينا أن نقضي عليه بسرعة، ذلك المجرم الحقير قد يتسبب في إفساد كل خططنا وتدمير مصالحنا.

التفت الكونت إليه ولاحت في عينيه نظرة ذئب شرس، والتوى فمه باشمئزاز: ولكن ألا ترى أنه يعمل على إصلاح بلاده!

صمت برهة، وحاول جاهدًا فهْمَ كيف يفكر ريموند، فقد كان الحديث معه بمثابة السير على صراط مليء بالأفخاخ المخفية بمهارة، يجب أن يفكر جيدًا قبل أن يضع قدمه، لكنه اختار أن يستمر في تحريض ريموند ضد الفارس الأسود: ولكن.. ولكنه كان يقتل رجالكم وأعوانكم، وجواسيسكم في غرناطة!.

ألقى الكونت إليه بنظرة احتقار عميقة، لكنه هتف بحدة: قتلنا الشيخ حتى لا تُخرج لنا كلماته فارسًا أسودًا جديدًا.

انتفض الجندي غضبًا على دوي كلماته، وكادت الدماء تتفجر من عروقه، وتمنى لو ينقض على ذاك الخائن، لكنه كتم غضبه وأخذ يستمع.

وظننا أننا قضينا على أتباعه، وشتتنا تلاميذه الذين يتشربون أفكاره الثورية، ويؤمنون بفكره الجهادي. ورغم ذلك، صاروا يتكاثرون كالحشرات، كيف لرجل غادر الحياة بلا رجعة أن تصنع كلماته كل هذا التأثير!

قال الكونت: شيء لن تفهمه أنت أبدًا، إنها قوة إيمانه بما يقول، وإخلاصه في كل ما يفعل. تتدفق دماؤه الجبارة في أتباعه، وتسري فيهم

تهبهم قوة وجسارةً بلا حدود. إن شخصًا واحدًا آمن بفكرة وأخلص لها وأعطاها عمره، ووهبها حياته؛ يستطيع أن يُخرج من كلماته جيشًا ينسف الجبال نسفًا.

كان فرج ينظر إليه ببلاهة فاغرًا فاه، لا يدري ما يقول. انتبه أخيرًا، وابتلع ريقه، وقال بصوت لم تزايله الدهشة: عجبًا، تتحدث كما لو كنت واحدًا منهم!

قال الكونت بكبرياء: أنا أنصف أعدائي قبل أصدقائي، بل إنني قد أدرس خصال أعدائي وصفاتهم لأقاتلهم بها، إن أعدائي عندما يخلصون لقضيتهم ينتزعون احترامي انتزاعًا.

قال بدهشة: إن كان هذا هو فعلك مع أعدائك؛ فكيف بمن يتعاونون معك، ويخلصون لك!

ألقاه بنظرة من علٍّ، ولوَّى فمه باحتقار: هؤلاء لهم المنح والعطايا والهبات.

أكمل فرج: والاحترام!

ألقاه ريموند بنظرة لا مبالاة، ثم قال: الاحترام لمن يستحقه.

صمت قليلًا، ثم تنحنح مبدلًا دفة الحديث؛ محاولًا إخراج نفسه من وحل المستنقع دون خسائر: الأهم من كل هذا هو كيف ستوقفهم؟

الفارس الأسود أصبح ثلاثة، والعدد سيتكاثر بالتأكيد، فكلمات الشيخ لازالت تسري في تلاميذه وأتباعه، وهم شباب متحمسون،

وسيشعلون الأرض جحيمًا؛ ثأرًا لشيخهم، وهاهم قد بدأوا بسحق ستة من رجالك الأشداء.

لم يشأ ريموند أن يخبره بحقيقة ما حدث، وتركه يعتقد ما يريد: كان ذلك هو أغبى شيء فعلته على الإطلاق، فعندما تتحول الكلمات إلى فرسان وجنود يبذلون أرواحهم في سبيلها، فلا فائدة ترجَى من قتل صاحبها، بل العكس، فكل منهم سيسعى للثأر. والآن بعد أن أفسدت الأمر بغبائك تأتي لتبكي على اللبن المسكوب، وتستنجد برجالي لإصلاح ما أفسدت!. لم لا تجرب أساليبك تلك مع حلفائك وأصدقائك من مملكة أرجون؟ أم أنك تخشى انكشاف أمرك لأمير بني نصر؛ فينكّل بك؟

قال فرج محاولًا استفزازه: قد يهاجمون قلعتك وحصنك.

ضحك ساخرًا: أنت لا تهتم إلا بنفسك ومصالحك وأموالك فقط، لا أحد يجرؤ على الاقتراب من هنا؛ فاسم القلعة وحده يلقي الرعب في القلوب، ويقهر أي فكرة قد تمرّ ببالِ أي إنسيٍّ أو جنيّ عن اقتحامها. لقد أضعت الكثير من وقتي في حديث لا طائل منه، والآن أخبرني- باختصار- بما دفعك لطلب اللقاء العاجل؟

فكر فرج قليلًا، ثم قال بارتباك: إنه، إنه حصار غرناطة؟!

انتفض الجندي من المفاجأة، وارتدت رأسه للخلف بعنف، لكن دهشته تضاعفت عندما افتقد الأمير في المكان، وامتلأت عروقه بالغضب الشديد، وفكر أن يقتفي أثره، لكنه فضّل الاستماع إلى فرج الذي أكمل: أستطيع أن أؤكد لك أن الأرض الآن في غرناطة ممهدة للحصار، وستسقط

بسهولة. عليكم أن تبدأوا بحصارها قبل أن ينتبه الناس من غفلتهم، وتسري فيهم روح المقاومة. هم الآن يُمنّون أنفسهم بالمعاهدة التي بين أميرهم العربي وبين ملك قشتالة، ولن يتوقعوا أبدًا أن تحاصروهم.

شعر الجندي بالغثيان من رائحة الخيانة القذرة، التي أزكمت أنفه، وطال صمت ريموند مفكرًا، وأخذ يدور في القاعة وهو يهز رأسه كما لو كان يقلب الأمر ويتدارسه بينه وبين نفسه، حتى توقف أخيرًا، والتفت إلى فرج، وقال برصانة: ليس بعد.

ضغط فرج أسنانه من شدة الغيظ، وأمسك لسانه عن قول كلمة بذيئة، واعتصم بصمت المضطر بعد أن فسدت خطته باستفزاز ريموند لفعل أي شيء يلهي أمراء غرناطة قبل أن ينكشف أمره.

واستمع صاغرًا إلى ريموند، وهو يؤكد: ليس بعد، عليّ أولًا أن أنهي الإعدادات والتجهيزات اللازمة لأمر هام كهذا. كما أنه لابد من التنسيق الجيد مع ملك قشتالة، فلن أضحي برجالي في معركة لم أستعد لها جيدًا، إن كل ما تراه الآن من مظاهر التهاون والتكاسل والركون بين أهالي غرناطة، سيتحول إلى استنفار واستنهاض ومقاومة وجهاد، بمجرد أن يستشعروا الخطر المحدق بهم. كما أنني لابد وأن أؤمن جبهة إفريقية جيدًا، حتى لا يزحف مجاهدو الثغور لنجدة غرناطة من البحر؛ فيُفشلوا الحصار.

انفتح باب القاعة فجأة، واقتحمت الأميرة زوجة الكونت المكانَ، ونظرت إلى تعبيرات الدهشة التي ملأت وجهيهما بلا مبالاة، ثم قالت بصلفٍ مبالَغ فيه: هل قاطعت حديثًا هامًّا!؟

حاول الكونت أن يحتفظ بهدوئه، وهو يقول بتجهّم: أرجو أن يكون أمرًا هامًّا، ذاك الذي دفعك لاقتحام القاعة في ذلك الوقت المتأخر! قالت بصوت مفعم بالسخرية والشماتة: أنت هنا تجالس صديقك الأمير، ولا تدري شيئًا عما يحدث في ممرات قلعتك السفلى!

كان الغضب العارم يعصف بداخله من طريقتها الوقحة في الحديث، لكنه سيطر عليه، وجمَّده ببرودة أعصابه القوية، ورفع ذقنه لأعلى قائلًا: إن كان لديك أمرًا هامًّا فلتقولينه الآن، أو فلتنصرفي إلى شئونك عزيزةً.

قالت: وهل حديثك مع صديقك الأمير أهمُّ من المعركة التي تدور الآن بين حرس الممرات السفلية، ومتسلل من خارج القلعة!

انتفض جسده، والشراسة تغزو ملامحه: متسلل!

رفع الجندي رأسه تملأه الدهشة، وهو يهمس لنفسه: كيف وصل الأمير إلى الممرات السفلية بهذه السرعة!

وانطلق للّحاق به بسرعة لمساعدته.

أجابت الأميرة عن تساؤل الكونت بالكيفية: يبدو أن الأمير فرج صديقك الوفي لم يأت وحيدًا!

صاح ريموند محذرًا امرأته: ماذا تقصدين بكلماتك؟!

رفعت أمام وجهه خرقة صغيرة ممزقة من قماش أسود بها آثار دماء، وقالت: أقصد هذه. وجدوها معلقة في أسفل عربة الأمير.

اختطفها الكونت من يدها، وقرّبها من وجه الأمير فرج، وقال: ألديك تفسير مقنع لهذا؟!

ارتبك فرج بشدة، وعلا صوته كما لو كان يدفع عن نفسه تهمة: ماذا! هل كنتم تفتشون عربتي، إنها إهانة! كيف تعاملون ضيوفكم وأعوانكم بهذا الـ..

قاطعه الكونت بشراسة: هناك متسلل دخل إلى القلعة عن طريق عربتك، وعليك أن تفسر هذا الأمر.

كانت الأميرة تراقب بشماتة، وهي مستمتعة بمشهد غضب الكونت الذي قلَّما تفصح ملامحه الباردة الجامدة عمّا يعتمل في صدره، وفرج أمامه يرتعد كدجاجة سقطت في دلو ماء بارد.

صرخ ريموند ينادي الحرس، وأمرهم باصطحاب الأمير إلى أحد الأجنحة؛ حتى يرسل من يحقق في الأمر.

هتف الأمير، والحرس يقتادونه: لا يمكن أن ترتاب فيّ، وأنت تعلم بأنني من أخلص أعوانك!

رد الكونت باقتضاب: سنرى.

سألت الأميرة ريموند، والشماتة تتراقص في عينيها: إلى أين؟!

قال: لن ينام أحد في القلعة الليلة، قبل أن أحصل على رأس ذلك المتسلل، غادر القاعة وصوت خطواته الغاضبة يدوي في المكان.

وبقيت الأميرة وحدها، ثم أطلقت ضحكة ساخرة تردد صداها عاليًا في المكان: أخيرًا، وجدت ما يفسد عليك ليلتك ويومك أيها البارد المتعجرف. وأنت أيها الجرذ المتسلل، ترى أي فأل سيء ألقى بك إلى مصيرك المحتوم!

***

كان الجندي يجري في الممرات السفلى للقلعة بحثًا عن الأمير مسترشدًا بصوت صليل السيوف وهرج المعارك، الذي يعلو ويقترب كلما اقترب من سجن القلعة، بينما كان الأمير يتسلل عبر إحدى النوافذ الخشبية إلى القاعة الكبرى التي تقع في مكان مميز؛ فنوافذها الداخلية تطل على البلدة الصغيرة والنوافذ المقابلة لها تطل على البحر.

كانت القاعة مظلمة تمامًا، لكن خطواته عرفت طريق المشاعل بسهولة؛ فأوقد مشعلًا، وأخذ يتطلع للمكان، وشيئًا فشيئًا بدأت عيناه تبصران ما أمامه.

كان الهيكل الأسطواني الضخم الذي يقف أمامه ما هو إلا صورة مكبرة من رسومات المخطوطات التي اطلع عليها في قاعة المخطوطات.

امتزجت الدهشة بالغضب العارم في داخله، وأخذ يتمتم: لا أكاد أصدق!، لقد أنجزه بالفعل.

سمع صوت أقدام الحرس تهرول في الممر؛ فأطفأ المشعل، ووضعه مكانه، ثم قفز من النافذة. وفي تلك اللحظة، اقتحم الحرس

القاعة وهم يحملون المشاعل التي أحالت ظلامها إلى نهار، وفتشوها بعناية، وأخرج أحدهم رأسه من النافذة، وأخذ يتطلع يمينًا ويسارًا، وإلى الأسفل؛ فلم يجد إلا الظلام. ولم يلحظ ذلك الشبح الأسود الذي يتسلق الجدار فوقه بخفة وهدوء.

غادر الحرس القاعة، وهم يتوعدون المتسللين، وينتوون محاصرتهم في الممرات السفلية للقلعة. وبمجرد أن غرقت القاعة في الظلام، حتى مرق الأمير مجددًا من النافذة، واتجه مباشرة إلى باب القاعة؛ فقد أدرك- وهو يرهف سمعه- إلى أصوات الحرس وهو معلق فوق النافذة ببضعة أشبار؛ أنهم يبحثون عن ذلك الجندي الذي انطلق لا ريب إلى الممرات السفلية؛ ليحرر "بهلول" من السجن.

كان الأمير ينزل السلالم المؤدية إلى الممرات السفلية؛ بحثًا عن الجندي، وهو يصبُّ جامَ غيظه في نفسه على هذا الشاب الأرعن المتهور الذي أفسد خطته، واستثار كل جند القلعة لمطاردتهما.

وبعد أن كانت خطته تعتمد على التسلل والمفاجأة، أصبحت المواجهة والقتال لا مفر منهما، وأصبح خيار الانسحاب من القلعة هو الخيار الوحيد المتاح إلى حين إيجاد خطة أخرى لإنقاذ بهلول.

بينما كان الجندي الشاب يخوض معركة شديدة في أحد الممرات السفلية مع حرس السجن، كانت أصوات معركة طاحنة أخرى- يدرك يقينًا أن بطلها الأمير- تأتيه من آخر الممر، واتَتْه فكرة لمساعدته؛ فبدأ

ينسحب أمام الحرس ليترك لهم الفرصة لمطاردته، وإحداث فراغ في الممر؛ يمَكِّن الأمير من التقدم والتحرك في الممرات.

وعلى الجانب الآخر من الممر، استطاع عمرو النجاة من الثغرة التي أحدثها الجندي في صفوف الحرس؛ فأحدثت مساحة يسيرة في الممر استغلها جيدًا؛ فقتل منهم ما استطاع إليه سبيلًا، وتراجع بسرعة مستغلًّا انسداد الممر بجثث الحرس، وانطلق يجري في الممر المتعامد عليه يبحث عن عائشة التي افتقدها أثناء هجوم الحرس عليهما، أما الجندي فانطلق يركض في الممرات، وخلفه الحرس لكنه توقف في أحد الممرات عندما وجد مجموعة من الحرس تقاتل الأمير المتخفي في زي الفارس الأسود، وظن أنه استطاع النجاة من الحرس، وانطلق يفرُّ عبر الممرات حتى وصل إلى هنا وحاصره الحرس، وقدّر أن الممرات السفلى هي شبكة متصلة ببعضها في أكثر من موضع، وتفاءل بأن هذا قد يكون في صالحهما وينجوان بخبرة الأمير، ومعرفته التامة بدروب وممرات القلعة.

كان عليه الاشتباك مع الحرس ومساعدة الأمير؛ فأخذ يُثْخن فيهم الطعن والضرب، ويكِرّ ويفِرّ في الممر، واستغل المساحة الضيقة لعرض الممر الذي لا يسع لأكثر من حارس يقاتله سيفًا بسيف؛ فأصبح عدد الحرس بلا قيمة تذكر، بل صار عبئًا عليهم يزيد من ضيق الممر؛ فيعرقل بعضهم بعضًا.

وأخذ الأمير يقاتل معه ببسالة، وانضم إليه في نفس الجانب، فأعجز الحرس عن النيل منهما، لكنهم كانوا يتكاثرون ويتوافدون على الممر. وخشي الجندي أن يطوقوهما من الخلف؛ فأشار للأمير الذي التقط إشارته بذكاء، وانسحبا ركضًا في الممر، وكلما اعترض طريقهما أحد الحراس أزاحاه من طريقهما، حتى وصلا إلى آخر الممر؛ ليجدا سلمًا حجريًّا ينزل إلى الأسفل، وتبع الجندي الأمير قفزًا وهو يهتف قبل أن يصل إليهما الحرس: سيحاصرون غرناطة، والأمراء أرسلوا مندوبًا لهم لتحريض القشتاليّين على التعجيل بالحصار.

التفت له، وهتف بتعجب: أنت!

عقد الجندي حاجبيه، وهتف بذهول: كيف وصلت إلى هنا! هل كان الحرس يحاصرونك أنت؟

رد الملثم بالسواد، والذي لم يكن سوى عائشة: لا وقت للكلام، علينا الخروج من هنا.

في القبو، وقفت عائشة حائرة لا تدري إلى أين تذهب، نظرت في كل اتجاه؛ علها تجد بابًا أو مخرجًا. سألها الجندي بدهشة: وماذا بعد؟! ألم تعد تعرف الطريق؟ هل قدتنا إلى القبو دون أن يكون لديك خطة أو طريق للخروج؟

هتفت بغيظ: أنا لم أدعوك لتتبعني، أرني طريق الخروج إن كنت تستطيع.

سمعا أصوات أقدام تنزل السلم الحجري، انطلقا نحو آخر القبو، لكنهما اصطدما بجدار أسود قاتم لم يتبيَّنا ماهيته في ظلام القبو، ومع اقتراب الحرس كان هلاكُهما محتّمًا.

***

وصل الأمير إلى الممرات السفلية بعد أن نجح في النزول من على إفريز النافذة إلى الأرض، ومنها انطلق إلى الممرات السفلية يبحث عن الجندي، ويتبع أصوات المعارك وصليل السيوف، ونجح في الوصول السريع إليه بقتل كل من يعترض طريقه من الحرس. وانضم إليه في معركته مع من يحاصره من الحرس، وساعده في القضاء عليهم.

وانطلق يجري في الممرات المظلمة بخطوات تبصر طريق الخروج وتحفظه جيدًا، والجندي يتبعه ركضًا بصمت، أو هكذا يظن أنه هو.

نزل الأمير سلالم أقبية القلعة قفزًا، وجرى في الممر، ثم انحرف يمينًا، واقتحم إحدى غرف القبو، واتجه إلى آخر الغرفة، سمع رفيقه الملثم بالسواد يهتف: إلى أين؟

التفت إليه بدهشة، وهتف: ما الذي أتى بك إلى هنا؟!

عرف عمرو صوت أبيه كما عرفه؛ فهتف بذهول: أبي!

تلفت حوله وكأنما يبحث عن عائشة ليخفيها عن أبيه.

زجره الأمير، بقسوة: اخرس واتبعني، وقت الحساب لم يحِن بعد.

انحنى الأمير على الأرض، وأزاح بقوة إحدى الأحجار محدثًا فجوة في أرض القبو. دفع عمرو لينزل في الفتحة، ثم قفز خلفه، ثم مد يده من الفتحة، وجذب الحجر؛ ليعيده مكانه، ويغلق الفتحة خلفهما، ثم انطلقا يجريان في سرداب طويل ضيق.

كان الأمير يقطع السرداب المظلم ركضًا دون أن يوقفه شيء، ينحني معه وينعطف في فروعه بدون خطأ. وعادت به الذاكرة إلى الماضي عندما كان حاكمًا للبلدةو وسلسلة السراديب التي أشرف بنفسه على حفرها بمساعدة مجموعة من أخلص أتباعه وقت حصار البلدة.

وصلا إلى آخر السرداب، فتوقف الأمير لحظة، وقال لعمرو: إذا ما اجتزنا المخرج؛ فعليك أن تحرص أشد الحرص ألا تسقط وأنت تتسلق الجدران، فلا أرض تحتك.

لم يفهم عمرو مقصده إلا عندما رآه يجتاز المخرج ويتعلق بالجدار المقابل، ويتسلق بوضع قدم في أحجار جدار، والقدم الأخرى في أحجار الجدار المقابل.

أخرج عمرو رأسه من فتحة السرداب، ونظر إلى أعلى فوجد السماء، ثم نظر لأسفل ورأى لمعة نجوم السماء على صفحة ماء، امتلأت نفسه بالدهشة والإعجاب من أصالة الفكرة. وتمنى لو التقى صاحبها ليهنئه عليها.

خرج من مخرج السرداب إلى جدار البئر، وتسلق الجدران كما فعل أبوهو وخرج من أعلى البئر ليجد نفسه في ساحة بيت قديم مهجور.

***

(8)

أخذ ريموند يدور في القاعة والغيظ يأكل كبده.

قال الأمير فرج، بحذر: لقد حذرت من قبل، إنهم يتكاثرون كالجرذان. الفارس الأسود كان واحدًا، ثم ثلاثة، والآن أربعة، وغدًا قد يصبح كتيبة كاملة إن لم نقض عليه. وقد يتحول إلى جيش جرار يضم كل شاب يشعر باليأس والهزيمة.

هتف الكونت بصوت كالرعد: اصمت، لا تنطق بكلمة.

صاحت زوجته هازئة: ولم يصمت! أتصم أذنيك عن سماع الحقيقة! إنهم بالفعل أكثر من واحد، ربما ثلاثة أو أربعة، أو أكثر. الممرات السفلى كان بها أكثر من معركة في أكثر من مكان، وبعد أن قتلوا الكثير من الحرس هربوا. أهؤلاء هم جنودك الذين لا يُهزَمون!

عجز عن تحمل سخريتها اللاذعة؛ فصرخ غاضبًا: أليس لديك ما يشغلك! لم لا تنصرفي لأمور النساء، وتدعي الحكم والحرب للرجال!

قالت بتعالٍ: هذا الكلام لن يعجب الملك.

صرت أسنانه غيظًا وحقدًا، وابتلع كلماته مرغمًا، واضطر إلى أن يغير مجرى الحديث: هل نطق ذلك المجنون، أم لازال مصرًّا على عناده؟

هزت رأسها نفيًا، فهتف بغلٍّ: يجب أن يتكلم، يجب أن يخضع لأوامري وإلا فسأحرقه حيًّا، زيدوه من العذاب أضعافًا.

قالت: أخشى أن يموت، علينا أن نكون على حذر فنحن بحاجة إليه، دع الأمر لي، وسأستنطقه بطريقتي الخاصة.

التفت إلى فرج، وصرخ: وأنت، ما الذي يبقيك هنا إلى الآن!

أجاب مرتبكًا: الـ.. الحصار، حصار غرناطة. ماذا أقول للأمراء الذين ينتظرون ردكم؟

قالت الأميرة: سأرسل إلى ملك قشتالة؛ أسأله.

هتف ريموند: لا.. عليّ أن أنهي الاستعدادات اللازمة، ولن أزج برجالي في حصار لم أستعدّ جيدًا له.

***

لم تصدق عائشة عينيها عندما تبينت بصعوبة في الظلام ماهية الجدار الأسود الذي اصطدمت به في القبو؛ فقد كان يتدثر بخيوط الظلام حتى صار وكأنه جزء منها، ولولا لمعة يسيرة في بياض عينيه ما كشفت مكانه.

هتفت بدهشة عارمة: صخر!

حمدت الله كثيرًا أنْ ألَانَ لها قناة صخر، وتبعهما حتى هنا، وبرغم أنه لم يساعدهما على دخول القلعة، لكن رؤيته الآن وفي هذا الموقف العصيب؛ نثرت بداخلها الأمل في النجاة من حصار جند القلعة،

والخروج منها بسلام. لكن قلقها لافتقاد عمرو أفسد عليها فرحها بلقاء صخر.

وقف الجندي بجوارها يحاول جاهدًا أن يتبين ذلك الشيء الذي اصطدما به واختلطت صورته بالظلام من حوله؛ فصار جزءًا منه، لكنه لم يمانع وهو يسمع أصوات الجند القادمين لتفتيش القبو من أن يختفي هو ورفيق هروبه خلف جدار الظلام البشري.

ونجحت الخدعة، ونجا الثلاثة من هتك سترهم، وبعد انصراف الحرس نجح صخر بما له من خبرة سابقة في الهروب من سجن القلعة في اقتيادهم إلى باب سري في جدار قبو قناني الخمر، خلفه سرداب طويل في آخره فتحة تؤدي إلى قنوات صرف الماء تحت شوارع البلدة. ومع خيوط الفجر الأولى وهي تشق ظلام الليل، أخرجتهما قناة الصرف إلى فتحة في أحد الطرق الرئيسية، تسلقاها إلى سطح الأرض. وفي طرقات البلدة أخذت عائشة تتضرع إلى الله أن تجد عمرو قد سبقها إلى دكان فاتيما.

***

كان ذلك هو ما يشغل بال عمرو في تلك اللحظة، أين عائشة! تمنى أن تكون استطاعت الهرب أثناء إلهائه الحرس عنها كما كان يدبر، أن يحدث فوضى عارمة ويجذب أكبر عدد من الحرس؛ لتتسلل هي إلى طريق الهروب دون أن يروها. وحَدَاهُ أملٌ كبير في أن يجدها في دكان فاتيما.

أخرجه أبوه من الغوص في أفكاره، وهو يجد السير خلفه في شوارع البلدة الخالية الهادئة، وهمس له بحزم صارم: عليك أن ترحل من الحصن أنت وصديقك.

ابتلع عمرو ريقَه من الرهبة، وكتم عنه– إلى حين– أن من معه هي عائشة متخفية في زي الفارس الأسود وتركه يعتقد ما يشاء اتّقاءً لردة فعله التي لا يدري إلى أي مدى يمكن أن تصل.

وبدل الحديث إلى جهة أخرى حتى لا يضطر أن يجيب عن أسئلة أبيه إذا ما فكر أن يستنطقه: علينا أن نبدل ملابسنا، فمظهرنا في الملابس السوداء سيثير الريبة إذا ما لمحنا أحدهم. لا شك أن الكونت سيتتبع كلَّ من يشك في علاقته بما حدث ليلًا.

لم تنطلِ خدعتُه على أبيه الذي كرر بلهجة تهديد، وهو يصِرّ بأسنانه: سمعت ما قلته! سترحل أنت ومن معك، ولن أسمح بأي اعتراض.

دخل الأمير أحد الأحياء الفقيرة، وخلفه عمرو، وأخذ يعبر الطرقات الضيقة، ويجتاز الأزقة حتى وصل إلى بيت يبدو عليه الفقر والإهمال. أخذ يطرق بابه بطرقات منتظمة خافتة، وكأنها رسالة أو علامة. فتح الباب، فمرق إلى الداخل كَسَهْمٍ سريع، وخلفه عمرو الذي أخذ يتأمل ذلك الرجل الفقير الأعرج رقيق الحال، الذي فتح لهما الباب، وأغلقه فور دخولهما. امتلأت نفسه بالدهشة عندما انكبّ الأعرج على يد الأمير يقبلها ويبكي، حتى احتضنه الأمير بقوة وأخذ

يربت على ظهره كما لو كان صديقًا عزيزًا، وبقي عمرو على صمته واحتفظ بالعجب والدهشة لنفسه، فكل ما يشغله الآن هو كيف يصل إلى دكان فاتيما، وأين عائشة؟

❋❋❋

بمجرد أن ولجت عائشة ومعها الجندي من باب دكان فاتيما التي أغلقته جيدًا خلفهما؛ حتى صاحت من المفاجأة وهي تشير إلى الجندي: من هذا؟ هل نجحتما في تحرير الأسير؟

قالت عائشة بصوتها المصطنع: ليس بعد، اطمئني إنه إلى جانبنا، ثم التفتت إلى الجندي باهتمام: ما الذي كنت تحدثني به في قبو القلعة؟ أي حصار تعني؟

قال باختصار متجاهلًا إخبارها بالكيفية: الخيانة تضرب بعفنها بين طبقة الأمراء إلا من رحم ربي، كان الشيخ عقبة في طريقهم، فتواطئوا على التخلص منه، وبعثوا برأس الخيانة ليؤز فرسان القلعة وجند قشتالة على التعجيل بحصار غرناطة لكسر أهلها وطردهم من أرضهم كما فعلوا بإشبيلية.

مادت الأرض بها، وصورة أبيها ملوثًا بتهمة الخيانة تتشكّلُ في خيالها، واشتعلت دماؤها بالغضب، وألجمت الصدمة لسانها للحظات لم تطل حتى قذفت بسهام لسانها الحادة في وجهه، مع حرصها الشديد أن يتلفح صوتها بعباءة الخشونة: من أين تخرج لنا! لا أفهم؟ كلما سرنا بطريق تعترضه!

فوجئ الجندي بهجوم غاضب لم يفهم سببه، لكنه قابل الهجوم بمثله والغضب بأكبر منه: بل أنت وصديقك تتعمدان إفساد كل شيء، وكلما فتحت بابًا تسدَّانه.

أيقظتهما فاتيما من ثورة الغضب: اخفضا صوتيكما، أين تظنان نفسيكما؟ على شاطئ البحر!

أجبرتها كلمات فاتيما على سجن غضبها العارم، وتكبيله بقوة كي لا تصرخ بوجهه، وبصوت كالفحيح قالت: تجاوز الأمرُ رغبتَك الساذجة بالثأر، فنحن أمام نازلة غفلنا عنها، وطامّة لم نستعد لها ستعم البلاد. غرقنا في بحر لجي من الخيانة.

تدخلت فاتيما بقلق: انبلج الصبح، وسرعان ما سينزل الناس إلى السوق، وجودكما هنا خطر داهم علينا، يجب أن أصحبكما لمكان آمن، أنتما ومن معكما.

***

لم يصدق عمرو الذي يسير في الطريق مرتديًا زي الصيادين أن ذلك الشيخ الزاهد الذي يسير بجواره هو نفسه أبوه الأمير ذو المظهر الحسن والملابس الأنيقة، فقد تبدلت ملامحه ومظهره إلى حد بعيد بعد أن ساعدهما ذلك الرجل الأعرج، وأعطاهما ملابس كان يخفيها في صندوق داخل بيته.

فعل عمرو المستحيل ليتملص من حصار أبيه له؛ ليسبقه إلى دكان فاتيما ويحذر عائشة، لكنه فشل واضطر للاستسلام. وبعد أن صلَّيا

الفجر، اتجها إلى دكان فاتيما، ولحقا بعائشة والجندي قبل أن يغادرا إلى المكان الآمن.

وقفت عائشة في لثامها الأسود تتأمل والدها في ثياب العابد الزاهد، واعتصمت بالصمت المطبق، فقد أدركت أن صوتها سيفضحها عند أبيها لا محالة.

كانت أوامر الأمير صارمة حازمة، وهو يوجه حديثه لعمرو وصديقه، ويأمرهما بالرجوع الفوري إلى غرناطة؛ فالأمر لا يحتمل أية مفاجأة غير محسوبة.

حاول عمرو الاعتراض، لكنهم سمعوا أصوات هرج ومرج في الخارج؛ فتفشَّى بينهم القلق الشديد. وجرت فاتيما تنظر من فرجة في الباب، ثم قالت لهم مذعورة: الجنود ينتشرون في الحي، لاشك أن هناك من أبلغ الكونت بمكانكم.

هتف زاك: أو أن حارس القلعة ربط بين تواجدنا في المكان ليلًا وبين المتسللين، إذًا فهم يبحثون عنك.

فاتيما: هيا بسرعة، لا مخبأ لنا سوى القبو.

أزاحت بضعة صناديق من أحد الأركان، وأزاحت جزءًا من الأرض؛ فظهر تحته سلالم تنزل لأسفل. قادتهم فاتيما فنزلوا واحدًا خلف الآخر.

وكان آخرهم عمرو الذي كان خلف أبيه مباشرة، وبمجرد أن نزل الأمير حتى فاجأهم عمرو بفعل لم يتوقعه أي منهم؛ فقد أغلق فتحة القبو خلف أبيه، وأعاد الصناديق كما كانت فوق الفتحة تمامًا.

وفي تلك اللحظة، اقتحم الجنود الدكان، وفتشوا كل ركن فيها، وقَلَبوا الصناديق والبضائع أرضًا، وداسوا كل شيء في طريقهم. وعندما لم يجدوا أحدًا سوى عمرو؛ أمسكوا به واقتادوه إلى القلعة.

***

أدرك الأمير ما فعله ابنه، فعاد أدراجه مسرعًا إلى فتحة القبو، وأخذ يدفعها بكتفه وذراعيه مستخدمًا كل قوته، وانضم إليه الجندي عندما أدرك ما حدث. لكنهما توقفا عندما سمعا صوت اقتحام الجنود للدكان وتحطيم المكان، ثم صوت الجنود وهم يمسكون بعمرو. اندفعت عائشة نحو سلالم القبو لتقوم بفعل ما، لكن فاتيما أمسكت بها بقوة، وكتمت صوتها بكفّها.

وتجمد الأمير في مكانه، وكأنما شُلّت أركانه، لا يدري كيف يتصرف، فإن حاول إنقاذ ابنه فسيفتضح مخبأ الباقين، وتتضاعف الكارثة، ولن ينجو أحد.

كانت لديه مهمة خطيرة عليه إنجازها مهما كانت الظروف والتضحيات، وأدرك الجندي أيضًا حجم الخطر الذي يتهددهم إن حاول إنقاذ الفتى الشجاع، فلن يتسنى له أية فرص للتحذير من خطر الحصار القادم وخيانة الأمراء، فابتلع غيظه وصمت صاغرًا.

عاد الهدوء للمكان، فانتظروا قليلًا ثم خرجوا من القبو يحلق الوجوم فوق رؤوسهم، وكان أثر الصدمة شديدًا على الجميع، وبخاصة عائشة التي أدارت وجهها للجدار، وأفلتت دموع الحسرة والألم.

كان الجندي هو أول من نطق، وجاءت كلماته تقطر غلًّا: علينا أن ننقذه.

رد الأمير: سنفعل، ولكن بعد أن نوقف ذلك الكونت المجنون.

التفتت إليه عائشة والغضب يملأ كيانها، ثم نزعت لثامها فجأة وكشفت وجهها.

كان وقع المفاجأة عنيفًا على الأمير، فلم يخطر له في أسوأ كوابيسه أن رفيق ابنه في تلك الرحلة الخطرة للقلعة، ومن حارب فرسان القلعة، وأشعل الحصن، واستفز وحشية الكونت، وأطلق شياطينه؛ كانت هي زهرة فؤاده وفلذة كبده، وأحب أبنائه إليه، وحيدتُه المدللة، قرة عينه وعين أمها!.

من بين ملامح جميلة تغطت بالحسرة وخيبة الأمل القاسي، تفجرت ينابيع الألم والحزن تقطر حممًا تجري على وجنتين توهجتا بلهيب نيران الغضب. لم يتحمل سهام نظراتها التي تلقي الاتهام على عاتقه، فأشاح بوجهه، وألقى صمت المفاجأة بعباءته السوداء على المكان، وكان أكثرهم صدمة هو ذلك الجندي الذي راح عقله يسترجع كل لحظة مرت به منذ أن التقى الفارس الأسود.. شجار، معارك، نزال، مواجهات. لم يستطع أن يمنع ذلك الغضب الحارق الذي اجتاح نفسه عندما أدرك أن خصمه في كل نزال كان فتاة.

كسر الأمير حاجز الصمت، وسيطر على أعصابه، وأمرها بحزم صارم: عودي إلى البيت الآن.

تفجرت سخريتها المريرة في وجهه سيلًا عارمًا: لِمَ!، ما الذي تنوي أن تبيعه لهم أكثر مما فعلت؟ كيف تفعل بنا هذا؟ هل تطمع في مقعد في مجلس الكورتيس! أم بمنصب أمير النخاسين؟

أسكتته الصدمة من كلماتها، وجمدت أطرافه، وتمهل عقله مفكرًا للحظات.

اقتحم الجندي الطوق الملتهب قائلًا: مهلًا، مهلًا أنتَ.. أقصد أنتِ..

صمت لحظة ليرتب كلماته: الأمر ليس على هذا النحو، أنت ترتكبين خطأ فادحًا، ليس هو من..

هتفت في وجهه بغضب: بم وعدك لتبدل رأيك، وتحنث بقسم الانتقام؟ بأرض في مروج غرناطة، أم بقصر الغابة الذي سبقك إليه قاتل الشيخ؟ أيها البائس، إنها منتنة، لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

اشتعل غضبه؛ فصرخ في وجهها: خانك الصواب، ليس صحيحًا أنّ..

أسكته الأمير بحزم: لا تتدخل بيني وبين ابنتي.

التفت إليها، وبأكبر قدر من الحزم والصرامة أمرها: عودي إلى البيت الآن.

هتفت بتحدٍّ: لن أعود قبل أن أخلص أخي من الأسر.

هتف الأمير: أنا سأعيده.

ألقته بسهم جارح: عجبًا، أمير الحصن الذي عجز عن الدفاع عن حصنه، سينجح في تحرير ولده من الأسر! هل تنجح السياسة فيما عجز عنه الجهاد؟

أصابه السهم في سويداء قلبه، وغشيه الألم من كلماتها، فلم يكن يتخيل أبدًا أن يسمع تلك الكلمات من أحد أبنائه، ناهيك عن أقربهم لقلبه والمحببة لديه.

انطلقت نحو الباب، فاعترض طريقها الجندي هاتفًا: أنت تخرجين على طاعة أبيك.

أجابته بتحدٍّ: علمني شيخي- يا تلميذ الشيخ- أن النوازل عندما تضرب بلاد الإسلام يصبح الجهاد فرض عين على الجميع، وللمرأة أن تخرج دون أن تستأذن أحدًا، ابتعد عن طريقي.

لم يتحرك، بل قال بإصرار: لقد أخذوا منا أسيرًا، ولن أسمح بأن يأسروا فتاة.

أشعلت كلمة فتاة النار في عروقها، فاستلت سيفها وهاجمته بغضب عارم، فصد ضرباتها بسيفه الذي استله أسرع منها.

كانت تطلق ضرباتها بعنف، وهي تصرخ في وجهه: عمرو ضاع بسبب تخاذلكما، ولن أترك غرناطة تضيع.

لن أقبل أبدًا بمصير بنات خوارزم اللاتي تركهن خلفه سبايا للتتار.



لن أجلس في البيت بلا حيلة في انتظار مصير كمصير آلاف الأبكار سيقوا سبايا للأعداء في كل أرض الأندلس التي تمزقت بين مملكتي أرجون وقشتالة. لن أقبع خلف الجدران كقطة خائفة حتى يلحق بي عار الرق؛ لأن حفنة من الأمراء تخلوا عن الجهاد وباعوا غرناطة، أفَضِّل أن أموت وسيفي في يدي على مصير كهذا.

كان الجندي يصد ضرباتها، ويحرص على ألا يوجه لها ضربة تؤذيها. تدافع سيفاهما، ووقف هو في طريقها كصخرة يابسة لا يتزحزح، ينظر وجهها المشتعل بالغضب، وهي تصرخ بغيظ: ابتعد عن طريقي.

كانت المرة الأولى التي يطيل فيها النظر في وجه فتاة. في السابق، كان يظن أنها رجل، الآن فقط يعرف أنها فتاة. شعر بشيء قوي لم يدري كنهه يهتز بداخله. وفي لحظة، غض طرفه عن عينيها، فاستغلت غفلته العارضة وارتخاء سيفه وضربته بقوة، ثم تجاوزته وانطلقت تجري خارجًا. همَّ أن يتبعها، لكن فاتيما أوقفته بحزم: دعها، أوقن أنها ستعود إليّ؛ لأساعدها على دخول القلعة.

تطلع الجندي إلى الأمير الذي لازال يوليهما ظهره، وحار في انتقاء إجابة مناسبة على سؤاله (لماذا تركها ترحل؟)

وبعد قليل من التفكير أجاب: غافلتني وهربت.

قال الأمير بأسى: بارعة هي في ذلك.

سأله مغتاظًا: لم لم تخبرها الحقيقة!

أجاب بعد فترة صمت: أردتها أن تيأس، وتعود إلى البيت.

ردت فاتيما بكلمات واعية: لن يستطيع أحد أن يعيدها إلى البيت.

تطلعت إليها الأعين، فأجابت عن سؤال لم يُسأل: لأن السيف الذي تحيا في ظله.. انكســــر.

***

جلب الحرس عمرو إلى حجرة التعذيب التي بها بهلول كما أمرت الأميرة خوانا، ورغم أن الكونت لم يفهم غرضها من هذا الأمر لكنه تركها تفعل ما تريد.

كان بهلول معلقًا من رسغيه إلى الجدار، وقد سقط رأسه على صدره، والألم يكاد يهلكه. وفي الجدار المقابل، كان عمرو مقيدًا بنفس الصورة.

نظر الكونت في عيني عمرو الذي شد قامته رافعًا رأسه بعزة، ونظراته تمتلئ بالتحدي والشجاعة. انتاب الكونت شعور قوي بأنه رأى ذلك الفتى من قبل، لكنه لم يستطع أن يتذكر أين، بادره الكونت قائلًا ببرود: تعجبني شجاعتك، وأدرك تمامًا أنك لست وحيدًا، وأنك فضلت أن تضحي بنفسك من أجل حماية من معك، لكنك مع الأسف غافل عما ينتظرك. فتًى في مثل عمرك كم من الوقت سيتحمل إذا ما تعرض جسده لتلك الآلات الرهيبة؟

قال عمرو بتحدٍّ: لن تستطيع إخافتي.

سمع صوت خطوات زوجته خوانا تهبط درجات السلم الواصل إلى الغرفة، وبمجرد أن بدت لهم حتى قالت بحزم: ألم يعترف بعد؟

غمره شعور بالضيق والاشمئزاز لم يبده لأحد، واحتفظ بقناع البرود على وجهه، وهو يهز رأسه نفيًا.

أشاحت بأنفها لأعلى بكبرياء، وقالت بتعالٍ: وفيم الانتظار!؟

أشارت للجلاد أن يبدأ عمله، ففك قيد عمرو وألقاه على طاولة التعذيب وقيده إليها وبدأ في ممارسة أبشع الطرق لاستنطاقه

حاول عمرو جاهدا أن يكتم صرخات الألم، لكنها غلبته، وانطلق صراخه المؤلم يرجُّ المكان.

قال الكونت: سآمره بالتوقف بمجرد أن تخبرني بمكان شركائك، إن اعترفت فسأنقلك إلى جناح فاخر في القلعة، وفراش وثير، وأعاملك معاملة الأمراء.

بصق عمرو في وجهه، فانتفض من المفاجئة، ثم صرخ في الجلاد: صبَّ عليه الزيت المغلي.

كانت خوانا تتأمل بهلول الذي انتفض مستيقظًا على صوت صراخ عمرو، وبمجرد أن تبين له ما يحدث حتى بدأت عيناه تذرفان الدموع، وجسده يرتجف.

أشارت خوانا للجلاد بأن يبعد الزيت المغلي، ويستمر في عمله مع عمرو الذي عاد للصراخ المؤلم، ثم اقتربت من بهلول وأخذت تتحدث إليه: انظر، تأمل ما فعلته بمن جاء لينقذك!

كاد الكونت أن ينفجر في وجهها، لكنه تمهل قليلًا، وأخذ يراقب ما تفعل.

أكملت فحيحها في أذن بهلول: لقد أوصلته بعنادك لعذاب لا قبل له به. هذا الفتى قاتل بالأمس قتال الشجعان، وقتل الكثير من حرس القلعة؛ ليصل إلى السجن وينقذك، ولكنه هنا الآن، يتعذب ويتألم؛ لأنك ترفض أن تشاركنا سرك أو تتعاون معنا.

أدرك الكونت ما تفعله خوانا، وعرف أنها أصابت "بهلول" في مقتل عندما رأى الدمع الغزير ينهمر من عينيه، وأنين الألم يعلو ويشتد، وفهم أخيرًا سبب جلستها المطولة بالأمس مع يعقوب الإشبيلي؛ فقد وصلت إلى نقطة ضعفه.

واستمرت هي في كسر عزيمة بهلول: كلمة واحدة منك تنجي هذا الشاب من عذابه. ترى، هل يذكرك بشخص ما كنت سببًا في تعذيبه حتى الموت؟

أدرك ريموند اقترابَه من هدفه؛ عندما رأى "بهلول" يكافح الألم رغم إصراره على الصمت.

استمرت خوانا في العزف على وتر الألم عند بهلول: إذا استمر صمتك فلا تلومن إلا نفسك عندما يمزق جسد الفتى أمام عينيك الآن.

أمرت الجلاد بتجهيز المنشار، وعندما بدأ الجلاد برفع عمرو وربطة تمهيدًا لنشر جسده، وأظهر عمرو شجاعة فائقة، وهو ينظر لهم بثبات ويتمتم بالشهادتين.

لكن صرخة مدوية ضجت في المكان: لااااا، لا تفعل.

كانت صرخة بهلول الذي صاح بصوت باكٍ: أتوسل إليك لا تقتله.

ابتسمت خوانا ابتسامة انتصار، ولاحت في عيني ريموند نظرة ظفر: ستفعل ما آمرك به؟

ناح قائلًا: سأفعل أي شيء، شرط ألا تقتله.

أمر الجلاد أن يحل وثاقهما، ويستدعي الطبيب ليداوي جراحاتهما، ثم تمتم: كان محقًّا ذلك الإشبيلي الحقير.

***

نجحت فاتيما في الوصول بالأمير والجندي إلى بيت الأعرج بسلام دون أن يشك أحد بأمرهما، واتخذا من بيت الأعرج ملاذًا مؤقتًا لهما. وبمجرد أن أفسح لهم المكان، وأجلسهم في مجلسه، حتى قال الأمير بعجل: أحتاجك في مهمة عاجلة.

قال بفرح: مولاي الأمير يأمر وأنا أطيع، ولكن أولًا لابد أن أقرئ الضيفان.

قالت فاتيما بحماس: دع هذا الأمر لي، واستمع للأمير.

سأله الأمير باهتمام: قبل أي شيء هل تعرف شخصًا اشتهر هنا بالغناء يدعى خوليو؟

احتقن وجه الأعرج، وتغيرت ملامحه ولم يرد، لكن فاتيما ردت بحماس: خوليو! مرحى، لكم كنت أستشعر في هذا الشاب الكثير من

النبل والحنان، هل ستسند إليه مهمة ما؟ ولكن اعلم أنه لا يتقاضى أجرًا أقل من ثلاث قناني من الخمر الجيد.

قال بجمود: قوديني إليه؟

قالت: بالتأكيد، ولكن عليكما أولًا أن تبدّلا هيئتكما حتى نستطيع أن نعبر الجدار.

بدَّلا ملابسهما بملابس تجار من مملكة قشتالة، ونقدت فاتيما حارس البوابة مبلغًا كبيرًا؛ ليتركهما يعبران الجدار الذي يفصل حي القشتاليين عن حي المدجنين. وعندما سألها الجندي عن سبب وجود هذا الجدار أجابت ساخرة: ليفصل بين الأسياد والعبيد. لقد بناه الكونت حتى يشعر شعبه بالأمان من مساوئ اختلاطهم بالمدجنين؛ لهذا ستجد كل شيء خلف الجدار راقٍ ومنظمًا ونظيفًا ومعتنًى به، عكس أحياء المدجنين مهملة وقديمة، ولا أحد يعتني بها.

عندما توقفت فاتيما أمام باب حانة كبيرة، ارتد الجندي خطوتين للخلف بفزع: لا تقولي أننا سنلج وكر الشياطين.

جرَّته من عباءته قائلة: بل سندخل أيها التقي، إن كنت تريد أن تلقى خوليو.

نظر الجندي إلى الأمير؛ ليرى ماذا سيفعل، فوجده يمر من الباب دون كلمة فتبعه مضطرًّا، وهو يفكر ما الذي يفعله الأمير في هذا المكان؟ وما الذي يريده من مغني في الحانة؟

كانت فاتيما تحمل سلة فاكهة تبيع منها للزبائن، وتتظاهر أنها لا تعرفهما، لكنها كانت تؤمِّن تواجدهما بمراقبة المكان ورواده، وتستعد لتأمين طريقهما للهرب في حالة إذا ما انكشف أمرهما.

كانت تتحمل إساءات روّاد الحانة بصبر، وتتخلص من سماجتهم بذكاء، وطلب الأمير من الساقي شرابًا له ولرفيقه بلهجة متقنة من لهجات أهل مملكة قشتالة، والجندي صامت يكتم غيظه ودهشته مما يحدث، فهو يعلم جيدًا أن أي تصرف خاطئ سيستعدي عليهم الحانة بمن فيها، وسيكشف أمرهما لفرسان القلعة.

ظلت الكئوس قابعة على الطاولة لا تمتد لها يد، والأمير ساكن متجهم كتمثال حجري، حتى صدح في المكان صوت قيثارة حالمة تملأ الأجواء بلحن شجي، ومعها صوت غناء ساحر ينساب بعذوبة. التفت الجميع لذلك الشاب الوسيم الذي يعزف على القيثارة، وصوته الساحر يتسلل إلى القلوب، ويسكت الألسنة، ويشنف الآذان. نظر الجندي إلى الأمير فوجد وجهه جامدًا كالصخر، يزداد تجهمًا كلما مر الوقت، حتى أظلم وجهه عندما انتهى المغني من أغنيته، وقام يرقص رقصة أندلسية شهيرة، ويتمايل على الألحان، وتحمس رواد الحانة؛ فأخذوا يصفقون له، ويحيُّونه بعبارات الإعجاب.

وسط كل هذا الهرج، هب الأمير قائمًا، وضرب كئوس الشراب بقبضته، ثم ألقى ببعض المال على الطاولة تكفى وتزيد عن ثمن الشراب، وانصرف من فوره.

تبعه الجندي، والدهشة تملأ نفسه، والفضول يغمره، وتضاعفت دهشته عندما وجد الأمير قد توقف في الزقاق الخلفي المظلم القابع خلف الحانة، وظل واقفًا لوقت طويل بصمت، وكأنما ينتظر حدثًا ما أو شخصًا ما، وكلما سأله الجندي عن شيء تلقى الصمت جوابًا يسكته، حتى كاد أن يخرج عن طوره، ويثور على الأمير. لكنه فوجئ بالباب الخلفي للحانة يُفتح بقوة، ويندفع منه المغني يترنح من السكر، ثم انحنى بجوار الجدار يتقيأ، وعندما انتهى التفت خلفه ليفاجأ بذلك الجسد الضخم الذي يلبس ملابس تاجر قشتالي ينقض على رقبته، ويكيل له اللكمات العنيفة، وكلما سقط رفعه من ملابسه حتى تمزقت.

همَّ الجندي أن يتدخل؛ ليوقف ثورة الأمير العاتية التي لا يدري لها سببًا، لكنه تجمد مصدومًا عندما سمع همسة تصدر من المغني: أبي!

***

كان يعقوب متكئًا باسترخاء على وسائد مخملية في ركن القاعة يرشف الخمر باستمتاع، فقد انزاح عن كاهله الشعور بالخطر، وضمن الحياة بعد أن كان السيف مسلطًا على رقبته، وعيَّنه الكونت مراقبًا على بهلول حتى لا يقوم بأي خدعة يفسد بها الاختراع.

كان بهلول يعمل بلا حماس، ضائقًا بكل شيء، يزفر زفرات حارة من وقت لآخر، وكأنما ينفث نيران غضبه حتى لا تلتهم روحه.

كان عمرو يراقبه، ويراقب يعقوب، وعندما اطمأن أن يعقوب منشغل بالخمر التي بدأت تلعب برأسه؛ أمسك ببعض القطع المعدنية وناولها "بهلول"، وكأنما يساعده في عمله، همس له: هل تنوي حقًّا أن تكمل للنهاية، وتعطيهم ما يريدونه؟

تجمد للحظة ثم استمر فيما يفعل، وهو يهمس دون أن ينظر إليه: ألديك اقتراح آخر؟!

همس وعينه ترقب يعقوب: علينا أن نفسد عليهم الأمر، لا يمكن أن نسمح لهم بحصار غرناطة وتدميرها.

قال بلهجة يائسة: لا جدوى من المقاومة، سأنهي الأمر، وأرحل بعيدًا إلى مكان ليس به بشر.

- يا مسكين! أتعتقد أنهم سيتركونك! أنت واهم، سيقتلك الكونت حتى لا تفشي سر الاختراع لغيره.

- إذًا فقد استرحت من لعنة الدنيا وجحيمها.

- لكنك ستحمل وزر كل طفل وامرأة ورجل وشيخ سيُقتل بسبب ما تقوم به.

- أنا مضطر، لا حيلة لي.

- العذاب والموت أشرف ألف مرة من المشاركة في وزر قتل المسلمين، كان عليك أن تعطي السلاح لبني جلدتك؛ ليدفعوا به الموت والخطر عن بلادهم.

- لو أعطيته للأمراء المسلمين لقاتلوا به بعضهم البعض، وربما سلموه بأيديهم إلى أعدائهم.

نظر إليه بدهشة كبيرة؛ فأكمل بسخرية مريرة: لازلت فتًى حديث السن على استيعاب قصص الغدر والخيانة، وموالاة الكافرين. من باعني ووشى بسر اختراعي للأعداء هو أمير مسلم، احتميت به من غدر ذلك اليهودي الذي يتجرع الخمر كالخنزير.

شق هدوء القاعة صوت تجشؤ مقززٍ، جعل عمرو يشعر بالغثيان، وهز بهلول رأسه أسفًا: ذاك الخنزير المتجشئ الذي تأنف منه النجاسة، كان يأكل من طعامي، ويسكن في بيتي، ويعمل معي؛ فقط ليسرق سر اختراعي. أما الأمير المسلم الذي ظننته سيحميني، ويتقي الله في، هو الذي أشرف على تعذيبي وإبادة أسرتي بأمر من ملك قشتالة.

سأله عمرو بدهشة: ولماذا لم يحملوك إلى قشتالة، ويأخذوا منك ما يريدونه؟

قال هازئًا: ولماذا يشقون على أنفسهم، وكلابهم هنا يفعلون لهم كل ما يريدونه، وبلا مقابل! فقط لينال الرضا من أعداء بلاده ويكيد لأبناء دينه!

زفر عمرو بيأس: يا إلهي، إلى أي مدى تمتد هذه الخيانة!

أجاب والدمع يملأ عينيه: بقدر ما تحملك قدماك، ويصل مد بصرك. كلما نجوت من عدو ستجد خائنًا مستترًا يتربص بك،

الكل سيبيعك ليقبض ثمنك.

نهض يعقوب من مكانه، وهو يصيح بصوت منكر: هاي.. فيم تتهامسان؟ لا نجاة لكما ولا مهرب. أنا هنا لأفسد عليكما أية خطة للخداع.

تقدم من بهلول وهو يترنح: أخبرتك من قبل أيها الغبي، كان عليك أن تخبرني بسر التركيبة التي توصلت إليها، ما كان ساء بك الحال إلى هذه الدرجة، وما كان سيبحث عنك أحد، أو حتى يتذكرك، لكن عنادك الغبي أبى إلا أن يقتل أسرتك، ويوقعك في براثن الكونت.

فُتح باب القاعة، ودخل ريموند يسبقه صلفه وغروره، ويتبعه خدمه، وأخذ يتفحص بهلول وعمله، ثم سأل: كيف حال العمل؟

اندفع يعقوب يجيب بحماس: على ما يرام، وسرعان ما سينتهي من التركيبة، لقد قمت بنصف العمل قبل أن يأتي.

رماه الكونت بنظرة احتقار، ثم التفت إلى بهلول الذي أولاه ظهره منهمكًا في عمله: عملك رائع ومتقن، لا أفهم كيف لعبقري مثلك أن يرفض الطعام الشهي والملابس الفاخرة التي أمرت بها لك! ولماذا تصر على البقاء في ملابس الشحاذين تلك!

رماه بهلول بشذرات من نظراته الناقمة، ثم استمر في عمله دون أن يرد.

تجاهله الكونت، وسأل عمرو: ألازلت على عنادك! ألن تخبرني بالمتسللين ومكانهم؟

أشاح عمرو بوجهه، ولم يتكلف عناء الرد.

قال الكونت ببرود: حسنًا، لن أقسو عليك، فأنت عندي أغلى من أن تفقد حياتك لذلك السبب التافه، يكفيني أن تكون الأداة التي أذابت عناد ذلك الرجل وجعلته يفصح عن سره. أما شركائك، فأنا قادر على الوصول إليهم، وسحقهم.

التفت إلى خادمه، وقال: أبلغ الأمير فرج أن يستعد للعودة إلى غرناطة، ويبلغ الأمراء بأن يستعدوا.

التفت إلى بهلول وعمرو، اللذين تركا ما بأيديهما، وحدجاه بنظرات الكراهية الممزوجة بالصدمة.

ارتسمت على وجهه ابتسامة صلف مقيتة، وأكمل وكأنه يستفز غضبهم: اقتربت المعركة من نهايتها.

❋❋❋

(9)

لا يكاد يصدق أو يستوعب كم المفاجآت العجيبة التي داهمته منذ صاحب ذلك الرجل في الطريق، وكانت الأخيرة هي أغربهم على الإطلاق.

لازالت الكلمة تدوي في أذنه، وتتردد بلا توقف معها صورة الصليب المدلى من عنقه، وهو يتأرجح أمام ناظريه، والدماء تسيل من أنفه وفمه..

أبي!.. قالها بوضوح لا تخطئه أذن، تلك الكلمة التي همس بها المغني، وأحالتها ثورة الغضب العاتي التي غشيت الأمير إلى حقيقة لا ريب فيها.

إنه ابنه.. ولكن كيف!

كان السؤال يشغل جزءًا كبيرًا من عقله، وهو يجلس مع الأمير وثالثهما الأعرج الذي تأمل بأسى وجه الأمير الذي غشيه الهم والغم والغضب: لقد أخطأت، ما كان على أن أدعك تذهب إليه.

قال بصوت كسير: ما كان هذا ليغير من الأمر شيئًا، أعلم أين يعيش وكيف هي حياته.

قال بألم: في البداية، كان قلبه يميل إلى أحياء المدجنين، ويجتاز الجدار كل فترة ليغني في خاناتنا وحاناتنا، لكن لم يعد يفعل ذلك إلا

نادرًا. أظن أنه عجز عن تحمل تلك الذكريات المؤلمة التي تستثيرها فيه الوجوه المسلمة والأحاديث العربية؛ ففضَّل أن يتجنب الألم بنسيان ماضيه، والانغماس في الخمر.

أطلق الأمير زفرة ألم حارة، ثم جدف في اتجاه بعيد عن الألم: علينا أن نحرر "بهلول" قبل أن ينتهي من اختراعه، ويمنح الكونت ما يريده، وإلا فستسقط غرناطة في أيديهم في يوم واحد، وتصبح نسيًا منسيًّا.

سأل الجندي: وما هي حقيقة ذلك البهلول! وكيف عرفت بسره!؟

قال بحزم أحمد فضول الجندي: لم يعد هذا السؤال بذي قيمة الآن، علينا أن نتحرك بسرعة؛ فنحن أمام كارثة ستحل قريبًا جدًّا على غرناطة.

قال الأعرج بقلق: إنهم ينكلون بالمدجنين، ويضيقون الخناق حولكم.

الأمير: ماذا حدث؟

الأعرج: شعرت الصباح بأفعال غريبة في البلدة، وتحركات مريبة من جنود القلعة، وعندما تجولت في البلدة وجدتهم قد نصبوا أعواد الجلد في كل الساحات، وأخذوا يجلدون من كل بيت شابًّا أمام أهله؛ لانتزاع أية أخبار تدل على مكانكم.

الجندي بغلٍّ: يريدون أن يصلوا إلينا، وإن كان على جثث أهل البلدة.

الأمير: إن كل ما يبتغيه ذلك المجنون هو تحقيق نصر عسكري ساحق، وإن أحرق الأرض بمن عليها. يخمد كل مقاومة بالحديد والنار حتى ينتهي بهلول من سلاحه؛ ليحاصر به غرناطة.

الجندي بفهم: الكارثة لن تتوقف عند حدود غرناطة.

انتبها إليه فقال بقلق: مجرد وجود سلاح جديد فتَّاك بيد الأعداء يحقق اختلالًا في موازين القوى، ويمنحهم تفوقًا عسكريًّا لا محدود، ووسيلة جبارة لإبادة ديار الإسلام كلها من المغرب إلى المشرق.

أسكتتهما الصدمة من فداحة ما نطق به، حتى نطق الأعرج أخيرًا: المشرق الإسلامي؟! إنه يرزح الآن تحت وطأة اكتساح جحافل التتار. لولا أن أَخَّرهم مظفرُ مصر في عين جالوت؛ لكانوا وصلوا إلينا على جثث مسلمي المشرق وإفريقية أجمعين. ولازال سلطان مصر والشام الظاهر بيبرس في معارك ضارية معهم.

الأمير: كلٌّ له ساحته التي يقاتل فيها، وثغره الموكل بحمايته، ولو لم نوقف هذا الكونت المجنون لوجدنا أنفسنا أمام تحالف تتري صليبي يبيد العالم الإسلامي.

الأعرج: الأمر مستحيل، فهم أكبر منّا عددًا وعدة بأضعاف مضاعفة!. لم لا نلجأ لأمير غرناطة؟ وبالتأكيد سيصدقك سيدي الأمير.

الجندي بمرارة: بعد كل تلك المعاهدات التي كبّل نفسه بها لن يتحرك، وربما رفع شكوى إلى مجلس الكورتيس، أو إلى ملك قشتالة، وعندها نكون قد سلمنا السلاح بأيدينا إلى الأعداء.

نظر الأمير إلى الأعرج: عهدتك- دومًا- شجاعًا مقدامًا، مقبلًا غير مدبر.

رد الأعرج بلهجة عسكرية حازمة، وقد أحزنه أن يظن به الأمير الجبن والتخاذل: أنا على العهد مولاي الأمير، امض وسترى مني ما يرضي الله ورسوله، وما يسرك.

قال بحزم: أريد أن ألتقي سعدًا الآن.

قطع الحديث طرقات سريعة على الباب، عرف فيها الأعرج يد فاتيما، فتح لها فاندفعت إلى الداخل هاتفة بالأمير: مولاي، ابنتك انطلقت إلى القلعة.

اشتعل الجو بالتوتر، وتلونت وجوه الجميع بالقلق.

ظل الأمير صامتًا حتى سأله الأعرج: مولاي، هل نلحق بها الآن؟

التفت إلى الأعرج قائلًا: سنجمع كلَّ من تبقى حيًّا من كتيبة المئذنة، على أن ألتقي سعدًا الآن.

هتف الأعرج: لكن الأمر بحاجة لتدبير محكم حتى لا ينكشف أيٌّ منكما.

قال بإصرار: لا وقت لدينا، أريد أن أراه الآن.

هتف الجندي بحدة: وماذا عن ابنتك! ألن تلحق بها؟

قال الأمير: نحن الآن في خضم معركة مصيرية قد تُنهي وجود الغرب الإسلامي كله، وعليَّ أن أجمع رجالي وأتصدى لهذا المجنون.

هتف بدهشة: أي الآباء أنت! كيف تترك أبناءك هكذا في يد الأعداء! ابن أسير وابن تنصّر، وفتاة مدللة متهورة، تلقي بنفسها إلى التهلكة! ولا تنوي حتى اللحاق بها!

هتف في وجهه: فتى حديث السن مثلك لن يعلمني واجباتي، عليَّ أن أنقذ غرناطة مهما كان الثمن.

قال هازئًا: عجبًا، رجل لا يستطيع إنقاذ ابنته، فكيف له أن ينقذ بلاده!

***

كان السؤال الذي لم يحصل على إجابته الجندي هو نفسه الذي كان يدور في عقل عمرو، وباح به لبهلول، وعينه تطوف حول ذلك اليهودي السكير الذي يراقبهما، وباب القاعة؛ كي لا يفاجئهما أحد.

من أنت؟ ولماذا يسعى الأمير للتضحية بحياته لإنقاذك؟ وكيف يعرف بسرك؟

وعندما تردد بهلول قليلًا في الرد، استحثه عمرو قائلًا: يجب أن أعرف الحقيقة، سهام الشبهات تتجه نحو أبي وعليّ أن أبرِّئه على الأقل أمام نفسي وإخوتي.

استجاب بهلول سريعًا، وبدأ يحكي: كانت تلك هي اللحظة الأولى التي أرى فيها الشمس منذ سنوات نسيت عددها، لكن فرحتي برؤية النور لم تدم، فقد أدركت أن أبواب سجون إشبيلية فتحت؛

ليتحرر مسجونوها من ظلام غرف التعذيب إلى ظلام الضياع والتشرد في البلاد. خرجت من سجن إلى سجن أكبر وأكثر وحشية، وانخلعت من نكبتي إلى نكبة أمة بأسرها.

أربعمائة ألف ونيف طُردوا من ديارهم، وشردوا في القرى والبلاد والقفار. مات منهم من مات في الحصار، ومات من مات في الطرقات، وهو يبحث له عن وطن.

وكان هذا اليهودي الحقير يبحث عني فيمن خرجوا من السجن ليبيعني ثانية إلى ملك قشتالة، أو لفرسان القلعة لينال عندهم حظوة، لكنه لم يعلم- هو ولا غيره- بأن الشيخ "أبو الحسن" سبق الجميع إلى إخراجي من السجن، وغادرت إشبيلية ذائبًا بين الناس متسترًا بعبائته- رحمه الله.

- وهل كان الشيخ يعرفك؟

- كان الشيخ يعرف قصتي التي اشتهرت بين علماء إشبيلية، وأدرك بعقله الواعي أن الأعداء سيأخذونني من السجن ليحصلوا على سري، ولأن ما لدي كان يحمل خطرًا كبيرًا على المسلمين إن وقع بيد أعدائهم، فقد كان- رحمه الله- أحرص الناس على أن يسبق الجميع إلى مكاني، وفي طريق الرحلة انضم الأمير إلى ثلاثتنا.

- ثلاثتكم؟

- نعم، فقد كان الشيخ يكفل إشبيليًّا يتيمًا.

ونجح الأمير في إنقاذنا من القتل على يد رجال النخاس بعد أن قاتلهم قتالًا ضاريًا، واصطحبنا معه إلى غرناطة، وتولى حمايتنا، وحافظ على سري لسنوات طويلة.

- إذًا، فقد قتلوا الشيخ ليصلوا إليك!

- أو أن مقتل الشيخ دلهم على مكاني.

زفر بضيق: لا يمكنني الجزم بشيء، فالأمور متشابكة بغرابة.

أسكتهما دخول الحرس إلى القاعة؛ لتقديم الطعام، واندفاع يعقوب إلى التهامه بشراهة.

***

في ظلام الليل الذي غشي بسواده أروقة قصر الكونت، تحرك ذلك الشبح الذي يبدو كهيئة رجل نحيف بثقة وهدوء في دهاليز القصر، حتى وصل إلى باب المكتبة. وقف أمامه لحظات يستطلع المكان، ويطمئن إلى أن لا أحد يتلصص عليه.

ولج إلى الداخل، وأغلق الباب خلفه بحرص تام على عدم إصدار أي صوت. اتجه إلى المكتبة الضخمة التي تملأ الجدار من الأرض إلى السقف، وانحنى على الأرض عند منتصفها، ثم أفرغ ذلك الجزء من الكتب، وأخذ يزيح بكلتا يديه الجدارَ من خلفه حتى أسفر عن فتحةٍ تتسع لمرور جسده. انسَلّ منها بهدوء إلى بداية سلم يهبط إلى سرداب مظلم.

تناول سراجًا معلقًا على الجدار يحفظ مكانه، وأشعله وتفحص المكان جيدًا بعينيه، وأخذ عقله يحسب عدد السنوات التي لم يطأ فيها بقدمه هذا السرداب، واشتعلت في قلبه ذكريات قديمة مبهجة ومحزنة، علا هديرها عند يوم المئذنة وهو يحمل على كتفه قائده مضرجًا بدمائه، ويهرب به من السرداب إلى خارج القلعة بعد أن استولى عليها الكونت، وقتل أغلب المدافعين عنها.

لم يفقد الأمل لحظة بأن الأمير سيعود يومًا ما لقلعته وحصنه، لهذا اختار البقاء في القلعة؛ ليمهد له طريق العودة عندما يحين الوقت، وعاش في قصر الكونت خادمًا أصم أبكم لا يثير ريبة أحد.

سمع صوت خطوات تأتي من آخر السرداب؛ فانتبهت حواسه كلها، وأخذ يراقب القادمين حتى وجد الأعرج أمامه ومعه الأمير.

وقف الرجل متجمدًا للحظات حتى أقبل عليه الأمير، وقال بود: كيف حالك يا سعد؟

اغرورقت عيناه بالدموع، ورفع السراج لأعلى ليتبين وجه الأمير، ثم انكب على يده يقبلها ويبكي، ضمه الأمير بشوق، وأخذ يربت على كتفه.

قال وصوته يختنق من البكاء: كنت أعلم أنك ستعود يا مولاي، وتحملت بمشقة أن أكون خادمًا للأعداء من أجل تلك اللحظة. فاضت مشاعر الأمير دمعًا يجري على خديه: لكم تمنيت أن أنال الشهادة، وأدفن هنا في القلعة. لكنك أبيْتَ إلا أن تخرجني منها سامحك الله.

قال بروح تقطر إخلاصًا ووفاء: أفديك بروحي يا مولاي الأمير، بطل مثلك يحيا ليرفع راية الإسلام، ومثلي ما هو إلا جندي في جيشك.

قال وهو يزيح الدمع عن وجهه: لا تدري من الأفضل عند الله، والأنفع للمسلمين، هو أعلم بمن اتقى. سعد، أحتاجك في مهمة خطيرة. صالح الإشبيلي، أتعرفه؟

- نعم أعرفه، وأعلم أن ريموند جلبه هنا في القلعة، ويشرف بنفسه على تعذيبه في الجب. ولكن لا أعرف ما الذي يريده منه.

- وأسر ابني أيضًا.

- عامر!

- عمرو.

- وما الذي يريده من فتى صغير؟!

- عمرو فَدَانا بنفسه؛ لكي لا يصل إلينا جنود ريموند.

- بطل كأبيه.

- يجب أن أصل إلى صالح، وأخرجه من هنا.

- وعمرو يا مولاي!

- ريموند على وشك الحصول على السلاح الذي اخترعه صالح، وعلينا إيقافه مهما كان الثمن، سأجمع من تبقى من فرسان كتيبة المئذنة، وأنت...

قطع حديثة عندما شعر بجدران السرداب ترتج بشدة وأصوات أقدام كثيرة فوقهم. وبدأ الحرس ينزلون من الفتحة التي نزل منها سعد الذي هتف بفزع، وهو يُخرج خنجرًا مخبأً في طيات ثيابه: ارحل يا مولاي، انج بحياتك؛ فسأحمي ظهرك.

أشهر الأمير سيفه، وقال بثبات: ليس مجددًا يا سعد.

وانخرطا في قتال الجنود، وصرخ الأمير في الأعرج: عدْ، واجمع الرجال، وحاول تحرير الأسرى.

فكَّرَ في مخالفة أمر الأمير، والانضمام لهما، لكن كل شيء حدث بعد ذلك بسرعة أكبر من قدرته على التحرك؛ فقد طُعن سعد طعنة نافذة، وبدتْ عليه بوادر احتضار، وهدم بقية الحرس جدار المكتبة، وانهمروا في السرداب كالسيل.

صرخ سعد في الأمير بصوت متقطع: اهرب مولاي.

لكن الحرس انقضوا على الأمير، وأسقطوا سيفه، وأسروه، وشلُّوا حركته، وحملوه لأعلى. تراجع الأعرج للخلف بسرعة، وارتد عائدًا إلى مخرج السرداب، وكاد الحرس أن يتبعوه، لكن سعد حال بينه وبينهم، وتناول السيف الذي سقط من الأمير ورفعه لأعلى، وضرب سقف السرداب في مكان يحفظه جيدًا؛ فانهار السقف على رؤوسهم جميعًا، وأغلق السرداب تمامًا.



عندما سألته فاتيما: كيف ستعيدها؟

قال: لا أدري، ولكني أعلم كيف سأجدها.

وانطلق بلا تردد يقطع الطريق الذي قطعه معها سلفًا للهروب من القلعة، لكن هذه المرة عكسيًّا للدخول إلى القلعة. وهو يلعن في كل لحظة النساء وجنون النساء وتهور النساء، تلك المخلوقات اللاتي يفسدن كل شيء إذا ما وضعن رؤوسهن برؤوس الرجال، وتدخلن في الأمور التي لا شأن لهن بها.

كانت هي قد سبقته ركضًا بمسافة كبيرة في قنوات صرف الماء، وبداخلها إصرار لا يلين على الوصول إلى أخيها، وبقدر صدمتها وألمها لأسْره بقدر ارتياحها أنّ كل ما ظنته في أبيها سابقًا كان خطأ.

اجتازت فتحة السرداب القابع تحت القلعة، والذي دلهما عليه صخر قبل أن يذوب مختفيًا في الظلام دون أن تعرف كيف جاء ولا كيف رحل، ولا أين هو الآن!

وصلت إلى آخر السرداب، واجتازت الفتحة السرية إلى قبو قناني الخمر. كانت تتسلل بهدوء وحذر خارج القبو، وسارت قليلًا في الممر، لكنها سمعت صوت أقدام الحرس، فارتدت عائدة إلى القبو، واختبأت خلف البراميل الخشبية حتى اختفت الأصوات من الممر.

عادت تتسلل من جديد في الممرات. كانت تبتهل إلى الله أن يظهر لها فجأة كما ظهر في المرة السابقةو ويرشدها إلى مكان السجن،

ويساعدها في تحرير أسيرها. لكن هيهات لصخر أن يتحرك بدون أمر مولاته!. وكان عليها الاعتماد على ذاكرتها، والوصف الذي حصلت عليه من فاتيما سابقًا؛ فاتجهت إلى الجانب الشمالي الشرقي للقلعة، لكنها فوجئت بأحد حراس الممرات يعترض طريقها؛ فضربته على الفور ضربة قاتلة، لكنه استصرخ الحرس قبل موته، وفوجئت بأنها صارت صيدًا مطاردًا لكل حرس القلعة؛ فأخذت تجري في الممرات بغير هدى، وكلما اعترض طريقها أحدٌ قتلته، حتى وجدت نفسها محاصرة في صحن القلعة المكشوف.

كانت خطتها تعتمد على التسلل دون أن يشعر بها الحرس، لكنها باءت بالفشل الذريع، عندما أدركت أنها في مرمى سهام حرس الأبراج، وأنها قد أحيط بها. اتجهت إلى أقرب سقف منها، وكان مربطًا للخيل، وبرغم خفة حركتها وسرعة عدوها؛ لكنها أدركت أنهم سرعان ما سيصلون إليها، وقررت أن تموت وسيفها في يدها كما وعدت أباها.

نظرت من فوق السور الخشبي لمربط الخيل؛ فوجدت عربة الأميرفرج الفاخرة تقطع الساحة في اتجاه بوابة الخروج، وحَدَاها أملٌ كبير أن تستطيع الركض لتصل إليها، واتخذت ذلك هدفًا، ولم تهتم لما بعده، وأعدت نفسها للانطلاق، واتجهت إلى مخرج المربط، لكنها فوجئت بحارس ضخم الجثة يقتحم المربط ويهاجمها بضراوة، فقاتلته بآخر ما لديها من قوة نجاة بنفسها من الأسر.

لكنه كان فارسًا متمرسًا شديد البأس، أطاح بسيفها فأدركت أنها نهايتها، وعندما رفع سيفه لينهال به على رأسها، نبتت في قلبها أمنية تحولت لدعاء أن يضرب عنقها بضربة واحدة صائبة؛ فتنال الشهادة، لكنه خرَّ أمامها ميتًا، والدماء تتفجر من رأسه، فكان أول من خطر على عقلها هو صخر، ذلك الخفي الذي كانت تتمنى أن تلتقيه، لكنها وجدت الجندي يقف في مدخل المربط متلثمًا في زي الفارس الأسود، وسيفه في يده.

تنفست الصعداء، وكأن أحدهم قد قذف إليها بحبل النجاة، تطلعت أعينهم إلى عربة الأمير التي مرت من أمام المربط؛ فاندفع الجندي إلى أحد الخيول، وقطع الحبل الذي يقيده بضربة من سيفه، ثم دفعه إليها: انطلقي خلف العربة، فسيفتحون لها باب الخروج الآن.

هتفت، وهي تتلفت حولها، وتراقب الحرس، وهم يحيطون بالمربط: وأنت!

هتف: سأعيق تقدمهم حتى تجتازي البوابة.

قالت بعناد: لن أترك أخي لأنجو بنفسي.

هتف بغضب: عودي لأبيك، وهو سيتصرف.

صرخت، وعينيها على الحرس وهم يسرعون نحو المربط-: لن أبرح، وأدعهم يقتلونك.

نزع لثامه، وجابهها بوجه أحمر قانٍ، وملامح تتفجر بالغضب وزأر في وجهها كليث غاضب: سيلتهم الدود رفاتي قبل أن ينقذني سيف

امرأة. وإن لم ترحلي اللحظة؛ فسألقي إليهم برأسك، وأعود بجثمانك إلى أبيك.

هبت غضبته الهادرة في وجهها؛ فأصابتها رعدة في أوصالها، وأطاعته صاغرة، وهي ترى الشر قادحًا في عينيه.

واقتحم الحرس المربط في نفس اللحظة التي امتطت فيها الحصان، وانطلقت خلف العربة المتجهة نحو باب الخروج من القلعة، ورأت الحرس من بعيد وهم يفتحون البوابة، وألقت بنظرة خلفها لتجد الجندي غادرَ المربط عدْوًا، وانخرط في قتال طاحن مع الحرس، وهو يجري ويقفز؛ ليشغلهم عنها في ساحة القلعة.

أدارت وجهها نحو البوابة، وهي تغالب دموعها. لكن فجأة صرخ الحرس: أغلقوا الباب.

ورأت الباب يغلق أمامها، والعربة تتوقف. وأُسقط في يدها، ولم تدر كيف تتصرف!، لكنها انطلقت بالفرس في محاذاة السور؛ لتهرب من الفرسان الذين يطاردونها. وفي أشد لحظات يأسها وقد أيقنت بأن الفرسان سيلحقون بها، وأن القلعة أصبحت مصيدة كبيرة لن تنجو منها؛ انفتح أحد أبواب السور لتدخل منه عربة النخاس، فانطلقت بأقصى ما تستطيعه من سرعة وعزم نحوها، وانسلّت خارجة من البوابة بعد أن دخلت منها العربة، والحرس في طريقهم لغلقها.

وفي نظرة أخيرة للخلف، قبل أن تغلق البوابة، رأت الجندي وقد أحيط به، وهم يكيلون له الضربات من كل اتجاه، وملابسه تتضرج بدمائه،

والحرس يتوافدون عليه من كل مكان بالساحة. واستحثت الفرس عندما تبعها الفرسان من القلعة، وعجزت عن كتمان دموعها لتنهمر غزيرة على خديها تبلل لثامها، وسهم ناري يخترق فؤادها، ويمزقه تمزيقًا.

وأدركت أن عليها العودة لأبيها، آخر أمل لها في تحرير عمرو؛ فجَدَّت السير لتهرب من مطارديها، ولم يعد في قلبها مكان ولا في عقلها فكرة إلا إنقاذ أخيها وبلادها.

***

جاب ريموند غرفة التعذيب بخطوات مشبعة بكبرياء الانتصار وغرور القوة، وعلى وجهه ابتسامة المنتشي بالنصر، ونظر في عيني عدوه اللدود المقيد بأصفاد من حديد، وتنطلق نظراته بالتنمر، وقال: ها قد أتت اللحظة التي انتظرتها سنوات طويلة، أمير القلعة الجسور الصنديد مقيد أمامي بأغلال الأسر، أفعل به ما أريد. سترى بعينيك بشاعة انتقامي قبل أن أسملهما لتذوق عذاب ظلام الدنيا قبل ظلمة قبرك.

لم يبدُ على ملامحه أي أثر لخوف، بل كانت عيناه تلمعان كعيني نمر متحفز.

أكمل ريموند بغلٍّ: لقد قتلت أبي وأخي وأفضل الفرسان؛ بسبب عنادك وطمعك في الاحتفاظ بالحصن والأراضي التابعة له، لولاك لكنا دخلناها بسلام دون خسائر، لكنك عصيت أمر أميرك وخالفت المعاهدة التي تقتضي تسليم القلعة، وأعلنت الحرب ضدنا. غبي!، كان عليك أن تفهم أن الغلبة للأقوى والأكثر عددًا وعدة، كان عليك أن

تكون حصيفًا كأميرك الذي رفض إرسال المدد إليك، ومخالفة شروط المعاهدة. كان عليك أن تستمع إلى رأي العقلاء من أهل الحصن بالاستسلام.

- عقلاء! (تمتم باشمئزاز)، من باعوا دينهم بعَرَض من الدنيا، وسلموا أرضهم لأعدائهم، عقلاء!

- التجار والأعيان وصفوة الناس في الحصن اختاروا أن يكونوا مع الأقوى، ويخضعوا لسلطانه، وينضووا تحت حمايته.

- بل اختاروا مصالحهم الخاصة، وتجارتهم، وأموالهم، وتركوا المستضعفين لتنهشهم الذئاب.

- حتى الضعفاء نبذوا الحرب والمقاومة، واختاروا السلام والأمن.

- بل اختاروا الاستسلام والوهن، وما حالهم الآن! أصبحوا عبيدًا لكم، تدوسون رقابهم، وتسرقون جهدهم، وتسترقون نساءهم.

- كان بإمكانهم أن يتركوا الأرض، ويرحلوا كما فعل أهل المدن والحصون والقلاع التي استرددناها.

- ليست أرضكم لتستردوها، بل سرقتموها وطردتم أهلها منها.

- بل أنتم من سرقتموها منَّا، أتيتم من أقصى الشرق، من عمق الصحراء تستولون بالسيف على أرض ليست لكم. عودوا لصحرائكم العربية، واتركوا الأرض لأهلها.

- كذّاب أشر.

اشتعل وجهه بالغضب، وهم أن يرفع سيفه؛ فأكمل الأمير بثقة: في أي البلاد ولدت؟ أنت فرنسي، لا يحق لك استرداد ما لم تكن تملك. تلك البلاد كانت محتلة من القوط الذين أذلوا أهلها، وعاثوا في الأرض فسادًا، وعندما دخلها المسلمون استقبلهم أهلها بالترحاب، وعاش الفاتحون بينهم، وتزاوجوا منهم، ودخل أهل البلاد في الإسلام أفواجًا.

- وأنت عربي، أصولك وأجدادك من الحجاز!

- أجدادي نعم، لكن جدي وأبي ولدوا على هذه الأرض، وصاروا جزءًا منها وذابوا في أهلها، وأنا الآن أدافع عن أرضي التي سرقتها، وسأنتزعها منك.

- الأرض للأقوى، وأميركم سلَّمها لنا بموجب معاهدة السلام.

- عطاء من لا يملك لمن لا يستحق، خالف الأمير أمر ربه وتعاليم دينه عندما تنازل عنها لكم لتستبيحوها، وواجبي هو أن أستعيدها.

ضحك ساخرًا: تستعيدها! عليك أولًا أن تفكر كيف تحرر نفسك من الأسر.

- نفسي أمرها بيد الله، أما أرضي فلن أفرط فيها أبدًا ما دام بجسدي نفس يتردد.

- لن يبقى بجسدك نفس يتردد بعد الآن.

استلَّ سيفه، ورفعه عاليا ببطء، وهو ينظر في عيني أسيره الذي بادله بنظرات ثابتة لا أثر فيها لخوف أو قلق. نفث الغضب من أنفه وحرك سيفه الذي يتشوق لإراقة الدماء؛ ليجتز به رقبة أسيره.

***

عندما عادت عائشة إلى فاتيما، فوجئت بأن أباها رحل إلى القلعة، وحكت لفاتيما بكل الحزن والأسى عما فعله الجندي لإنقاذها، وكيف ضحى بحياته لتعود سالمة دون أن يمسها سوء، فهزت فاتيما رأسها بأسف: هذا الشاب لا يستحق الموت بهذه الطريقة.

كان عليهما انتظار عودة الأمير والأعرج، لكن الفاجعة داهمتهما بنبأ أسر الأمير. كاد قلب عائشة يتفطر حزنًا على أبيها وأخيها وذلك الجندي الذي ضحى بحياته لإنقاذها.

وتحطم أمل فاتيما في الخلاص من الاحتلال الرازح على البلدة، ورفع الظلم عن أهلها. وتراءى لها شبح النخاس يقهقه ضحكته الخبيثة سخرية من حالها وآمالها المحطمة.

كانت تظن بأن عودة الأمير العادل الذي كانت شهامته ومروءته سرًّا يسري بين سكان البلدة في جلساتهم المغلقة ومناجاتهم؛ بات قرب أطراف أناملها، لكنَّ كلماتِ الأعرج أضرمت فيها نارًا لا ينطفئ أوارها: ليت الأمر يتوقف عند الأسر، لكن ريموند لديه شهوة انتقام لا يشبعها أسر ولا حتى إراقة دماء. يريد أن يذل من أذلَّه وأطار النوم من عينيه لسنوات طويلة.

تطلعت إليه عائشة بشغف من يريد أن يعرف الحقيقة، وأنصتت باهتمام في انتظار أن يكمل، لكنه انخرط في بكاء أليم، وأطرقت فاتيما يملؤها اليأس والألم.

واحترمت عائشة لحظات الصمت الحزين، حتى هدأ الأعرج، وبدأ يكمل حديثه الحزين: ذلك القائد المجاهد الذي رفض إطاعة أمر أمير البلاد بالانسحاب من الحصن وتسليمه للقشتاليين وفرسان القلعة، وقاتل ببسالة نادرة لا يخشى كثرتهم ولا عتادهم وعدتهم، وغلّق أبواب الحصن في وجوههم ورفض أن يعطيهم شبرًا واحدًا من أرض مسلمة. لكن أهل الحصن خذلوه، ورفضوا تحمل الحصار، ورفضوا مساعدة أميرهم وجنده. وبمجرد أن بلغهم الخبر بأن أمير البلاد أمر بتسليم الحصن؛ فتحوا الأبواب لجيوش الأعداء. لكن الأمير والقلة التي بقيت معه من المجاهدين تمترسوا في القلعة، ورفضوا أن يشربوا من نهر الخيانة والوهن والخضوع، وقاتلوا قتال المجاهدين الصادقين، واستشهد أغلبهم في ممرات القلعة، وحوصر من تبقى في المئذنة ومعهم الأمير حتى سقطوا جميعًا.

وسقط الأمير وظنناه- جميعًا- قتل، وعملت أنا وسعد على الهروب بجثته من القلعة، وأخذناه للسراديب السفلية. وهناك فوجئنا بأنه لازال حيًّا، لكنه يحتضر.

واستطعنا إخراجه خارج الحصن عبر المجارير التي أنشأها لتصريف ماء الأمطار والسيول، تلك القنوات والسراديب التي أنشأها الأمير كانت

أكثر إخلاصًا من البشر الذين خانوه وأسلموه للأعداء. والآن، يدفعون ثمن الوهن وحب الدنيا ذلًّا وخنوعًا وتعذيبًا من فرسان القلعة.

شعرت عائشة بكلماته تخترق قلبها وتدميه، فقد ظنت السوء بأبيها، واتهمته بالتنازل عن أرض المسلمين وتسليمها للأعداء، كبقية الأمراء.

ترقرق الدمع من عينيها، وقالت بتحسر: أدعو الله أن يمنحني الفرصة أن ألقاه ثانية؛ لأقبل يديه وقدميه، وأطلب منه العفو والصفح عن كل ألم سببته له، وكل تهمة باطلة رميته بها، وأنا جاهلة غافلة.

تنهدت فاتيما بألم: بعض الناس لا نعرف قدرهم الحقيقي إلا عندما نفقدهم، لا يهمهم كيف ينظر لهم العالم، فقط يقومون بما يتوجب عليهم بصمت، مثل الأمير في ذلك مثل الجندي الشاب وأشباههم، يدفعون ثمنًا غاليًا في سبيل الحق.

صرَّت أسنانها غلًّا: إن عالم الخيانة والخذلان لا يستحق أمثال هؤلاء.

ارتجف قلب عائشة بقوة، وانخرطت في بكاء مرير عندما تذكرت أنها كانت سببًا في خسارة ذلك الجندي الشاب- الذي لا تعرف اسمه- لحياته بتهورها واندفاعها.

***

(10)

لم يتعجب المارون بالطريق في تلك الساعة المبكرة من الصباح، وهم يرون ذلك الصبي الذي يشق الطريق ركضًا كظبي رشيق فرَّ من فهدٍ سريع؛ فذاك هو ما يعتادونه من ذلك الصبي المجنون "زاك"، وتلك هي هيئته وتصرفاته التي ألفوها منه، وظن بعضهم أنه سرق أحدًا ما، وفر منه فارتسمت على وجوههم ابتسامة متسلية.

لكن لم يعلم أحد بأن الصبي كان متجهًا في تلك اللحظة إلى الحانة الكبيرة، وبمجرد أن وصل لم يدخل من الباب الكبير، بل التف إلى الزقاق الضيق، ودخل من الباب الخلفي مباشرة، واقتحم حجرة صغيرة قذرة بجوار الباب، وأخذ يهزُّ بكل قوته تلك الكومة من القماش المطرز الملقاة على سرير حقير في ركن الحجرة.

سمع صوتًا أجشَّ غاضبًا يخرج من تلك الكومة يلقي بسباب قشتالي قاذع، ثم تحركت الكومة ليظهر منها وجه حسن عبوس، أزعجه الاستيقاظ من النوم، فتح عينيه بصعوبة، وهو يهتف: ماذا تفعل أيها الأحمق! كيف تجرؤ على إيقاظي من نومي؟

هتف "زاك" بأنفاس متقطعة من العَدْو: خوليو، يجب أن تأتي معي الآن، مصيبة، مصيبة كبيرة حدثت.

قال باستهتار، وهو يفرك عينيه: اكتملت كل المصائب في الدنيا ولا جديد يمكن أن يزيد الأمر سوءًا!

هتف الصبي: عليك أن تساعدني لإنقاذه؛ فلن يستطيع البقاء حيًّا حتى أذهب إلى فاتيما.

انتبه خوليو إلى فزع الصبي، وجدِّيَّته، وقال باهتمام: من تقصد؟

قال بارتباك: فلننقذه أولًا، ثم نسأله من هو!

انطلق خوليو خلف الصبي، وهو يلملم ملابسه، ويتعثر في خفَّيْه حتى وصلا إلى شاطئ البحر، ثم سار الصبي بمحاذاة الشاطئ، حتى وصل إلى منطقة الصخور، ثم توغل قليلًا إلى داخل البحر، ووقف على صخرة، وأشار بيده.

تبعه خوليو، وأخذ يتنقل بحرص على الصخور المبللة حتى اقترب منه، وأخذ يتطلع إلى حيث يشير. رأى رأس بشري بجوار أحد الصخور، فاقترب منه، ووجده شابًّا يتشبث بأصابعه في الصخور، وهو يوشك على الموت، وقد تلوّن الماء من حوله ببعض من دمائه؛ فأسرع ونزل إلى الماء، واستطاع إنقاذ الغريق بمساعدة الصبي زاك، ورفعاه فوق الصخور، ولكم كانت دهشة خوليو عارمة عندما عرفه!.

هو نفسه ذلك الشاب الذي رآه مع والده الليلة الفائتة في الزقاق الخلفي للحانة. نجح بعد جهد في اصطحابه إلى الحانة، وأحضر له الطبيب الذي تولى علاجه، واستطاع زاك أن يقنع الطبيب بأن المصاب

هو أحد التجار من مملكة قشتالة هاجمه اللصوص وسرقوه وكادوا يقتلونه، وصدَّق الطبيب لما يعرفه عن خوليو من حب فعل الخير.

وبمجرد أن رحل الطبيب، حتى سأل الصبي عما حدث، فأخبره بأن فاتيما جنَّدته لمراقبة تحركات الفارس الأسود، وتتبع خطواته، فتبعه حتى دخل من سراديب القلعة، ولم يدر ماذا يفعل؟ هل يتبعه أم يعود إلى فاتيما ويخبرها، أم يبقى واقفًا في مكانه يتابع ما يحدث من خارج أسوار القلعة؟

وعندما استقر إلى العودة إلى فاتيما، فوجئ بمعركة تشتعل فوق أسوار القلعة، وأصوات استنفار الحرس وصليل السيوف، ثم أخذ يشرح له: رأيت الفارس الأسود يقفز من فوق السور إلى البحر، فأردت أن أخبر فاتيما بأن الفارس الأسود قتل، ولكنى ألهمت بتتبع حركة الأمواج؛ لأعرف إلى أين سيذهب جثمانه.

- وجئت إليَّ عندما استقر بين الصخور؟

- حاولت مساعدته في البداية، ولكني لا أمتلك القوة الكافية لإخراجه من الماء، وعندما استشعرت فيه بعض حياة أدركت أنه لن يصمد حتى أعبر الجدار وأبلغ فاتيما؛ فالمسافة طويلة.

- حسنًا فعلت، والآن اذهب وأحضر له بعض الملابس التي تلائم هويته، التي نعتناه بها أمام الطبيب لكي لا يرتاب به أحد.

- ومن أين لي بتلك الملابس!؟

- الشاطر زاك لا يسأل سؤالًا كهذا!.

غمز له بعينه، وابتسم بمكر.

***

(لا تفعل)

توقف سيف الكونت قبل أن يمس رقبة الأمير عندما فاجأته صرخة زوجته خوانا، التي كانت تهبط درجات سلم قبو التعذيب، ومن خلفها أبو سارة، ولحم جسده يهتز مع كل درجة ينزلها.

التفت إليها ريموند قائلًا ببغض: ماذا تريدين؟

اختالت في مشيتها، وقالت بتشفٍّي، وهي تنظر نحو الأمير: لا تستسلم لثورة غضبك، فمثله لا يقتل بتلك السهولة فلا شك أن رجاله داخل الحصن أمثال الخادم الأبكم لا ندري عنهم شيئًا. وقف النخاس في ركن الغرفة يراقب المشهد ويتفحص الأمير الأسير، ومرت هي أمام ريموند، وقالت وهي ترمي بذقنها لأعلى بترفع: لا تنسَ أنه لولا ذكائي وتنبيهي لك بخطورة ذلك الأبكم الخائن؛ ما كنت راقبته، وكشفت خيانته، وما كنت لتطال صيدك الثمين.

وقفت أمام الأمير الذي امتلأت ملامحه بالشراسة والتنمر، وأخذت تتفحصه بنظرات الحقد والغل، فتعالى بنظراته عنها بأنفة. صفقت بكفيها مرتين؛ فدخل الحرس- وكأنما كانوا ينتظرون إشارتها- يجرّون "بهلول" و"عمرو".

لم تخطئ عينيها تلك الرجفة التي مرت مسرعة على وجه الأمير لرؤية الأسرى، ولا اهتزاز بؤبؤ عينيه الذي أسكته ثباته وصرامته.

التفتت إلى ريموند، وقالت بمكر: أنت تقدم له أقصى ما يتمناه

الموت. ذلك الكافر يظن أنه سينال الفردوس! مثله لابد أن تسلبه قواه وتسحق غروره، وتهزم كبرياءه قبل أن ترسله إلى الجحيم.

أخذت تدور في الغرفة كطاووس مختال، ونشرت مروحتها الأنيقة، وأخذت تروّح بها أمام وجهها؛ لتخفف من حرارة الغرفة، والنخاس السمين يمسح العرق الذي أغرق وجهه، وهو يتمنى أن يكون- الآن- بين جواريه الجميلات يروِّحْن له، ويمسحن عن وجهه العرق بأياديهن الناعمة، ويصببن عليه العطر صبًّا.

رغم كراهية ريموند العنيفة لغرورها، وتقززه من خيلائها واستعلائها، لكن كلماتها هذه المرة صادفت هوًى في نفسه، ورَوَت تعطشه الجارف للانتقام، والتنكيل بعدوه، وبقي صامتًا في انتظار ما ستخرجه من عقلها من أفكار جهنمية في فن التعذيب الوحشي والتنكيل البشع وسحق إرادة البشر.

مرت من أمام بهلول، ورمته بكلماتها: عليك أن تفخر بنفسك، فحقير مثلك يسعى خلفه كل ذي شأن، وكل صاحب سلطان، الأمير لا يهمه الوقوع في الأسر بقدر ما يهمه ألا نحصل على سرك.

هز النخاس رأسه بتعجب، وأطلق ضحكة هازئة: هأ، لو كنت مكانك لبعت ما في عقلي لكل من يدفع، للعرب والقشتاليين

والبيزنطيين والتتار، وجلست على جبال من ذهب، لا أرى لك من عذر إلا أن تكون مجنون حقًّا.

ردت على كلماته: ما لا يشتريه المال يؤخذ بالقوة.

ثم توقفت عند عمرو، ووضعت أصابعها فوق كتفه، وهي تراقب بدقة تعبيرات وجه الأمير: عزيزي ريموند، إن حقدك المقدس وعطشك للانتقام لن يرويه القضاء على خصمك بتلك السرعة، لابد أولًا من سحق قلبه، وإيلام روحه، وطعنه في أغلى ما لديه.

قال بحقد شديد: سأمزق لحمه قطعة.. قطعة، و..

هزت رأسها ببطء مستفز، وهي تطقطق بلسانها: هذا لا يؤلمه التعذيب، وإن سلخت جلده حيًّا، ونشرت عظامه بالمناشير، فهو يؤمن بأن جسده ملك لإلهه المزعوم. إن ما يؤلمه- حقًّا- هو رؤية عذاب أحبّته.

أتمت كلماتها بأن أطبقت بأظفارها على رقبة عمرو حتى أدمتها، وتحمل هو الألم صابرًا، وكتم الأمير ألمه العميق برؤية ولده في الأسر. واقترب ريموند من عمرو، وأخذ يقلب وجهه بينه وبين الأمير، وأدرك في التوِّ لم كان يظن بأنه رأى هذا الفتى من قبل.

وأجاب النخاس على سؤال لم يسأله: نعم، هو ابنه.

لمعت عينا ريموند بنظرة شيطانية، ثم أشار للحرس فجرُّوا عمرو إلى منضدة التعذيب، وقيَّدوه بها، وبدأوا في تعذيبه بأشد الطرق

وحشية. التهبت مشاعر الأمير، واستعرت النيران في جوفه، وتشنجت عضلاته، وهو يرى فلذة كبده يكتم آهاته بصعوبة، ويجاهد آلامه، ودماؤه تسيل على جسده.

كان عمرو يبذل جهدًا مضنيًا في محاولة تحمل الألم، حتى عجز عن التحمل، فانطلق صياحه وآهاته تتردد في أرجاء الغرفة، ولاحت ملامح الضعف والألم على وجه الأمير، وهو يصرُّ بأسنانه غلًّا وغيظًا، وارتوت نزعات ريموند الانتقامية، ورغباته الدموية بالتشفي في الأمير.

وخوانا تراقب باستمتاع عذاب الفتى ووالده، وأخرج النخاس زجاجة عطر من حزامه، وأخذ ينثرها على وجهه وملابسه؛ لتخفف من رائحة الدماء التي ملأت الغرفة، لكنها سقطت من يده فجأة عندما أفزعته صرخة مدوية انطلقت في المكان، لم يكن الفتى هو مطلقها.

التفت الجميع إلى بهلول، الذي انفجر بصراخ مدوٍّ لا ينقطع، وهو يقفز بجنون، ويضرب الأرض بقدميه. ولم يستطع الحرس السيطرة عليه، ولا حتى تهديد ووعيد ريموند.

كان صراخه يشتد عنفًا مع كل قطرة دم تسيل من عمرو، وكل آهة تصدر منه، ثم انكفأ على الأرض، وأخذ يضرب رأسه بعنف في الأحجار الخشنة التي تغطي الأرض حتى غطت وجهه الدماء الغزيرة، فصرخ ريموند بالحرس: أوقفوه.

فأحاط به الحرس، وقيّدوا حركته، ومنعوه مما يفعل.

فصرخ بهلول، وجسده يرتجف بعنف: اتركوه، دعوه يرحل وإلا لن أنهي العمل، ولن أعطيكم ما تريدونه. أطلقوا سراحه الآن.

تفحصت خوانا الدمع المنهمر من عينيه، وملامحه المتشنجة التي غطتها الدماء، وهو يرغي ويزبد، وأدركت في وجهه إصرار من لا يخشى شيئًا.

أشارت للحرس بالتوقف عن تعذيب عمرو، ثم قالت لبهلول: حسنًا سأبقيه حيًّا، ولكن اعلم، إن لم تتم عملك في أسرع وقت؛ فلن يمنعني مخلوق من تمزيق جسده أمام عينيك، وملأ فمك من لحمه.

أخذ بهلول يرتجف، وهو يراقب عمرو، والحرس يفكون وثاقه ويقف على قدميه بصعوبة.

عاد قلب الأمير المشتعل للنبض، وارتدت أنفاسه إلى صدره. التفت ريموند إلى الأمير، وقال بصلف: إن كنا بحاجة وقتية لابنك، فلم يعد لنا حاجة بك، موتك صار حتميًّا، وأعوانك سيتجرعون اليأس، ويتشرذمون بموتك، وينفض جمعهم باختفاء قائدهم كما حدث من قبل.

اقتربت منه خوانا، وجذبته من لحيته بعنف، وقالت بكلمات تقطر غلًّا وحقدًا: قتلك سيكون عبرة ومثلًا لكل من تسوّل له نفسه من أهل الحصن أو من غيرهم بالتسلل إلى القلعة أو زعزعة استقرار الحصن، أو تحدي حماة الصليب. غدًا سيكون يومًا مشهودًا. سيرى أهل

الحصن بأعينهم لحظة إعدام حاكمهم السابق وأملهم الغائب وبطلهم المستخف.

غدًا سيشهد الجميع نهاية الأسطورة.

***

أصبحت وحيدة، وعلى عاتقها وحدها مسئولية إكمال خطة أبيها، لابد من جمع كل من تبقى من كتيبة المئذنة، وكل المخلصين من شباب المدجنين، من يريدون الخلاص من احتلال الأعداء؛ فانطلقت مع فاتيما والأعرج يتسللون تحت جنح الظلام إلى بيوت ومخابئ من تبقى من فرسان كتيبة المئذنة، والاتفاق معهم على وضع خطة لاقتحام القلعة أو التسلل إليها، لكن ريموند فاجأهم في صوت منادي البلدة يعلن في تلك الساعة المتأخرة من الليل بأن إعدام الحاكم السابق للحصن سيتم غدًا في منتصف النهار، وسيحشر الناس لمشهد ذلك الحدث الهام في الساحة الكبرى للبلدة.

لكن ما أصاب عائشة بالصدمة وأرهق روحها وحطم فؤادها، عندما مرت بالساحة الكبرى في طريق عودتها هي وفاتيما والأعرج؛ هو ما رأته من تدابير وتجهيزات ليوم الغد، وفهمت مغزاها؛ سيتم إعدام الأمير حرقًا حتى الموت!.

وهاهم الحرس والجند يعدّون منصة الحرق والصاري الكبير الذي سيقيد إليه الأمير بالسلاسل.

لم تكن فقط ميتة بشعة، بل فائقة الألم، وتحوي- أيضًا- ذلًا ومهانة.

(ذاك هو المتوقع من وحش دموي كريموند)، كان هذا هو ما علق به الأعرج على المشهد المؤسف الذي ألقى بظلاله القاتمة الحزينة على أرواحهم وأفئدتهم.

كانت ليلة مظلمة كئيبة بلا قمر، وعائشة تجلس إلى الطاولة في كامل عتادها وسلاحها، تتدثر بزي الفارس الأسود. سكن الدمع مقلتيها، وغلّف الحزن قلبها. كانت مدركة- تمامًا- أن الغد هو الفرصة الأخيرة والوحيدة لتحرير أبيها، إمّا أن تنجح مع رجال كتيبة المئذنة، أو تموت مع أبيها، وهي تحاول تحريره.

لم يكن يشغلها- كثيرًا- أمر موتها، فدائمًا ما كانت تتمنى ميتة شجاعة نبيلة، وفي هذا الموقف العظيم تكمن فرصتها لنيل ما تتمنى، إنما كان يشغلها ألا تنجح في تحرير أبيها، أن تُمنَى بهزيمة تكسر ظهرها؛ بفقد أغلى البشر على قلبها. أن تفقد الفارس المجاهد الذي علمها كل شيء بداية من الحبو، وإطباق كفها الصغير على خنصره الكبير إلى ركوب الخيل، وفنون المبارزة بالسيف. أن تفقد حبها الكبير المتجسد في الأب والمعلم والحامي.

كانت الرابطة التي بينها وبينه خاصة جدًّا، ومختلفة عن كل أبنائه، فهي فتاته الوحيدة وصغيرته المدللة، وحبة القلب ونور العين، وهي تدرك هذا جيدًا، وتجيد التدلل وانتزاع كل ما تريده منه، بل صارت تحمل الكثير من صفاته وأفعاله وحركاته وكلماته، حتى أنها كانت

تدهش أمها في كثير من الأحيان بروح أبيها التي تبدو في نظرات عينيها، وكلمات لسانها.

كانت الأفكار والذكريات تتزاحم وتتناحر في رأسها إلا أن فكرة واحدة سيطرت عليها توارت خلفها كل الأفكار والذكريات.

سؤال يلح عليها منذ مقتل قاتل الشيخ، ولابد أن تحصل له على إجابة.

سؤال يكدر صفو عيشها، ويقلق راحة بالها، وقررت أنها يجب أن تعرف الإجابة قبل أن تنخرط في ملحمة يوم الغد، وتنتهي كل الفرص المتاحة.

التفتت إلى الأعرج الجالس في ركن البيت، ينظف سلاحه القديم؛ استعدادًا لما سيلاقيه غدًا، وسألته مباشرة: أخبرني عن قصر الغابة في مروج غرناطة، لمَ باعه أبي لقاتل الشيخ؟

صمت قليلًا، وعقد حاجبيه مفكرًا، وأخذت فاتيما تتطلع لهما بفضول بعد أن اجتذبها السؤال من أفكارها، وانتظرت بصبر مع عائشة إجابة الأعرج الذي أخذت الذكريات تتداعى إلى رأسه، وتنتظم بشكل مرتب ليجيب أخيرًا: هذا القصر على وجه التحديد مباعٌ منذ أعوام بعيدة، ابتاعه أحد قطاع الطرق من الأمير أثناء حصار إشبيلية.

اعترضت بدهشة: لقد رأيت صك البيع بنفسي مع القاتل الذي صار قتيلًا، أي أن أبي أعطاه إياه بعد مقتل الشيخ.

- إن ما أقوله هو الحقيقة، وما أدراك أن القاتل ليس هو نفسه قاطع الطريق الذي وهبه الأمير القصر من سنوات؟ ما أعلمه أن قطاع الطرق سكنوا غرناطة، وتحولوا إلى عصبة من اللصوص والقتلة المأجورين.

- ولمَ يعطِ أبي قصرًا لقاطع طريق أو قاتل!؟

- تلك القصة تعود إلى أيام حصار إشبيلية، وقتها لم يكد يمض على خروج الأمير من السجن وقت طويل.

- لم يخبرني أحد من قبل أن أبي كان سجينًا!

- كنت صغيرة للغاية عندما أخرجنا أباك من القلعة، وأعدناه جريحًا إلى غرناطة، وبمجرد أن استرد عافيته أمر أمير البلاد بسجنه لعصيانه أمره، وعدم تسليم القلعة، ثم صدر عفو عنه ولم يكد يعد العدة لبدء معركته الخاصة؛ لاسترداد حصنه حتى بُلِينا بحصار إشبيلية؛ فانطلق وحده لنجدة إخوان الدين والعقيدة في إشبيلية المحاصرة.

لكنه كان وحيدًا، فكل الأمراء كانوا ضدّه، ولم ينل أية مساعدة من أي إنسان، ولم يستطع إقناع الحاكم ولا الأمراء بخطورة المشاركة في حصار إشبيلية. كل ما كان في استطاعته هو تهريب الطعام إلى المحاصرين خلف الأسوار. ودفع كل ماله في الطعام والزاد، ولم يجد من يستعين بهم على خرق الحصار وتهريبه سوى قطاع الطرق، وكان عليه أن يدفع لهم ثمنًا غاليًا لقاء مساعدته؛ فوهبهم قصره.

لكنهم انقسموا إلى فريقين، ورفض زعيمهم مخالفة أمراء غرناطة واستعدائهم واستعداء القشتاليين وفرسان القلعة؛ فرفضوا مساعدة الأمير، إلا أن أحدهم طمع في القصر فانشق عن أوامر زعيم عصبة قطاع الطرق، ومعه بعض الأفراد وساعدوا الأمير على تهريب الطعام والزاد إلى المحاصرين في إشبيلية، وحصلوا على القصر لقاء ذلك، وعلمت فيما بعد أن ذلك الذي انشق عن العصبة قتل كل من كان معه؛ ليبقى له القصر وحده.

التفت إليها متسائلًا: هل قرأت تاريخ البيع على الصك؟

عجزت عن تذكر أي تاريخ كان مكتوبًا على الصك، وأدركت أنها لم تنتبه له أبدًا، بل شغلها ختم والدها.

هز رأسه متفهمًا حيرتها: كل ما كان يشغلك وقتها هو تبرئة أبيك من دم الشيخ.

انهمر الدمع مدرارًا على وجنتيها، وطأطأت رأسها بأسى وخجل: أسأل الله أن يسامحني.

دفنت نفسها بين أفكارها وذكرياتها، وعادت لصمتها، وتركت دموعها تترى علها تهدئ من النار التي اشتعلت، وتأججت في قلبها، وأفحمته قبل أن تشتعل في أبيها. وعندما غفت قليلًا في جلستها، لم ترَ سوى كوابيس بشعة ودماء في كل مكان، وجحيمٍ يأكل الأخضر واليابس.

ومن بين كل هذا الدمار، يظهر الفارس الأسود على فرسه قادمًا من بعيد.

عندما انتبهت من كوابيسها، لم تدر هل ما رأته كان أحلامًا أم أمنية تسكن روحها منذ الصغر، أن يظهر فارس أسود ينقذ الضعفاء والمظلومين! ذاك الطيف البعيد الذي يظهر لها كلما هزمها ضعفها وسكنتها المخاوف وشلها العجز.

وأرادت أن تتخفف من وطأة بعض ما تعانيه؛ فباحت للأعرج عن أمنيتها القديمة في صورة سؤال تتمناه واقعًا حقيقيًّا: أصدقني القول بالله عليك، هل أبي هو الفارس الأسود؟

انتقى كلماته بحرص كبير: وكأنني أراه فيه.

- أعطني جوابًا واضحًا.

- عندما أسمع عن حكايات الفارس الأسود وأفعاله، يهيأ لي أنه الأمير، الجهاد والشهامة والشجاعة الفائقة ومناصرة المظلومين؛ كلها صفات لا أخطئها في أميرنا.

- إلا أنه لا يخفي وجهه أبدًا، ولا يقلقه أن يكشف أحد شخصيته الحقيقية.

أصابتها كلماته بالحيرة، فرغم كل شيء لازالت تتمنى أن يكون حلمها حقيقيًّا.

وتطوع هو بحكاية لم تكن تعلم عنها شيئًا.

أول مرة أسمع فيها عن ظهور الفارس الأسود، يوم أن كان الأمير غارقًا في رقاد المرض يغالب جراحه الكثيرة بعد معركة المئذنة، لا

يعي شيئًا من الدنيا في قصر الغابة، وليس معه سوى زوجته تمرضه وابنه، بعد أن أمر الأمير بتجريده من خدمه، وكل شيء؛ عقابًا له على مخالفته لأمر الحاكم. لكن ريموند أراد الانتقام منه، والإجهاز عليه لما سببه له من خسائر في قواته، ولأنه لو نجا سيكون سببًا في عودة روح المقاومة والجهاد ضد قواته؛ فأرسل إليه بعضًا من فرسان القلعة؛ ليغتالوه في قصر الغابة، وهو جريح فاقد الوعي.

ولكن من جديد، يُمنَى ريموند بهزيمة ساحقة بعد أن احترق رجاله في إحدى غرف القصر، وهرب من تبقى منهم حيًّا، وهم من حكوا عن الفارس الأسود الملثم، الذي قاتلهم قتال الأبطال، وحبسهم في الغرفة، وأوقد فيهم النار، وألقى الرعب في قلوب من هرب. ومن يومها، لا تتوقف أحاديث الناس وحكاياتهم عن بطولات الفارس الأسود، وصولاته وجولاته في هزيمة الشر ونصرة المظلومين.

قالت بانبهار: إذًا، فأبي هو الفارس الأسود حقًّا، ومن غيره يستطيع مجابهة فرسان القلعة وهزيمتهم!

بدا على وجهه عدم الاقتناع، لكنه لم يعقب على كلماتها.

وانخرطت هي في بكاء مرير، واشتعل قلبها حسرة وألمًا: آه يا أبت، أتمنى لو أنكبُّ على يديك وقدميك؛ أقبلهم إلى ما بقي لي من عمر.

***

فتح الجندي عينيه ببطء، وهو يقاوم- بصعوبة- آلامه المبرحة التي استردها جسده الجريح مع وعيه، وحاول جاهدًا التغلب على الضباب الذي يغلف بصره، وبدأ يتبين ملامح الشخص الجالس أمامه، والغرفة الصغيرة الممدّد على سرير فيها.

إنه مغني الحانة الذي ضربه الأمير، إنه ابنه.

كان يحاول- جاهدًا- أن يتذكر كيف عاد إلى هنا، لكن آخر ما يتذكره هو أبواب القلعة وهي تغلَق خلف الفتاة المجنونة ابنة الأمير، والحرس وهم يحيطون به في القلعة من كل جانب، ويضربونه في كل مكان في جسده.

وفجأة، اشتعلت بداخله رغبة عارمة ألا يكون فريسة سهلة لهذا العدد من كلاب الصيد، وأن دوره في الحياة يحتِّم عليه كجندي وكفارس مسلم أن يقاوم إلى آخر رمق، وأن يسعى للانتصار حتى لو في أضعف حالاته، وأن عليه مهمة كبيرة في مساعدة الأمير على تحرير الأسرى، ومنع ريموند من إكمال خطته، وتنبيه الغافلين في غرناطة بما يحاك لهم من مؤامرات، واستنفار أبطال الثغور إخوة العقيدة؛ لإنقاذ غرناطة من الوقوع في يد الأعداء. كان عليه أن يبذل كل طاقته للبقاء حيًّا، وإن لم ينجح في ذلك؛ فليمت وهو يحاول.

لهذا؛ فقد انشغل بالبحث عن ثغرة في دائرة الفرسان التي أحاطت به، وتحامل على نفسه، وتحمل آلامه بقوة وشجاعة، وقفز من بينهم إلى أعلى، فوضع قدمه اليمنى فوق كتف أقرب الحرس إليه، واندفع

بجسده بكل قوة إلى أعلى، فحلّق جسده فوق كل الرؤوس، ثم دار بجسده دورتين رأسيَّتين في الهواء، ونزل بعيدًا عن دائرة الحرس، ثم انطلق كالسهم عائدًا إلى مربط الخيل والحرس خلفه، لكنه بدلًا من أن يلجَ من بابه قفز من النافذة المفتوحة قفزة هائلة؛ ليستقر مباشرة فوق الفرس المجاور للنافذة، وينطلق به كالريح من مخرج المربط، والحرس خلفه عاجزون عن اللحاق به؛ لخفة وزنه ورشاقة جسده، ولا يستطيعون مجاراته في مهارته الفائقة في الوثب والقفز.

انطلق بالفرس يجري في ساحة القلعة المكشوفة تلاحقه سهام حرس الأبراج، وتعجز عن إصابته لخط سيره المتعرج، صعد بالفرس السلم الداخلي لسور القلعة، والحرس خلفه، وهو يستحث الفرس؛ ليجري بأقصى قوة له، حتى وصل إلى أعلى السور، فلم يجد له مخرجًا من ساحة القلعة التي غلّقت أبوابها جميعًا، إلا أن يقفز من فوق أسوارها.

وبعد تلك القفزة الهائلة، أصبح كل شيء مشوشًا في ذهنه، لا يدري إن كان حلمًا أم واقعًا!؟ ليصطدم بمياه البحر، ويغيب عنه الوعي تمامًا، ثم يصحو ليجد نفسه هنا أمام ابن الأمير الذي قال مباشرة عندما وجده ينظر إليه بوعي تام، ويبدو في ملامحه أنه عرفه: حمدًا لله على سلامتك. هل لي أن أسألك ما الذي حدث لك؟ ومن الذي أصابك بكل تلك الجروح، وأين أبـ..

ابتلع الكلمة قبل أن تكتمل، ثم صمت برهة، وقال بثبات: وأين الأمير؟

أجابه، وسيْلٌ من الأفكار والمتعجبات يغمر رأسه بطوفان من الأسئلة الحائرة: لم يكن معي.

ظهر الارتياح في ملامحه، وأسند ظهره إلى الجدار بعد أن عاد إليه هدوئه، وصمت الجندي بدوره حتى لا يزيد من ألمه.

زفر خوليو، ونهض من مكانه، وقرّب إليه الطعام قائلًا، وهو يرسم على وجهه ابتسامة: لعلك جائع.

هز الجندي رأسه، وتناول طعامه بصمت، حتى غلبه فضوله، وفاض به؛ فسأله، وهو يتأمل ذلك الصليب المُدلّى من عنقه: هل لي أن أسأل لماذا؟ وكيف؟

تردد قليلًا، ثم قالو وهو يرى توتر مضيفه: إن لم يكن بك رغبة للكلام؛ فأعتذر عن السؤال.

أجاب بصوت مهتز، وجُمل متقطعة: قصة متكررة لا جديد فيها، أب شغله الجهاد واسترداد الأرض، وقسا قلبه حتى على أولاده، وصبي بلغ الحلم لتَوّه، وجارية فائقة الجمال والغنج والمكر تلعب على كل رغباته وأحلامه، وتتغزل في صوته وعزفه وغنائه، حتى أحكمت شباكها حوله خيطًا.. خيطًا بمهارة، وسلبته عقله، وأقنعته أن أهله هُم العقبة والسد المانع بينه وبين متع الجنة والمجد والشهرة، ووصول صوته إلى الناس؛ فهرب معها إلى النعيم لينال ما تمنى، لكنه اكتشف بعد فوات الأوان أنه سراب بِقِيعَة، وأن الشهرة والمجد وصرخات الاستحسان والتصفيق ما هم إلا ضباب يتبدد آخر كل ليلة مع آخر قطرة في قنينة

الخمر إلى جسد بائس يفترش أرض الزقاق المظلم القذر، يتقلب على الشوك، يتضور من ظمأ الروح، ويحترق من وحدة القلب.

صمت الجندي متأملًا في قصته وكلماته، ثم قال: حسبك أنك اكتشفت- أخيرًا- أنه سراب بقيعة، فلماذا لا تعود؟

قال بتحسر: فات الأوان، لن يتقبلني أبي أبدًا، وأمي ستموت حسرة وكمدًا.

كان الأمر يشعل بداخله بركانًا من الغضب، لا يَفهم له سببًا، لكنه لم يشأ أن يزيد من همه، فكتم غيظه وقال بهدوء: ألا ترى أنك تبالغ؟ وأن سعي والدك للقائك بعد كل تلك السنوات؛ ما هو إلا رغبة عارمة منه لإعادتك؟ وأن غضبه العارم، وضربه لك من علامات الحب والاهتمام لأمرك والحسرة على ما وصل إليه حالك! هل هناك سببٌ آخر لإعراضك؟

أغمض عينيه بقوة وقرع مؤخرة رأسه بالجدار: العشق، أين أذهب من ولهِ قلبي وجنون شوقي! إنه الداء الذي لا براء منه. تغيب وتغيب وتغيب، ثم تعود لتشعل قلبي برقصها، وتؤجج شوقي بغنجها، وتذهب عقلي بهمساتها، ثم ترحل وتتركني أسير الأماني والحلم بعودتها من جديد. كالراقد يشتهي النوم الذي غادره بلا رجعة، فقط ليمسك بطيف حلم زاره في المنام.

تأمل الجندي دموعه وألمه وضعفه؛ فاشتعلت النار في عروقه، وكادت براكينه أن تنفجر في وجهه، لكنه أمسك غضبه وكظم غيظه، الذي لم يظهر منه سوى صرير أسنانه واحمرار وجنتيه وأنفه. أ

طبق قبضتيه، وهو يحاول جاهدًا السيطرة على كلماته، حتى تخرج بشكل لائق: لا تقل لا براء منه، بل قل إنك لا تعرف الدواء الصحيح، ولم تلجأ للطبيب ليطبب لك روحك.

قال وهو يهتز من السكرة: وأنَّى لي بطبيب يداوي عاشقًا متيمًا صريعَ الهوى!

- صاحب القلوب وباريها، والأعلم بما فيها. من ابتلاك بالداء؛ لتلجأ إليه، وتعود وتطلب الدواء. من يتنزل إليك في كل ليلة تسهر فيها حتى الفجر، فلا يجد منك إلا الإعراضَ، وقلبًا امتلأ بعشق غيره. من يبسط يده بالليل وبالنهار ينتظر منك التوبة والإنابة، وأنت غافل عنه!

- وهل لمثلي عودة! لقد سدت كل السبل أمامي، وطردت من رحمته.

- بل هو شيطانك يلقي في قلبك اليأس من رحمتِه، رحمتُه التي لا ترد تائبًا، ولا تغلق بابها في وجه منيب.

- وماذا عن أبي وأمي؟ الرب يغفر، لكن البشر لا يصفحون.

- وما يضيرك من غضب البشر إن كان رب البشر راضٍ.

شرد خوليو طويلًا، وشعر الجندي أن الطريق إلى قلبه ممهد؛ فاعتدل في فراشه قائلًا: إن من أسخطهم عليك قادر أن يفتح قلوبهم لك من جديد، لكنه لا يتقبل شريكًا له في قلبك، فتعلق به وحده؛ فهو القادر على محو أعوام من العذاب في طرفة عين، وغفران جميع الذنوب والخطايا وإن كانت ملء البحر.

ظهر في عينيه- جليًّا- ضراوة الحرب التي تدور بداخله، وتفصد العرق من جبينه، واغرورقت عيناه، فأخذ يضرب رأسه بيده ويصيح: أي شيطان لعب برأسي، وجعلني أنقذ حياتك! هل أتيت لتفسد عليّ حياتي! أنا راض بما أنا فيه، وتكفيني معشوقتي أملأ بها قلبي، وليذهب العالم إلى الجحيم.

أشاح بوجهه بعيدًا، وظهر الضيق في ملامحه، وصاح خوليو: تجيد السباحة وأنت على البر، ظننتك ستفهم قلبي، وتدرك حالي كرفيق لي في العمر، لكن يبدو أنك لم تعرف عشق النساء، ولم تكابد الهوى والفتنة، تلك التي لا يستطيع أن يصمد لها أشد الفرسان، ولا يقف في وجهها أعتى المحاربين. سهم العشق الذي يصيب القلب فيرديه، إني لأعجب لأمرك! كيف وصلت إلى تلك السن، وليس لك حبيبة أو خليلة!

- حفظته فحفظني، وغضضت طرفي عمن سواه فملأ قلبي بنور حبه، وشغلت بالهم الأكبر فكفاني سائر الهموم.

طعنته كلمات الجندي في سويداء روحه، فأخذ يدور في الغرفة كمن أصابه مسٌّ، يبحث وينقب حتى وجدها، رفيقته التي تنسيه همه وتسكن آلامه، أخذ يتجرع منها كالمحموم، واليأس يتملكه، ويكسو الحزن ملامحه حتى طفر الدمع من عينيه.

كان الجندي في عجب من حاله وحال أبيه وأخته، الآن فقط يستطيع أن يفسر ولعَ فتاة بالسيف والطعن ونزالات الرجال عندما

يرى أخاها غارقًا في العشق والخمر والرقص الأندلسي. هي لا تقاتل فقط الرجال، بل تحارب هواجس الرق والسبي، وتغالب شبح الهزيمة.

سأله فجأة: ما الذي بينك وبين أبيك؟! كيف وصل بكما الحال إلى هذا الوضع؟

توقف فجأة عن تجرع الخمر، وألقاه بنظرة غاضبة يائسة، ثم رمى القنينة بعيدًا، وقال بضيق: يبدو أنني أنقذت حياتك لتقتلني! أهرب من أبي وتسلطه فتعترض أنت طريقي! ما أشبهك به!

هو لا يهتم في الحياة إلا بغرناطة والأندلس، يلقي على مسامعي المواعظ ليل نهار عن دوري في إنقاذ الأمة، وحماية آخر ما تبقى من الأندلس، واستعادة أرضنا التي سلبوها منا. يحرمني من عشقي للموسيقى، ويكسر قيثارتي، ويكتم صوت غنائي؛ ليجبرني على الفروسية وفنون القتال، وأنا أبغضه.

- تبغض من!

- أبغض القتال، الحرب، أبغض أن أعيش في معسكر دائم، وعمري يضيع وأنا أراقب ما يفعل الأعداء بنا، ولا أستطيع ردعهم.

عجز الجندي عن الاستمرار في كتمان غضبه؛ فصاح مؤنبًا: أتظن أن هذا مما يُلام عليه! أيها البائس، غيرك ممن أحرقه الأعداء بنيران

اليتم سيقبل بأي أب لينقذه من غايابات الضياع، ويرحمه من ظلمة الفقد، وإن جلد ظهره كل يوم ألف مرة. أبوك مجاهد، ترك متع الدنيا وزهوها؛ ليحيا درعًا لكم ولأمته؛ ليرد عنكم كيد الأعداء.

هتف، ودموعه تتفجر: وما الذي فعله هو بعلمه وفقهه وبطولاته في الفروسية والحرب! بالأمس ضاعت طليطلة وقرطبة وإشبيلية وسائر الإمارات الأندلسية، وغدًا ستضيع غرناطة مثلهم.

صاح بغضبة هائلة: لن تضيع، طالما ندافع عنها.

- ألم أقل لك إنك تشبهه، هو أيضًا يرفض أن يصدق أن كل شيء ضاع، وأن الغلبة للأقوى.

- الخلافة انتهت في بغداد، وسلطان الإسلام على العالم ينحسر، وأرض الأندلس ضاعت، وحاكم غرناطة يحكم بالإنابة مقاطعة قشتالية، فملك قشتالة هو الحاكم الحقيقي للبلاد.

أفيقوا من سباتكم، ستلحقون قريبًا بمن سبقوكم من الحمقى والمغفلين، من يظنون أن الأرض لا يزال بها مكان لعدل أو رحمة.

نفض الجندي الغطاء عنه، وهبَّ غاضبًا من الفراش، لم يكن يرتدي سوى سرواله، ونصفه العلوي مغطًّى بالضمادات، سأله بلهجة جافة: أين ملابسي؟

هتف بضجر: أتهرب من كلماتي! أنت وهو لا تتحملان سماع الحقيقة.

قال باقتضاب: أين ملابسي؟ سأرحل الآن.

قال: أنت مضطر للانتظار حتى يأتي لك "زاك" بملابس تاجر من قشتالة. وأنا مضطر لتحمل ذلك الطيف المزعج الذي عاد لي بعد سنوات في صورتك.

عاد زاك إلى خوليو بالملابس التي أمره بجلبها، لكنه كان يحمل معه- أيضًا- أخبار البلدة، وما يجري فيها.

وأصيب الجندي بالصدمة من هول ما سمع من أخبار مفاجئة حدثت في زمن قليل، فلم يمر عليه عدة ساعات منذ آخر لقاء له مع الأمير حتى يأتيه نبأ أسره، والإعداد لإعدامه اليوم. ودارت به الخواطر عما يمكن أن ترتكبه ابنة الأمير المجنونة من أفعال حمقاء، وانهار جسد خوليو أرضًا تحت وطأة الهم والغم والعجز، لكم حاول أن ينسلخ من جلده، وينتزع ماضيه من ذاكرته، ويسحق حب والده في قلبه، ثم تمر السنوات ليجد نفسه فشل في كل شيء.. حتى في النسيان.

أخذ يتقلب على الأرض، ويزحف في كل الغرفة يبحث عن قنينة الخمر التي رماها، وانقض عليها حين وجدها تسكب آخر ما تبقى منها في جوفه، ويلعق ما سال حولها؛ عله يفقد رشده، ويغيب عما يجري

حوله، لكن الجندي سحبه من تلابيبه، وأوقفه مضطرًّا وظهره للحائط، وصرخ في وجهه: أفق أيها الغبي، علينا أن نتجه الآن إلى ساحة الإعدام.

قال بيأس، وهو يلهث من فرط الانفعال: لماذا؟ لنشهد آخر فصول هزيمته؛ لنرى النار، وهي تلتهم لحمه وعظامه!

هتف الجندي بغضب: لن أضيع المزيد مع سكير رعديد مثلك، خذني إلى البلدة، وإلا لن تنجو من ذؤابة سيفي. أفق لرشدك، وفكّر في طريق نعبر به الجدار؛ لنصل إلى ساحة الإعدام.

هتف الصبي زاك: أعرف طريقًا لا يمر على أية بوابة أو حرس.

التفت إليه الاثنان باهتمام؛ فقال: أستخدمه للهرب وقت الخطر.

***

(11)

قضى الجميع الليل مستيقظين يدبرون ما سيفعلونه غدًا، ويضعون آلاف الاحتمالات والخطط، ويتواصلون مع أفراد كتيبة المئذنة الذين تسللوا إلى الأزقة والطرقات حول ساحة الإعدام، وأسطح البيوت التي في الجوار؛ يبحثون عن ثغرات ينفذون منها إلى الساحة أو أماكن عالية يستشرفون منها؛ ليكونوا على استعداد للتدخل في الوقت المناسب. لم تكن هناك خطة محددة واضحة، إنما هي محاولات واجتهادات، أمّا زاك فقد قاد خوليو والجندي- بعد أن ارتدى مضطرًّا زي الأعداء- عبر نفق صغير، يمر تحت الجدار إلى حي المدجنين، وصلوا إلى الساحة التي كانت ترزح تحت حصار مشدد من الجنود وفرسان القلعة.

كان الجنود قد أحاطوا الساحة بسياج دائري من قضبان حديدية مدببة الطرف، ينتشر الحرس المسلحين حولها على مسافات متقاربة، حتى لا يفكر أحد- مجرد تفكير- أن يقفز من فوق السياج.

وبدأ الناس يتجمعون خلف السياج قادمين من كل أرجاء البلدة، وفي منتصف الساحة ارتفعت منصة خشبية عظيمة لها سلم عريض من الخشب تم بناؤها أثناء الليل، وتحت المنصة أكوام ضخمة من القش والحطب المنقوع في مواد سائلة سريعة الاشتعال. وفوق المنصة، نُصِب صاريٌّ خشبي ضخم في انتظار أن يقيد إليه الأمير.

كانت رائحة المواد سريعة الاشتعال تنتشر في الجو، وتلتقطها أنوفُ كل من في الساحة، فتلقي بظلال من الرعب على الجميع، وتشعل خيالهم في تصور بشاعة القتلة التي ستحدث الآن.

وصل الجندي وخوليو إلى الساحة، وأخذ الجندي يدرس المكان بعيني صقر، ويبحث عن ثغراته، ويدور حول الساحة خلف السياج ليرى الساحة من جميع الاتجاهات.

وقفت فاتيما بين الناس خلف السياج، وبجوارها عائشة بوجهٍ ملثم وعين دامعة، ويدها تعتصر قبضة سيفها، والحسرة تأكل قلبها، وهي تراقب إعداد الساحة وتجهيزها؛ لتأكل النار منها القلب والروح، وتحرمها من أغلى ما لديها. وكتيبة المئذنة تندَسّ بين الناس وفي البيوت القريبة.

تفحصت وجوه الناس الكالحة، ونظراتهم الحزينة الخالية من أي أمل، فانتابها اليأس، وداهمتها روح الهزيمة.

هتف الجندي بخوليو: لقد حصنوا المكان جيدًا، ولم يتركوا أية ثغرات، وإذا ما أتوا بالأمير فسيصاحبه أضعاف أضعاف هذا العدد من الجنود والفرسان.

سمع الجميع صوت طبول الموكب قادمة من بعيد، فعَلَتْ الوجوه قلقًا، وامتلأت الملامح وجلًا، والجميع يترقبون وصول الأمير الأسير، وقلب عائشة يتفطر.

دخل الموكب الكبير إلى الساحة، بعد أن فتح لهم الحرس جزءًا من السياج، يتقدمهم صفَّان من ضاربي الطبول، ثم صفوف من الجند

وأعقبهم الحاشية والخدم، ثم الرهبان ورجال الدين في ملابسهم المرصعة، وعباءاتهم الموشاة بالقصب يحملون الصلبان الضخمة المرصعة، وأخرى مكسوَّة بالحرير.

ثم ظهر الكونت حاكم القلعة على فرسه المكسو بلباس يرتسم عليه الصليب، وبجواره خوانا زوجته في أبهى زينة، وأفضل هيئة. رفعت رأسها بخيلاء وكبرياء بين وزرائه وأعوانه، وبجواره النخاس السمين، وحوله خدمه وجواريه، ثم ظهر قفص حديدي فوق عربة يجرها العبيد بداخله الأمير الأسير راكعًا على ركبتيه؛ لقصر سقف القفص، مقيد اليدين والقدمين بسلاسل من حديد، وعلى رأسه غطاء من قماش أسود يغطي وجهه.

تطلعت الأعين، واشرأبت الأعناق إلى الأمير في قفصه، وحوله جمع كبير من الحرس المدججين بالسلاح من أمهر فرسان القلعة، وفي آخر الموكب الخدم والعبيد والجنود.

انتفض قلب عائشة كطير ذبيح، وتبلل لثامها من دموعها، وهي ترى أباها في هذا المشهد المُهين، وتعلقت بيد فاتيما؛ علها تتقوى على الوقوف.

أمسكت فاتيما بيدها بقوة، ودماؤها تغلي غضبًا، وهي تشهد خاتمة حاكم القلعة، الفارس الأسود، أمل المظلومين وحلم المستضعفين، نهاية العدل المهدور والمجاهد المغدور والقائد المخذول.

كان غضبها يكبر ويشتد، وهي ترى ضياع آخر أمل لخلاص البلدة من الظلم، وتحرير الحصن من الأعداء.

وقف الجندي يتطلع للوجوه المهزومة والملامح المكسورة، وعرف فيهم علمهم بحاكمهم. هم لا ينكرونه، بل يعرفون عدله وورعه وإحسانه، يقرأ ذلك بوضوح في الحزن والأسى والقهر في كل العيون والوجوه. أهل الحصن خزايا مهزومين، بلا حول ولا قوة، لن ينتصروا لأميرهم.

في وسط كل هذا الزحام، شغل عقله سؤال أقلقه: أين هي الآن؟

يقينه أنها هنا بين هذه الجموع، تنظر لأبيها والحسرة تقتلها. أخرجه من أفكاره صوت بكاء خوليو الذي تراجع خلف جموع الناس، وأسند ظهره لجدار أحد البيوت، وأخذ يبكي بيأس وقلة حيلة، وخارت قواه فتكوم بجوار الجدار، وأخذ يضرب رأسه فيه: هذا هو عقابي الذي أستحق، أقف هاهنا مكبلاً بالخوف والجبن؛ أشهد إعدام الأب والأمير والمعلم!

كسرت قلب أمي مرة، ثم أترك الآن قلبها ينسحق بفقد رفيق روحها، وأنا عاجز كامرأة عجوز لا حيلة لها! تجمد الجندي في مكانه، وتوقف عقله، بدأ يشعر باليأس يغزل خيوطه حوله، ويكبل إرادته.. هل اليأس وباء مُعْدٍ!

لم يحدث له في طول عمره أن شعر في أي موقف في حياته بكل هذا العجز، أصبح اليأس هو الشعور المشترك لكل هذي الجموع، كغيمة سوداء حجبت الضوء عن الجميع، فانقطع كل سبيل للأمل.

أخرج الحرس الأمير من القفص، جرُّوه من سلاسله بمنتهى القسوة؛ فتعثر عدة مرات، وهو يصعد سلم المنصة، ثم قيدوه في الصاري، ولفوا حول جسده سلسلة حديدية.

ودار النخاس بفرسه في الساحة، وتفحص وجوه الناس، ثم ابتسم بشماتة واستعلاء، واستقر بجوار الكونت، قائلًا: لن يرفع أحد رأسه في الحصن بعد الآن، سيظل هذا المشهد المرعب في نفوس وعقول الكبار والصغار جيلًا بعد جيل.

فجأة..

هز المكان صوت وحيد خرج من بين الناس، أجبر الجميع على الانتباه والإنصات: هل ستتركون أميركم العادل يُحرق، وأنتم كالدجاج تلتقطون الحب من قاتله، وتتركون له خير بيضكم؟ إذًا، تستحقون الذل والعار إلى يوم القيامة.

عرف النخاس على الفور صوتها الجَهْوري، ولسانها الطلق فتطلع نحو الصوت باهتمام، وكذلك فعل كل من في الساحة.

كانت الكلمات تنطلق من فم فاتيما كسهام من نار، يصل صوتها الجهوري إلى كل أذن، تشعل النار في نفوس فقراء المدجنين وشبابهم، وتستثير حميتهم: ذلك هو أميركم الذي عشتم في عدله وعزه أزهى العصور، خاف اللهَ فيكم؛ فحمى ضعيفكم، ورعى صغيركم، ونصر مظلومكم. خذلتموه مرة، وقاتل أعداءكم وحده

أوتخذلونه من جديد! لقد عاد للحصن؛ ليحرركم، ويرفع عنكم الظلم، فهل تسلمونه للأعداء يحرقونه، ويستعبدونكم من جديد!

أُسقط في يد الجميع وألجمتهم الدهشة، وفاتيما تدور حول السياج بين الناس تصرخ فيهم، وتشعل الحمية والغضب: هُبّوا لكرامتكم، ثوروا لأعراضكم.

كان الكونت ينظر إلى تلك المرأة الخرقاء المجنونة، وقد أسكرته نشوة النصر والغلبة، وتطلعت إليها خوانا باستهانة. لكن النخاس اشتم رائحة الخطر في كلماتها، وقرأ تغيرًا في الوجوه، وتبدلًا في الملامح بحكم خبرته الجيدة بالبشر، التي اكتسبها من مهنته، وفهم أن كلمات فاتيما النارية ترسل رياحًا من الغضب في نفوس الملأ من المدجنين، فصرخ في الحرس: ائتوني بها.

اشتعل المكان بالهمهمات الغاضبة، وأصوات الاعتراض الواضحة، وارتفع صوت فاتيما أكثر، واحتدت كلماتها الثائرة، وهي تصرخ في الناس بكل قوتها: ثوروا لدينكم، ثوروا لأعراضكم، ثوروا لربكم.

اشتعلت روح الجندي بالغضب، واستنفرت عروقه عندما رأى الحرس يتجهون نحو فاتيما؛ فجرى مخترقًا الجموع؛ عله يصل إليها قبلهم، وأسرعت عائشة نحوها عندما رأت الخطر في طريقه إليها، واستطاعت أن تصل إليها قبلهم، وأمسكت يدها تجرها إليها؛ لتهرب بها من المكان قبل أن يمسك بها الحرس، لكن فاتيما التي بلغ بها اليأس

مبلغه، وضاع عمرها تحت وطأة الظلم، وانهزمت أحلامها في ظلمة البغي، وداستها أقدام أراذل الخلق؛ لم يعد لديها شيء تخسره، فوقفت مكانها، وظلت تصرخ في الناس، وتستصرخهم؛ لينقذوا أميرهم حتى وصل إليها الحرس وانتزعوها من يد عائشة ومن بين الناس وجروها إلى داخل السياج وقيدوها إلى عمود خشبي طويل إلى جانب المنصة، وهي لا تكف عن الصياح، واستصراخ الناس.

وسَادَ الهرجُ بين المدجنين، وبدأ صوتهم يعلو؛ فهتف النخاس بالكونت: مولاي، يجب الانتهاء من هذا الأمر الآن، اقض عليه في الحال؛ حتى يرتدع المدجنون.

أشار الكونت للجلاد الذي حمل المشعل، وتقدم نحو المنصة بثبات، عاد الجندي لخوليو بعد أن فشل في اللحاق بفاتيما، فوجده على حاله يقرع رأسه بالجدار، ويندب حظه، وهو يبكي بحرقة: لماذا! لماذا تعاقب أمي بذنبي؟

أخذ يتأمله بدهشة: تتحدث عن من؟

استمر في ما يقول، ولم ينتبه له: لم تحرق قلبها على أغلى ما لديها؟ أين رحمتك؟ أين عدلك؟ أأنت إلهٌ حقًّا؟ تحرقه بذنبي وتعاقب أمي لخروجي على طاعتك؟

استبشع الجندي كلماته؛ فقبض على عنقه، وأجبره على الوقوف، وصرخ فيه: تأدب أيها الجاهل الحقير، أين ما تعلمته من دينك؟ من قال لك إن الله ينصر من فرط في دينه وأرضه من أمثالك، وأمثال المدجنين

من الجبناء المتخاذلين، أنتم من أضعتم الأندلس، وفرطتم في دينكم، وغدرتم بقائدكم، وأسلمتموه للأعداء، دماؤه في رقبتكم جميعًا، عدل الله فيكم أن يسلط عليكم شرار الخلق بعد أن أضعتم خياركم. لن أكون مثلك أبدًا، لن أيأس أبدًا، ولن أبكي كالنساء، ولن أبحث عن جدار أتوارى خلفه.

ارتفعت أصوات الناس، وعلا صياحهم، فالتفتا تجاه الساحة، ورأوا فاتيما المقيدة إلى عمود، والنخاس يلطمها على وجهها بعنف؛ ليسكتها، والدماء تنزف من فمها وأنفها، وصياحها يعلو ويشتد، لم تهتم بطلب النجدة، ولم تطلب النجاة لنفسها، بل كانت كل كلماتها عن الأمير تستحث الناس لينقذوه.

أمسك النخاس بفكها بقوة، وصرخ فيها: اخرسي أيتها المومس، خطئي أنني لم أقتلع لسانك حين تمكنت منك، سأقتلك قتلة تكون حديث ثرثرة النساء إلى الأبد.

استمر صراخها في الناس، وهي تكرر كلماتها وتعيدها، فأثارت غضبته وقال: سأقتلع لسانك، وأعلقه على باب بيتي؛ ليذكرني بك أيتها الخبيثة.

أمسك بثيابها، ومزقها من على جسدها؛ فاشتعلت الساحة بالهتاف الغاضب، لكن فاتيما لم تهتم، واستمرت فيما تقول دون توقف. كانت تدرك أنها مقتولة من أعوام، منذ فقدت الأمن والعدل، وانتهكت حرماتها، لم تعد تبالي بما يفعلون بها، لكنها لن تسكت على ظلم، على حرق الحلم، فلا تملك سوى لسانها.

أشار النخاس لخدمه، فأحضروا صندوقًا خشبيًّا يحوي مجموعة من الأدوات الحديدية الخاصة بالتعذيب، اختار منها كلّابة خاصة بانتزاع اللسان من الحلق، وأمر خدمه أن يمسكوا برأسها، ويفتحوا فمها.

كان الأمير مقيدًا إلى الصاري، يراقب ما يحدث لفاتيما بقلب يتفطر من خلف القماش الأسود، الذي غطى وجهه، والجلاد يحمل المشعل، ويتجه إلى المنصة بخطوات عسكرية.

وعائشة تجري حول السياج، وبين الناس تبحث عن منفذ لتدخل إلى الساحة، وتساعد فاتيما. اقتربت من مكان فاتيما، وانحنت وأدخلت رأسها بين القضبان، ثم إحدى كتفيها، وبدأت تحرك جسدها بصعوبة؛ لتنفذ من بين قضيبين من السياج، حتى نجحت بجسدها النحيف المرن في اجتيازه في غفلة من الحرس المشغولين بإسكات غضب الناس، وثورتهم التي اشتعلت لمرأى ما يحدث لفاتيما.

اشتعل الغضب كاسحًا في نفس الجندي، وهو يرى حرمات امرأة تنتهك أمامه، فاستلَّ سيفه بقوة؛ فهتف به خوليو، وهو يبكي: وماذا بيدك أن تفعل!

قال بصوت يرعد: سأقوم بما يتوجب عليّ حتى أستحق أن ألقى الله شهيدًا.

تقدم خطوتين، ثم توقف، ونظر إلى ملابسه، وأخذ ينزعها عن جسده بسرعة، وهو يهتف: والله، لا ألقى الله، وأنا في ملابس الأعداء أبدًا.

وقف حافي القدمين عاري البدن والرأس، إلا من سرواله الطويل، والضماد الذي يغطي أعلى جسده. كان يفضل الموت ألف مرة على أن يرى عرضًا يُنتهك، وامرأة تغتصب. هو يعلم- يقينًا- أنه مقتول هو وكل من يفكر بالتدخل بعد أن أحكم ريموند قبضته على الساحة والبلدة بأكملها، فأخذ يتمتم بكلمات خبيب بن عدي، ويناجي بها ربه، ويقوي بها عزيمته:

وما بي حِذارُ الموت، إني لميّتٌ

ولكن حذاري جحيم نار

مُلفع فلست أبالي حين أقتل مسلمًا

على أيّ جنبٍ كان في الله مصرعي

رفع سيفه أمام وجهه، ومس النصل أنفه، ثم أغمض عينيه بقوة، وفتحهما، واختفت من عينيه كل الصور والأشكال والبشر، ولم يتبق في عقله إلا صورة امرأة مقيدة يهتك رجل قميء عرضها، ويقتلع لسانها.

هجمت عائشة على النخاس، لكن أحد الحرس حال بينه وبينها؛ فرفعت سيفها وقتلته، لكن الحرس أحاطوا بها، وأخذت تضرب من في طريقها إلى فاتيما؛ لتصل إليها وتذود عنها، وأدركت أنها لن تنجو مع كل هذا العدد الذي يقف أمامها، لكنها كانت تقاتل بشجاعة فائقة لا تهتم لموت أو إصابة.

شعرت بظل يتحرك فوقها، فرفعت رأسها بسرعة؛ فرأت طائرًا يحجب قرص الشمس في السماء، ظنته عقابًا أو نسرًا، وعندما اقترب تبينت هيئته البشرية وسيفه المستل، وعرفت فيه الجندي الذي أبّنته في القلعة، ولا تكاد تصدق أنه لايزال حيًّا.

كان الجندي قد قفز قفزته الرائعة معتمدًا على كتف المدجنين، ومنها إلى كتف الحرس، وحلق لأعلى مجتازًا السياج؛ لينزل في وسط الساحة، وهو يلقي بسيفه بكل قوته على ذراع النخاس الممسكة بالكلّاب؛ لتفصله عن جسده، وتلقي به على الأرض.

واحتبست أنفاس الناس من المفاجأة للحظة، إلا أن الجلاد استمر يتقدم، وهو يحمل المشعل حتى وصل إلى المنصة، ومد يده ليشعل النار في الحطب والقش، وتتكفل السوائل سريعة الاشتعال بإحراق كل شيء فوق المنصة وتحتها. لكن سهمًا من أعلى اخترق رقبته ولم يمهله حتى ينفذ مهمته، وسقطت جثته أرضًا وبجوارها المشعل، وتفجر صراخ الجميع من الفريقين، وكان أعلاهم صوتًا هو النخاس، الذي رفع عقيرته بصيحة ألم مدوية، وهو يرى الدماء تتفجر من ذراعه، ويده لم تعد في مكانها.

والتف حوله خدمه وجواريه، وحملوه بسرعة ليخرجوه من المكان وهو يندب، ويصرخ ألمًا، ودماؤه تنزف على الأرض، وهو يصرخ في خدمه: يدي، يدي لا تتركوها، أعيدوها إليّ.

بدا الأمر في تلك اللحظة كبركان يتفجر، ويقذف بحمم ملتهبة في كل صوب واتجاه، وبدأت أمطار من سهام تأتي من أعلى تعرف طريقها إلى فرسان القلعة وحرسها، واشتعل الغضب عارمًا في نفوس المدجنين، وحاولوا دفع السياج الحديدي واقتلاعه من مكانه، وهم يرون الفوضى والجنون انتشر بين الفرسان والحرس. وكأنه عفريت انطلق من قمقم يضرب ويقفز، ويُعمل سيفه في الجنود والحرس، وهم عاجزون عن ملاحقته.

يكرّ بضربات قاتلة، ويفرّ قبل أن يضعوا يدهم عليه.

وجذب زاك خوليو، وهو يصرخ: هيا؛ لننضم إليهم. هيا، قم.

نظر إليه خوليو بيأس؛ فصرخ في وجهه: يوشك الناس أن يحطموا السياج، الشاب الذي أنقذناه هو.. هو الفارس الأسود، لا أحد غيره يستطيع أن يفعل ما يفعله، هيا لننضم إليه.

نهض معه بسرعة، وانضم إلى الحشود التي تدفع بالسياج وتحطمه، لكنه عجز عن مواجهة الجند والحرس.

كان المشهد عجيبًا لكل الناظرين، فتى لا يملك إلا سروالًا وسيفًا، تغطي الضمادات جسده، وخصلات شعره الأشقر تطير على وجهه وتثور لحركته؛ يعيث في الحرس والجند طعنًا وتقتيلًا، ولا أحد يستطيع اللحاق بسرعة حركته، وخفة جسده.

كل شيء في الساحة من بشر وحجر وخشب وحديد وحتى حيوان، هو موطئ لقدمه ومرتكز لقفزاته التي يستثير بها جنون الحرس.

لم يشهد أحد مثل مهارته في الكر والفر، في الطعن والقفز، كقرد صغير أُطلق بعد طول أسر في غابة مليئة بالأشجار.

وتفجر الجنون في المكان؛ فانقضت عائشة على الحرس طعنًا بسيفها، وكأنما تفجر يأسها وغضبها انتقامًا وتنكيلًا، وقطعت بسيفها حبل فاتيما؛ فقفزت كنمرة متوحشة انتزعت قيودها، فلكمت أقرب الحرس إليها في أسفل بطنه، ثم أحاطت ذراعها رقبته من الخلف، ونهشت أذنه بأسنانها؛ حتى قطعت لحمها. والتفتت إلى آخر، ورمت الخوذة عن رأسه، وقبضت على شعره بغلٍّ، ونطحته بقسوة كبش إفريقي يتحدى قرينه، ثم حملت حجرًا ضخمًا، وقذفته في رأس جندي آخر شجَّته؛ فخَرَّ أرضًا، ثم أطلقت صرخة حرب مدوية، وهجمت على أحد الحرس الصرعى، وانتزعت سيفه، وأخذت تضرب به كيفما اتفق، فعاثت تقتيلًا في كل من يقع عليه سيفها.

قفز الجندي قفزة عالية، واستقر فوق حصان خوانا حتى بات على مسافة ذراع من الكونت، الذي كان فرسه بجوار فرسها، والتقت عيناه بعينيه في لحظة توقف عندها الزمن، وتلاشى فيها كل شيء حولهما، حتى سمع كل منهما أنفاس الآخر، وتجمد ريموند وهو ينظر في عيني فهد أشقر، يحمل سيفًا، ويهم بالانقضاض عليه ليقتلع رأسه.

شلت المفاجأة حركته؛ فلم يتوقع في أسوأ كوابيسه أن يخترق أحد حرسه الخاص وفرسان القلعة، ويصل إليه بسيفه؛ ليكون على هذه المقربة منه. وفي لحظة، ظن أن رقبته طائرة لا محالة.

شعر الجندي بالصيد الثمين، الذي ساقه الله إليه دون تدبير منه، وأدرك أن قتل ريموند سيحدث هرجًا وفوضى لن يستطيع أحد السيطرة عليها، فرفع سيفه عاليًا، وقبْل أن يحركه انطلقت صرخة خوانا المدوية، أعقبها هجوم عنيف من الحرس عليه، وكادوا أن يفتكوا به لولا أن ضرب قدميه بقوة في ظهر الحصان، وطار لأعلى، وهبط على الأرض خلف الحرس، وتشقلب عدة مرات على يديه ورجليه، حتى استقر- أخيرًا- على قدميه ليجد نفسه وجهًا لوجه أمام عائشة بلثامها وسيفها المضرج بدماء الأعداء.

تطلع إلى عينيها المرتسم فيهما القسوة والشراسة والشجاعة، وفوجئ بها تنقضّ عليه، وسيفها الفتاك يسبقها إليه، فقفز باتجاهها في نفس اللحظة مشهرًا سيفه، مطلقًا صيحة هادرة، وتجاوزها ليقتل جندي خلفها يهم بتوجيه ضربة ساحقة لظهرها؛ لتطعن هي في نفس الوقت جنديًّا يقف خلفه، كاد أن يقتلع كتفه بضربة سيف.

وقف الجندي يلتقط أنفاسه، تدور عيناه في المكان، وينظر إلى الحرس والجند بتحفز، وقعت عينه على ظل سيف على يساره ارتسم على الأرض، فكاد يلتفت خلفه، لكنه أدرك في لمحة عابرة أنها خلفه تمامًا، صار كل منهما ظهره إلى ظهر الآخر، يضرب وهو مطمئن إلى أن ظهره مؤمَّنٌ لن ينكشف لعدو، وعجز الحرس والجند عن اختراق الدائرة التي صنعاها بسيفيهما، واكتمل نصفاها بحماية كل منهما للآخر؛ فصار كل من يقترب منها صريعًا بصعقة سيف.

بلغ التوتر من ريموند مبلغه، وهو يتراجع للخلف بفرسه، فأخذ يصرخ على الحرس: اقتلوه، اقتلوه.

أوضحت خوانا كلماته المرتبكة، فصرخت: احرقوا الأسير.

وانسحبت من الساحة في حماية عدد كبير من الحرس، عندما وجدت الناس يقتحمون السياج الحديدي، وينضمون إلى المعركة الرهيبة في الساحة، ويقتلون كلَّ من يقف في طريقهم من جند أو حرس، والسهام تصيب أهدافها بدقة، وشعر ريموند بالخطر الشديد عندما قتل سهم من أعلى أقرب الحرس إليه، فانسحب من المكان في حماية حرسه الخاص، وهو يصرخ: احرقوا الأسير.

التفت الجندي يواجه عائشة، وقرأ في عينيها نذير الخطر الذي صاح في عقله، فاندفعا كسهمَيْن انطلقا عن قوس واحد يتسابقان إلى المنصة، وتتابعت قفزاتهما في ارتقاء السلم الخشبي، لكن شعلة نار انطلقت من أحد الحرس، تشق الهواء قبل أن يسقط صريعًا بضربة هائلة على رأسه من سيف فاتيما.

لكن الشعلة كانت قد انطلقت، ووصلت إلى المنصة لتندلع نيران الجحيم أسفل الأمير، وتضطرم ألسنة اللهب في المنصة كلها. وعائشة والجندي فوقها يحاولان فك قيود الأمير بضربات سيفيهما المتبادلة فوق القيد الحديدي، فكان يرى الشرر من قوة الضربات، لكن السيفان عجزا عن كسر القيد، والنار تعلو وتشتد، فاتجها إلى فكرة أخرى، وهي

كسر العمود الخشبي، وبدون أن يتبادلا أي كلمة توافقت الفكرة في عقليهما في نفس الوقت، وشرعا ينفذانها بضرباتهما المتبادلة على الصاري الخشبي؛ ليشكِّلا فجوة تتسع مع كل ضربة.

ومن بين ألسنة النار، شاهدا عربة كبيرة تقتحم الساحة يجرها حصان قوي تشق جموع الناس، والجند المتقاتلين، حتى وصلت إلى المنصة، وفوجئت عائشة بالفارس الأسود فوقها، وانتابتها رجفة قوية عندما هاجمها ذلك الخاطر من جديد، أن أباها ليس هو الفارس الأسود.

ألقى باتجاههما حبلًا سميكًا، فالتقطه الجندي بسرعة، وأشار له الفارس الأسود أن يربطه جيدًا حول الصاري ففعل، بينما هو يربط الطرف الآخر في العربة، ثم تسلق الحبل، وعبر من فوق النيران حتى وصل إلى المنصة، ثم أخرج بلطة ضخمة، وضرب بها القيود الحديدية عدة ضربات؛ فانفصمت السلسلة الحديدية، وانفكت قيود الأمير.

كانت النيران ترتفع بسرعة، وتأكل كل شيء، وبصعوبة تعلق الفارس الأسود بالحبل، وانزلق حتى قفز على العربة، وتبعته عائشة ثم الأمير الذي لامست النيران جسده، وكادت تحرقه لكنه قلب جسده وتأرجح ملقيًا بثقل جسده باتجاه العربة، ونجح في القفز إليها. لكن المفاجأة التي أفزعتهم أن الحبل انقطع بعد أن وصلت له النيران وأضعفته، وشكَّل جسد الأمير حملًا ثقيلًا، لم يتحمله الحبل المهترىء من النيران.

اتجهت نظرات الجميع إلى الجندي الذي احتبس فوق المنصة، وعلت النار من حوله، وأحاطت به حتى اختفى عن الأعين. اندفع

الأمير نحو المنصة، لكنه لم يجد ما ينفذ به إليها، وقد تحولت إلى كتلة من النيران الملتهبة.

تجمد الجميع في أماكنهم، وشلتهم المفاجأة القاسية، وملأت القلوب بالحسرة والألم للمصير الرهيب للجندي المناضل.

ذرفت فاتيما الدمع على ذلك الشاب الذي أنقذها في أقسى لحظات اليأس، وانهمرت دموع عائشة غزيرة، والألم يكاد يقتلها، وانهار خوليو أرضًا بعد أن هزمه اليأس، وقد احترق أمام عينيه من ألقى بشعلة الأمل في قلبه، وخَرّ زاك باكيًا، واشتعل قلب الأمير بلهيب الغضب، وتجمد الفارس الأسود في مكانه.

لكنْ فجأة، سمعوا صوت ضربات متتابعة قوية، ورأوا الصاري يهتز بعنف، ثم يسقط باتجاه العربة صانعًا جسرًا يخترق النيران، ويفتح طريقًا خلالها، بدا في آخره الجندي ممسكًا بالبلطة الضخمة، والعرق يكسو جسده المتوهج باللون الأحمر من فرط الحرارة.

انطلق يجري فوق الصاري، حتى خرج من بين ألسنة اللهب، وقفز فوق طرف الصاري؛ ليحلق لأعلى فوق ألسنة النار، ودار جسده دورتين في الهواء، ثم نزل فوق العربة، وهو يكاد يفقد الوعي من شدة الجهد الذي بذله، والحرارة التي نالت منه، ولم يسمع حوله سوي صوت فاتيما، وهي تصرخ من شدة الفرح قبل أن يفقد وعيه.

وانطلقت العربة تغادر الساحة، وخلفها معركة ضارية يتم فيها طحن الحرس وفرسان القلعة من قِبَل كتيبة المئذنة والمدجنين، حتى

قضوا على آخر المتواجدين بتطلع الناس إلى بعضهم البعض، وكأنهم لا يصدقون، ثم استوعبوا- أخيرًا- كلمات فاتيما، فانطلقت صيحات الفرح والنصر العارمة في الساحة والطرقات، وسار الناس يرقصون ويغنون أغاني النصر بالعربية والقشتالية.

***

اقتحم ريموند القاعة التي بها بهلول وعمرو، وهو يصرخ غضبًا، ويسب سبابًا قاذعًا، ثم انقض على بهلول، وجرَّه من شعره الأشعث، وعمرو يراقب بدهشة، واختفى يعقوب خلف مقعد كبير، وهو يرتجف رعبًا.

صرخ ريموند في وجه بهلول: اسمع أيها الشحّاذ القذر، إن لم تنه هذا السلاح الليلة؛ فسأحرق هذا الفتى أمام عينيك، وأحرق جسدك العفن خلفه، لن أمهلك سوى الليلة فقط.

أخذت عيناه تبحثان في القاعة عن يعقوب حتى رأى جزءً من ثيابه، يخرج من خلف المقعد، فصرخ به: وأنت أيها السّكير القذر، راقبه جيدًا، وإلا ألقيت بك من فوق أعلى برج في القلعة.

غادر ريموند المكان كعاصفة هوائية ثائرة.

استفاق يعقوب من رعبه، وصرخ فيهما: لم تقفان هكذا! هيا نفّذوا أوامر الكونت، وإلا أهلكتمونا جميعًا.

ألقاه بهلول بنظرة احتقار، وتمتم قائلًا: لكم أَوَدّ أن يكون هلاكك على يديّ، أيها الخائن الخسيس.

اندفع ريموند إلى الغرفة، التي يعالج بها النخاس، وحوله الأطباء يضمدون جراحه، وفوق رأسه العبيد يروحون على وجهه بالمراوح، وجواريه يمسحن على وجهه وجسده ويلاطفنه، وهو يتأوه، ويصرخ في كل برهة: آه، أين يدي؟

للمرة الثلاثين، قرّبت إحدى الجواري منه صندوقًا زجاجيًّا، وضعت فيه اليد المقطوعة بعناية، فصرخ ثانية، وهو يتأملها بحسرة: آه يا يدي الجميلة، آه يا يدي السمينة، قطعوها وأي يد قطعوا!، ذلك القرد القافز، لو أمسكت به لسحقته بين أصابعي.

أتم جملته، وهو يرفع ذراعه أمام عينيه، وعندما تذكر أن يده غير موجودة تأوَّه باكيًا، وهو يرفع الأخرى، ويحرك أصابعه كما لو كان يسحق حشرة بينها، وشاركنه الجواري البكاء والعويل.

والأميرة خوانا تقف أمام مرآة كبيرة في ركن من الغرفة تتميز غيظًا، وتبلل منديلًا في طست من ماء الورد أمامها، وتمسح على وجنتيها وجبينها محاولة تهدئة روعها، واستعادة هدوئها، الذي فقدته اليوم عندما قفز ذلك الشيطان الغرناطي فوق فرسها، وأصبحت رأسها الجميلة الغالية على مقربة شبر من سيفه.

وعندما رأت زوجها، هتفت غيظًا: أرأيت ما فعلتْهُ بنا رعونتك، وسوء إدارتك للأمور!

هتف بغضبة هادرة: اخرسي، وإياك والحديث معي بتلك الكلمات.

التفتت إليه، وفردت مروحتها بحركة غاضبة، وأخذت تروح بها بعصبية، قائلة بسخرية مستفزة: يا لزئير الأسد المرعب!، أين كانت تلك الشجاعة وأنت تتجمد رعبًا أمام فتى حافٍ عارٍ، كاد يجتز رأسك بسيفه، لولا صراخي على الحرس.

هجم على عنقها، وأمسكه بين أصابعه، وهو يصرخ: لو لم تكوني زوجتي لسحقت عنقك.

نظرت إليه بتحدٍّ، وقالت باحتقار: حاول أن تفعل هذا بأميرة من البلاط القشتالي، وسيكون غدًا على كرسيك أمير قشتالي حقيقي يحكم الحصن بالإنابة عن ملك قشتالة، أيها الكونت.

ترك رقبتها عندما فهم من تعني، إنه ذلك الحبيب القديم في البلاط القشتالي الذي انتزعها ملك قشتالة من بين أحضانه؛ ليرسلها جاسوسة عليه وعلى الحصن والبلدة، تحت مسمى زوجة الكونت.

كان ريموند يمقتها مقتًا من أول لحظة، دخلت فيها الحصن، لكنه قبل صاغرًا بشروط ملك قشتالة؛ للاحتفاظ بالحصن، والأراضي الشاسعة الخصبة التي حوله.

هتف النخاس الذي كان يدرك كل ما يدور بينهما، ويعيه جيدًا، فأراد أن يعيد الصراع إلى مجراه الطبيعي، ويوجه حقد ريموند إلى الأعداء: الانتقام، الانتقام سيدي الكونت.

التفت إليه ريموند، وقال بغلٍّ: سأنتقم منهم انتقامًا لن يبقي، ولن يذر.

هتف النخاس بغلٍّ يخالطه النحيب: نعم سيدي، إنه الانتقام. وخاصة تلك العاهرة النجسة فاتيما، وأهل البلدة المتمردون.

قال بصوت يقطر حقدًا: ستكون حياتهم جحيمًا مستعرًا، يتمنون معه الموت ألف مرة.

سأجد ذلك الشيطان الغرناطي وأميره، حتى لو أحرقت البلدة بمن فيها.

(هأ، الغرور والحمق مرض الرجال)

قالت خوانا بأكبر قدر من السخرية والاستهزاء، واشتعلت النار في عروق الكونت، لكنه كتم غضبه العارم خلف نظرة مقت، وتجاهلت خوانا مشاعره، وأكملت: سأتولى أنا أمر إيجاد الأمير والشيطان الغرناطي، واهتمَّ أنت بتأديب المدجنين.

رفعت إحدى حاجبيها، وقالت بمكر: تلك الأمور لا يقدر عليها إلا النساء.

***

(12)

كان يومًا لم يشهد المدجنون مثله منذ أن سقط الحصن في قبضة ريموند.

تفجر الفرح العارم في أحياء المدجنين، وخرج الناس كلهم رجالهم ونساؤهم، صغيرهم وكبيرهم، يرقصون ويغنون في الأزقة والطرقات. واجتمع أغلبهم في الساحة الكبرى التي شهدت المعركة، والتفوا حول خوليو الذي أمسك بقيثارته، وأخذ يعزف عليها، ويغني أغاني النصر الحماسية، والكل حوله يردد خلفه ويصفق بحماس، وكلما انتهى من أغنية؛ يطلبون المزيد.

كانت المشاعر ملتهبة، والأرواح متحمسة، والقلوب متفائلة، وكأن نصرهم على فرسان القلعة، وعودة أميرهم؛ أشعلت في نفوسهم الأمل بالحرية والخلاص من الطغيان والعودة إلى أحضان غرناطة واستعادة كل ما انتُزِع منهم.

وكان خوليو أكثرهم سعادة، استفاق من سكرته، وغمَرَتْه مشاعر الحماس والأمل، ولم يعد متعطشًا للخمر.

كانت المرة الأولى التي يغني فيها باللغة العربية من سنوات طويلة، وكأنما عادت إليه روح عامر لا خوليو.

وقف مجموعة من التجار يراقبون من بعيد ذلك الجمع المنتشي بالسعادة، والمرتوي بالحماسة، وصوت الأهازيج والأغاني الحماسية والفرح بالنصر؛ يصل عنان السماء.

قال شيخ التجار، وهو يضغط أسنانه: أغبياء لا يفهمون! أشعلوا غضب الكونت، ولا شك أنه الآن يتحرق غضبًا لكرامته، ويعدُّ العدة لإحراق البلدة بمن فيها.

قال تاجر العطور: ونحن الخاسر الأكبر، ستبور تجارتنا، ونفقد الكثير من الأموال!

قال آخر: هؤلاء المجانين يحلمون بالنصر على الكونت، وعودة أميرهم، لكنهم سيشهدون نهايته على يد الكونت، ونهايتهم أيضًا.

قال شيخ التجار: ملك قشتالة لن يقف متفرجًا. بالتأكيد، سيتدخل بجيش كبير؛ لدعم فرسان القلعة لإخماد الثورة.

فجأة، أصيب التجار بالفزع، وتراجعوا بسرعة إلى دكان شيخ التجار، وأغلقوه عليهم؛ عندما اندفع إلى الساحة أعداد كبيرة من فرسان القلعة، هاجموا المتواجدين بالساحة، وعاثوا فيهم طعنًا وتقتيلًا، والناس تجري فزعًا في كل اتجاه، وتفرُّ من الموت المحمول على ذؤابة السيوف.

وانفض الجمع، ولم يتبقَّ في الساحة إلا الجثث، وأشباه الجثث، وفَرّ خوليو من المكان بعد أن تحطمت قيثارته، وأصيب بجرح في كتفه، وعاد إلى الحانة من نفس الطريق الذي قطعه مع زاك والشاب

الغرناطي. وعندما وصل شعر بالأمان، وزحف أسفل الفراش يبحث عن قنينته وهو يرتجف، لكنه فوجئ برائحة عطر ساحر تغمر المكان فجأة، كانت رائحة لا تخطئها ذاكرته، وعندما وجد أمامه خفّين فاخرين؛ عرف صاحبتهما على الفور قبل أن يرفع عيناه ليسقي شوقه من عينيها البارعتين الجمال. ظن أن الخمر تلعب برأسه، وتهيء له صورتها، لكنه أدرك أن ما كان يلعب بعقله حقًّا هو رائحة عطرها، وروعة عينيها.

ما الذي تريده منه!؟ كانت المرة الأولى التي يهرب فيها عقله من سيطرة أسلحتها الفتاكة؛ ليلح عليه بهذا السؤال.

لم يكن يهتم- قبلًا- بما تريده منه، رغم أنه كان- دومًا- رهن إشارتها وطوع أمرها.

تلك الجارية الصغيرة التي تجيد فنون السحر والدلال والغزل والملاطفة، رغم أنها من عمر أخته عائشة.

لماذا الآن؟

***

ملَّت عائشة من الجلوس بجوار النافذة الصغيرة في بيت الأعرج؛ تراقب عودة أبيها، فتنهدت بضيق، وسألت الأعرج: متى سيعود الأمير؟

الأعرج: أدعو الله أن ييسر له أمره، هو وجنود كتيبة المئذنة.

فاتيما: أتظن أن بإمكانهم العثور على مخزن السلاح بعد كل تلك السنوات، وفي ظل الجنون الذي استشرى بين فرسان القلعة؟

الأعرج: أثق بأن الله سيهديهم إليه، لقد حافظ عليه سعد- رحمه الله- طوال تلك السنوات دون أن يعلم أحد عنه شيئًا، كان لديه يقين دائم أن الأمير سيعود يومًا ليقاتل من أجل استعادة حصنه.

كان الجندي يجلس خلف عمود خشبي في ركن من البيت يضع الضمادات المبللة بالماء فوق حروق يديه؛ ليهدئ من لهيبهما، وبرغم أنه قضى فترة صباه بالقرب من النار؛ لعمله في دكان الحداد، وأصابه بعضٌ من ألمها مرات عدة؛ إلا أن هذه النار ليست كأي نار رآها من قبل، وألمها لا يشبهه ألم آخر.

أخذ يتمتم في سره بالدعاء أن يصرف عنه الله حرَّ جهنم، وأن يعتق رقبته من النار. والتزم الصمت فلم يكن به رغبة لمشاركة الآخرين الحديث، لكنه أنصت لحديث الأعرج، وهو يكمل: كان خيرًا منا جميعًا، لم ينتابه الشك ولو للحظة واحدة أن الأمير سيعود يومًا للجهاد بعد كل ما ألمَّ به في غرناطة.

قالت بأسف: لقد عاد إلى هنا؛ ليعيدنا إلى غرناطة.

قال الأعرج، وهو يهز رأسه نفيًا: بل لينقذ صالح من بين أيديهم، ويوقف جنون ريموند. الأمر الآن تجاوز جهاده لاستعادة أرضه وحصنه إلى إنقاذ غرناطة، بل درء الخطر عن مغرب العالم الإسلامي ومشرقه.

منذ زمن بعيد كان الأمير يغير على الحصن، وينازل فرسان القلعة هو ورجاله في معارك خاطفة ومستمرة؛ لاستنزاف قواتهم وإنهاكهم، حتى أوغر الأمراء صدر أمير غرناطة ضده، وأقنعوه بأن ما يفعله

سيفسد المعاهدة بينه وبين ملك قشتالة، فأمر بسجنه إلى حين، ثم عفا عنه تحت ضغط من بعض الأمراء الشرفاء والعلماء الربانيين. وبمجرد أن حصل على حريته، انطلق يعاود الجهاد، لكن هذه المرة في ثوب الزهاد السائحين في البلاد.

قالت بدهشة: إذًا، فعندما كان يتركنا بالشهور، ويخبرنا بأنه خارج للسياحة في أرض الله والدعوة في سبيل الله؛ كان في حقيقة الأمر ذاهب للجهاد مع رجاله.

قال مؤكدًا: لم يكف يومًا عن محاولاته لتحرير حصنه إلا عندما انكسر ظهره.

انتبهت لكلماته باهتمام، وأصغى الجندي لحديثه دون أن يلتفت، وقالت فاطمة بسرعة بديهة: إنه خوليو، أليس كذلك؟

هز رأسه، وقال بحسرة: نعم، ابنه الأكبر عامر، دسوا له جارية من الأعداء أهداها إليهم أحد الأمراء الخونة، كانت مهمتها دس السم للأمير، فإن لم تستطع فلتعمل على إغوائه، لكن الأمير في تلك الآونة كان دائم الغياب عن المنزل، يخوض حربًا ضروسًا مع فرسان القلعة، فلم تستطع الجارية أن تطوله، لكنها لم تشأ أن تخرج من البيت بيد خالية فأحكمت شباكها حول ولده الأكبر.

هتفت بدهشة: لكن عامر يتلقى العلم في إفريقية، كما أخبرتني أمي!

قال بأسى: وهل كانت تستطيع إخبارك بأنه لم يعد «عامر»، بل صار خوليو مغنى الحانات النصراني القشتالي!

انهمر الدمع من عينيها، وقالت بصوت متقطع من الصدمة: ترك دينه وموطنه وأهله من أجل ماذا!

أكمل الأعرج: بعدها لم يعد الأمير كما كان أبدًا، وأدرك أن غرناطة تعيث فيها الخيانة من شرقها لغربها، وأن أولاده بحاجة لحماية، وأنهم مسئوليته الأولى التي سيحاسبه الله عنها، وأن ابتعاده عنهم كل هذه المدة هو السبب في فقده لولده. وتحقق لريموند ما أراد، وهدأت المعركة بينه وبين الأمير.

قالت بصوت باكٍ: أدرك الآن لمَ أمي حزينة كسيرة الفؤاد دائمًا، فولدها الأكبر لا هو بميت، ولا هو بحيي. لقد حطم عامر قلب أبويه- عليه لعنة الله-.

انتبه الجميع فجأة أن الجندي معهم في نفس البيت عندما نطق أخيرًا: لا تلعنيه، ربما تاب وندم بينه وبين ربه.

قالت، وهي تعض شفتها بغضب: لو كان تاب لعاد إلى غرناطة.

قال بهدوء دون أن يلتفت: وكيف يعود والكل يلعنه! وإن أقسم أنه تاب فلن يصدقه أحد.

أحدثت كلماته في نفسها أثرًا لم تبده لأحد، بل هتفت بعناد: ومن أين لك أن تعرف!

قال بعد برهة صمت: لأنني التقيته، وتحدثت إليه.

هتفت بلهفة: التقيت أخي عامر!

تبسمت فاتيما من لهفتها، ومشاعر الحب الأخوي التي غلبت نقمتها وخرجت عفوية تعلن اشتياقها لأخيها.

أجاب الجندي: نعم، واستشعرت في حديثه كم هو نادم وراغب في التوبة والعودة، لكنه لا يجد من يعينه على نفسه، وعلى مواجهة الآخرين. لا يجد من يشجعه على التغلب على شعوره بالنبذ والرفض من أهله وأبناء دينه.

قالت: ولم لا يعود؟ لم لا يجرب؟ كما غامر وألقى بكل شيء خلفه ولم يعقب. عليه أن يبادر ويعود بنفسه، ستسامحه أمي بالتأكيد.

قال الجندي: إذا قدر الله لنا الحياة، ونجحنا في الخروج من هنا، سأحاول معه ثانية، وسأبذل كل ما أستطيعه لطمأنته وإقناعه، فلقد لمحت في عينيه رغبة قوية للعودة.

تمتمت بأمل ولهفة: يا رب.

عندما عاد الأمير، سأله الأعرج عمَّا أخَّره؛ فأجاب: لقد انتشر الجند في كل مكان في البلدة، وحبسوا الناس في بيوتهم، وأي إنسان يسير في الطرقات؛ يقتل على الفور دون أن يتبيّنوه، واضطررت أنا والرجال لأن نفترق، ونتخذ شبكات المجارير وتصريف المياه للتنقل؛ حتى لا يقع السلاح في أيدي فرسان القلعة.

أطلقت فاتيما سبابًا ساخطًا، وتساءلت بقلق: وماذا عن الناس الذين كانوا في الساحة يحتفلون بالنصر؟

قال: نكّلوا بهم، وأجبروهم على الهرب، وقتلوا منهم كثير، وهرب الباقون، وسيطر الجنود على الساحة، ونصبوا فيها آلات التعذيب والمشانق؛ لعقاب أهل البلدة.

خيم الصمت القلق على الجميع، وقال الأمير بصوت ينبئ بكارثة: لم يعد لدينا أي وقت، لا شك أن ريموند يضغط بكل وسائله الخبيثة على صالح لينهي عمله قبل الغد، وعلينا إيقافه مهما كان الثمن، لقد باتت غرناطة هي مقصد ريموند، وتدميرها وقتل كلِّ من فيها مؤكدٌ إن تمكن من الحصول على اختراع صالح.

قالت عائشة بسرعة: بل أصبح الإسلام في الأندلس هو الهدف، هم لا يريدون إسلامًا ولا مسلمين في آخر قطعة على أرض الأندلس.

تمتم الجندي موافقًا: ذلك هو رأي الشيخ أبي الحسن- رحمه الله-.

هزت عائشة رأسها مؤيدة.

قال الأمير بلهجة محذرة: الأمر جد خطير، فنحن قلة وإن كان معنا سلاح، وهجومنا على القلعة واقتحامها يعني أننا سنُقتل جميعًا لا محالة.

(ميتة في سبيل الله). كان الصوت الذي سمعه الأمير مزدوجًا؛ فأخذ يقلب نظراته بين عائشة والجندي الذين تلفظا بنفس الجملة

في آن واحد، وعلا وجهيهما الارتباك عندما انتبه الجميع إليهما، وأحاطتهما نظرات الباقين.

تجاوز الأمير الأمر، وعاد لتحذيره: إن التفكير والخطط والمآلات كلها تحيلنا إلى نتيجة واحدة، لا أحد يستطيع إنقاذ صالح.. أو عمرو، سيكونان أول ضحايا ريموند.

أغمضت عائشة عينيها بقوة، وظهر الألم في محياها، ثم قالت بشجاعة: أعلم أخي جيدًا، يتمنى الموت شهيدًا، ولا فرق لديه أن يموت في سجن القلعة أو يموت هنا معنا.

رنا إلى ابنته قليلًا، ثم التفت إلى الجميع: لقد بايع كل أفراد كتيبة المئذنة على الشهادة، أن يلقوا الله مقبلين غير مدبرين، ولن يذهب معي إلا من بايع بصدق على الشهادة، وعليكم أن تختاروا الآن..

(البيع الرابح)، التفت الجميع لهما ثانية، وابتسمت فاتيما من طرافة الأمر، وهي تقلب نظراتها بينهما، فالاثنان ينطقان بنفس الكلمة في صوت واحد دون سابق اتفاق.

أشاح الجندي بوجهه بعيدًا، وابتلعت عائشة ريقها بقلق، حتى قال الأعرج للأمير: مولاي، أنا سهم في كنانتك؛ فألق بي أينما شئت، فكلنا في كتيبة المئذنة بايعنا على الشهادة يوم أخرجنا من أرضنا وديارنا.

قال الجندي: نعم أبايع الله ورسوله أن أموت شهيدًا وأنا أدافع عن دين الله وأرض الإسلام.

وقالت عائشة: كما وعدتك يا أبت، أبايع الله أن أموت شهيدة، وسيفي في يدي.

ظهر التأثر العميق في ملامحه، لكن الجندي اندفع معترضًا: لا بيع للنساء على الموت، هذا غير مقبول.

التفتت إليه بوجهٍ محمَرّ من الغضب: لكن تركهن يدهسن تحت حوافر الخيل؛ مقبول! أن يرتاح الرجال في قبورهم، ويتركوا النساء سبايا للأعداء يلطخهن عار الرق مدى الحياة؛ مقبول!

التفتت إلى أبيها قائلة، برجاء: أبي، لن أقبل أبدًا أن أصبح أمة لجندي من الأعداء، بل سأموت ميتة كريمة.

تأثر الأمير بكلماتها الصادقة، وصمت الجندي مكرهًا، فكيف له أن يتكلم وأبوها حاضر!

واندفعت فاتيما قائلة: وأنا أيضًا أبايع على الشهادة.

قال الأمير: أنت في حلٍّ من ذلك، وهناك رجال يقومون بالمهمة، ليس عليك أن تسعي للموت.

قالت بسخرية مريرة: مولاي، أنا بالفعل مقتولة منذ زمن طويل، قد لا أكون سبيّة، لكنني أعامل معاملة السبايا، إن كنتم مقبلين على الموت فمالي في الحياة بعدكم! أنا الآن أختار بنفسي كيف أموت، ولو لم أفعل فسينكل بي النخاس بأبشع وسيلة، وأنال العذاب المهين في سجن القلعة قبل أن يقتلني شر قتلة. صدقني، إن موتي أفضل كثيرًا من



حياتي، حتى أظل محتفظة بإيماني في قلبي، وألقى الله على ذلك دون أن ينتزعه مني أحد.

تجهز الجميع، وارتدوا أسلحتهم ودروعهم، وساعدت عائشة فاتيما التي لم ترتدِ درعًا في حياتها، ولا تتقن الإمساك بسلاح، وأخذت تعطيها نصائح سريعة وتعلمها، حتى سمعوا طرقاتٍ على الباب، فتح الأعرج؛ فوجده زاك الذي قال، وهو يلهث من فرط الجري: الناس تمردوا على رجال ريموند ثانية، واقتحموا الساحة الكبرى، وقتلوا عددًا كبير من الحرس، وأجبروا الباقين على الانسحاب.

هتفت فاتيما، بفرح: تحرك الناس.

أكمل زاك: الساحة الآن تجمع أهل البلدة جميعًا.

فاتيما: إذًا فلسنا وحدنا، نستطيع أن نجيّش الناس، وننظمهم في كتائب لاقتحام القلعة، سأذهب إليهم على الفور.

هتف زاك: لقد أرسل الكونت لهم رسائل تهديد، إن لم يستسلموا؛ فسيحرق البلدة كلها بمن فيها.

قالت بقلق: وماذا كان ردهم؟

قال: قتلوا رسول الكونت إليهم.

صاحت فاتيما بفرح عارم، وأكمل زاك: وهم الآن يتداولون ويتساءلون ماذا سيحدث، وما الخطوة القادمة؟ وكيف يؤمنون الساحة ضد هجوم فرسان القلعة!

هتفت فاتيما بالأمير: مولاي، إنها لحظة فارقة، هم الآن بانتظار قائد ينظم صفوفهم ويرشدهم، إنهم بانتظارك مولاي.

أطرق مفكرًا، وطال صمته، وكل العيون معلقة به، حتى قال – أخيرًا: الناس يريدون من يقاتل لأجلهم لا من يقاتل معهم. فعلتها سابقًا، واعتمدت على الناس، وظننت أنهم سينصرون دينهم، ويقاتلون دون حريتهم وأعراضهم، وكلفني ذلك كل رجالي المخلصين، وهزيمة ساحقة تجرعت مرارتها لسنوات عشت فيها أتمنى الموت كل ليلة لأتخلص من عارها. أمام الموت لن يصمد إلا من تربى على حب الجهاد، أمام السيف لن يصمد إلا من كان الله ورسوله أحب إليه من الدنيا وما فيها. الناس تربَّوا على الذل والخضوع، وملأ الوهن قلوبهم، يخافون على أولادهم وبيوتهم وأموالهم ونسائهم، قد يثورون مرة ومرات، لكنهم أبدًا لا يصمدون أمام الموت.

قالت، برجاء: مولاي، دعني أحاول، لقد تغيرت أمور كثيرة منذ وقع الحصن في قبضة الكونت، ذاقوا الذل ألوانًا، ولم يعد لهم ما يبكون عليه، عودتك أحيت قلوبهم، وصارت الحرية أملًا تتوق إليه النفوس.

قال: افعلي ما تريدين، حاولي كيفما شئت، أما أنا فلن أركن إليهم، ولن آوي إلا إلى ركن شديد.

قالت: أنا لا أجيد لبس الدرع، ولا الإمساك بالسيف، ولا أتقن فنون القتال؛ لذلك سأكون عبئًا عليكم.

سأفعل الشيء الوحيد الذي أجيده، سأسعر نار الحرب، وأحفز الناس على اقتحام القلعة.

تبادل الجميع نظرات الأمل في انتظار ما سيقوله الأمير، حتى نظر- أخيرًا- إليها، وامتلأت عيناه بنظرات التأييد والتشجيع: حسنًا، فلتفعلي.

ابتسمت ابتسامة انتصار كبيرة، وانطلقت مع زاك إلى الساحة مودَّعة بالتشجيع والدعاء بالسلامة والنجاة.

واتخذ الأمير وكتيبته طريقهم عبر المجارير وقنوات الصرف نحو القلعة.

***

اشتعل قلب ريموند بالغضب الكاسح، والحقد الشديد، عندما علم بهزيمة رجاله للمرة الثانية أمام المدجنين وقتل رسوله، فاتجه من فوره إلى القاعة التي يعد فيها «صالح» اختراعه تحت رقابة يعقوب ومعه عمرو، وتبعته خوانا، وخلفها النخاس يحمله عبيده على سرير وثير، وحوله جواريه، وهو يتأوّه: آه، آه، الانتقام، فقط لو أضع يدي على تلك العاهرة النجسة سأذيقها العذاب ألوانًا.

وضعوا السرير في ركن من القاعة، وجلست الأميرة على كرسي كبير بجواره تراقب الكونت بشماتة، وأوداجه تنتفخ غضبًا، وهو يصرخ في صالح: انتهت المهلة، وإن لم أتسلم السلاح الآن؛ فسأحرق الفتى حيًّا أمام ناظريك، ثم ألحقك به في قعر الجحيم.

قال صالح بصوت مرتعب: لم يطلع النهار بعد، ولازلت بحاجة إلى بعض الوقت.

هتف آمرًا: أريده الآن.

قال بتوسل: وما حيلتي في ذلك؟ وأنا أبذل أقصى ما في وسعي، ولم أنته بعد!.

التفت الكونت إلى يعقوب الذي انتفض رعبًا من نظراته النارية، وهتف بارتباك: إنه، إنه يكذب، أستطيع أن أؤكد لك أن السلاح جاهز للعمل الآن.

غاضت الدماء من وجه بهلول عندما التفت إليه الكونت كنمر غاضب يهم بالانقضاض ليفترس مَن أمامه، وقال بحروف متقطعة من الرعب: إن.. إنـ.ه عا. على و. شك..

صرخ في وجهه: شغله الآن.

بخطوات مرتعبة متعثرة، اتجه صالح إلى السلاح الضخم الموضوع على قاعدة ضخمة ذات عجلات حديدية، وأمر الجند أن يسحبوا السلاح إلى خارج القاعة، فجاء العشرات من الجند والعبيد، وأخذوا يسحبون السلاح الضخم بالسلاسل والحبال عبر القنطرة الواصلة بين القلعة والسور العريض المطل على البحر، وأوقفوه عند طرف السور كما أمرهم صالح، وأخذ هو يثبت العجلات كي لا تتحرك، ثم أمر بعض الجند بحمل كرة سوداء ضخمة، وإدخالها في فجوة الأسطوانة العريضة، وبدأ العمل على تشغيله.

نظر ريموند إلى الفوهة، وتساءل: إلى أين سينطلق؟

قال صالح: إلى البحر سيدي في تجربته الأولى.

قال بغلٍّ حاقد: لا، بل إلى أحياء المدجنين.

أصابت صالح صدمة، وقال برعب: لا،لا يمكن أبدًا، لن أقتل الناس بيدي.

بادر يعقوب متذللًا: أنا أستطيع تشغيله سيدي.

أشار له بتعالٍ أن يفعل؛ فاتجه إلى السلاح مسرعًا، وأخذ يلف الذراع الذي يدير السلاح حول قاعدته، فبدأت الفوهة تستدير ببطء من جهة البحر إلى داخل الحصن، ثم أخذ يضبط منظار السلاح نحو الساحة الكبرى وبيوت المدجنين، وهو يخفض ويرفع الفوهة بالذراع الخاص حتى ضبطها تمامًا، وصالح يراقبه بذعر، ثم أقبل على ريموند، وصاح باكيًا: لا تفعل سيدي، ما ذنب الضعفاء! ما ذنب النساء والأطفال!

كان عمرو يراقب بعين قنّاص مدربة متحينة يتربص الفرص السانحة؛ ليقتنصها ويجد أي ثغرة. أشار الكونت لصالح أن يسكت، ثم أشار ليعقوب بأن يطلق القذيفة، فأشعل الفتيل في خلفية الأسطوانة الكبيرة، وأخذت النار تأكله بسرعة حتى توارت داخل الأسطوانة.

لم يتوقع أي منهم ولا حتى صالح ذلك الأثر الرهيب الذي صنعه ذلك السلاح، فقد انفجر بدوِّي هائل، وتحركت قاعدته من فرط قوة الإطلاق، واصطدمت بجدار السور خلفها محدثة به فجوة بعد أن تناثرت

أحجاره؛ مما أفزع كل من في القلعة وأصابهم بالرعب، حتى أن خوانا سقطت مغشيًّا عليها، وهرب العبيد والجواري من حول النخاس الذي سقط عن سريره، وخفض الجميع رؤوسهم، واحتموا بالأعمدة والأثاث، وهم يسعلون من الدخان الذي خلفه انطلاق القذيفة في المكان.

انقشع الدخان، واقترب ريموند من السور، ثم وضع منظاره على عينه، وأخذ يراقب ما أحدثته القذيفة في حي المدجنين، ورأى البيوت المحترقة والمهدمة، والفجوة التي أحدثتها القذيفة في الأرض، والكثير من الدمار والقتلى والنيران المشتعلة.

اقترب النخاس من الكونت؛ فسمح له بالنظر في المنظار، وبمجرد أن وقعت عيناه على المشهد المروع، حتى ارتدت رأسه للخلف من الصدمة، وجحظت عيناه دهشة، وقال بصوت كالفحيح: ما هذا بحق الشيطان!؟ لم أر مثل هذا السلاح الرهيب في حياتي.

تراجع صالح حتى صار ظهره للجدار، وهو يبكي، ويشد شعر رأسه وينوح: يا ويلي، ما الذي ارتكبته، يا للفاجعة، ويلي من عذاب ربي.

استفاقت خوانا، ورأت ما أحدثه السلاح في حي المدجنين؛ فقالت بشغف: بحق الرب، ملك قشتالة سيسعد به للغاية، الآن يستطيع أن يستولي على كل أراضي المسلمين، ويسحقهم سحقًا، ويعيدهم إلى صحراء العرب. الآن، يستطيع أن يحكم العالم.

كان عمرو يراقب وحيرته تشتد، لا يدري ماذا يفعل، ولم يجد بعد ثغرة، وأصابه الهم والغم الشديد، وهو يرى ذلك السلاح القاتل يفعل أفاعيله في الناس. انقضَّ صالح على الكونت، وهو يصرخ.. لا، لن أسمح لكم باستخدامه في قتل البشر.

اندفع الجند يمسكون به، ويقيدونه، وهو يصرخ ويبكي ندمًا؛ فقال ريموند بصلفٍ لم يعد لنا حاجة بمجنون مثلك، خذوه إلى السجن حتى لا يتسخ المكان بدمائه القذرة، وصُبّوا عليه العذاب.

نظر إلى عمرو، وأشار للحرس: واقطعوا رأس هذا الغلام، وألقوه في حجره قبل أن تصبوا عليهما الزيت المغلي.

سحب الحرس الاثنيْن؛ ليودعوهما السجن، وصوت صالح لا يتوقف عن النحيب والعويل.

التفت الكونت إلى يعقوب، وقال: قم بعملك، واشحذ السلاح مجددًا، واستعد.

ثم أمر الحرس أن يجوبوا البلدة، ويعلنوا أوامره للناس، إن لم يسلموا الأمير وأتباعه؛ فسيحيل البلدة كلها إلى جحيم مستعر، ويهدمها بيتًا.. بيتًا على رؤوس المدجنين، وسيمحو أثرهم.

***

في الطريق إلى الساحة الكبرى، شعرت فاتيما بالانفجار، وفهمت على الفور أن هذا هو أثر السلاح الذي تحدث عنه الأمير،

وأدركت لم كان الجميع قلقين من وقوع هذا السلاح في يد الأعداء؛ فأسرعت إلى الساحة. عندما وصلت فاتيما، فُجعت في كم الدمار الذي حاق بالمكان، وعدد القتلى والجرحى. انضمت فاتيما إليهم، وأخذت تستحثهم، وتبثُّ فيهم الحمية والشجاعة، وتحذرهم من مغَبّة الوهن والخذلان، وأبلغتهم أن أميرهم ورجاله في طريقهم إلى القلعة، وأن عليهم مساعدته وحمايته، ومحاصرة القلعة للتخذيل عنهم.

انقسم المدجنون بين مؤيد ومعارض، وساكت لا يبدي رأيًا، وينتظر أي الفريقين سيغلب رأيه على الآخر.

وصل خوليو إلى الساحة ركضًا، وكأنما يهرب من وحش ضاري، وانضم إلى فاتيما، وأخذ يحذر الناس مما يُضْمره لهم ريموند، وألا يثقوا بوعوده الكاذبة، فبمجرد أن ينتهي من المجاهدين؛ سيتفرغ للتنكيل بالمدجنين.

صمتت فاتيما تتأمل- بعجب- ذلك الإنسان الجديد الذي تشكل أمامها في أشد لحظات الخطر.

لم يكن هذا هو خوليو الذي تعرفه، بل كان في تلك اللحظة أشبه بأبيه الأمير، كان عامرًا وليس خوليو. لم تكن تدري لحظتها أن تبدل حال الإنسان من النقيض إلى النقيض يبدأ في اللحظة التي يدرك فيها أين تكمن إرادته الحرة، وقدرته على التصدي لهوى نفسه ونقطة ضعفها.

تلك اللحظة التي وجد فيها أمامه عشقه القديم وموطن إغوائه، لحظة تكررت كثيرًا، لكن لأول مرة يعمل عقله، ويغيب عنه ضباب الشهوة؛ ليترك الحرية للسؤال.. لماذا الآن؟

وفهم- أخيرًا- أن الهدف ليس هو، بل الأمير. كانوا يريدون إيقافه، وكان هو سلاحهم ضد أبيه. وفي تلك اللحظة الفارقة، قرر ألا يستسلم، وألا يكون خنجرًا في جنب أبيه وإخوته؛ فهرب من كل شيء، من هوى نفسه، من عشقه، من ضعفه، من الحياة التي توحل فيها إلى عنقه. هرب من خوليو، وعاد عامر.

كان المؤيدون للمقاومة هم الفقراء والفلاحون والصيادون وذوي الحرف، وكان الصوت المعارض هم التجار والأغنياء وذوي المصالح المرتبطة بالقلعة ومملكة قشتالة، وأخذوا يحذرون الناس من مغبة الثورة على الكونت، ومعاداة ملك قشتالة الذي لن يترك القلعة تعود للمسلمين أبدًا، حتى لو سقط ريموند، وسيرسل جندًا لا قِبَل لهم بها، يحاصرون الحصن كما فعلوا بإشبيلية، ويطردونهم من بيوتهم وأموالهم؛ ليصبح مصيرهم كمصير أهل إشبيلية المشردين بين غرناطة وبقية بلاد المسلمين.

هتفت فاتيما: وإن بقيتم فسينتقم منكم الكونت شر انتقام، ويبيع النخاس بناتكم رقيقًا في البلاد. الأمل الوحيد هو أن تنصروا أميركم الذي يقاتل الآن في سبيل الله؛ ليسترد الحصن من الأعداء، وتساعدوه لإيقاف جنون الكونت وطغيانه.

عجز الناس عن أن يحسموا أمرهم، وظلوا على جدالهم وترددهم حتى نزلت عليهم قذيفة أخرى من قذائف سلاح القلعة، وخلفت الكثير من القتلى، ودمارًا هائلًا في حي المدجنين، وهرب أغلب الناس من الساحة.

***

كان الحرس يسحبون «صالح» و«عمرو» في الممرات السفلية باتجاه سجن القلعة، وصالح يصرخ ويبكي، وعمرو لا شيء في رأسه إلا كيفية الخلاص.

كانت الفكرة المسيطرة على رأسه هي أنه عليه أن يفعل أي شيء، عليه أن يقاوم بأية وسيلة، ويحاول إيقاف جنون ريموند. كان الحرس يحيطون به، وأحدهم يدفعه من الخلف بقسوة. انحنى فجأة ونزل بركبتيه على الأرض، واتخذ جسمه وضع السجود، مما جعل الحارس الذي يدفعه يتعثر به ويسقط على وجهه، فسحب منه عمرو سيفه بحركة سريعة، وقطع رأسه قبل أن يستفيق من المفاجأة، ثم طعن الحارس الممسك بصالح؛ فتحرر ممن يكبّله، وتدحرج بعيدًا عن الحرس.

ووجد عمرو أن نقطة قوته وفرصته السانحة تكمن في قصر قامته وخفة حركته بين أرجل الحرس، فاعتمد على انثناء ركبتيه ليبقى أقرب من الأرض، واستطاع أن يعجز حركتهم بضرباته المنتقاة خلف الركبتين وبين الفخذين، واستمر عمرو يطعن في الحرس الذين تفاجأوا بذلك النمر الضاري الذي حُلّ من قيده، ويقفز بين سيقانهم.

أدرك صالح أن عمرو لن يستطيع التغلب وحده على هذا العدد الكبير من الحرس؛ فتناول أحد المشاعل المعلقة على الجدران، وأدخل يده في جيبه، وقبض قبضة من المسحوق الأسود في جيبه وفرد كفه أمام فمه، ونفث المسحوق في وجه الحرس وتبعه بالمشعل؛ فاشتعلت ذرات المسحوق المتطايرة حول الحرس، وشبَّت النار فيهم، وخفض هو رأسه، وصرخ في عمرو: هيا.

انطلقا يركضان في الممرات والحرس خلفهما منشغلون بإطفاء النار، وكلما هاجمهما بعض الجند تعاملا معهم.

حتى اجتمع عليهما الكثير من الجند، وأحيط بهما، وابتسم عمرو وهو يتلو الشهادتين، وهو سعيد بأنه سيموت، والسيف في يده.

لكن الميزان انقلب فجأة، وقتل من كانوا يريدون قتلهما، ووجد عمرو نفسه وجهًا لوجه أمام الجندي الغرناطي، وخلفه جند الأمير الذين نجحوا في القضاء على الحرس، وأنقذوا «صالح» و»عمرو».

ربت الجندي على كتف عمرو، وقال بتفاؤل: حمدًا لله على سلامتكما.

هتف عمرو: هل الأمير معكم؟

قال الجندي، وهو يتقدم مسرعًا عبر الممرات: قسمنا إلى كتيبتين، وقاد هو الكتيبة الأخرى إلى الجانب الغربي من القلعة.

لمح عمرو من بينهم الفارس الأسود الملثم؛ فابتسم مسرورًا، عندما اطمأن أن عائشة بخير، ولم يفكر أن يتحدث إليها، فهو لا يدري إن كانت كشفت شخصيتها أم أنهم لا يعرفون بعدُ أنها فتاة. انطلق معهم وهو عاقد العزم أن يقاتل بجوارها ليحميها.

* * *

(13)

انقشع الغبار، وهدأت آثار القذيفة الرهيبة، وعاد الناس يتجمعون بحذر في الساحة، يعلو وجوههم الذهول والرعب. وكانت فاتيما هي أول من عادت للساحة ومعها عامر، وعادت تحرّض الناس من جديد، وتناديهم ليتجمعوا.

ووقف عامر في وسط الساحة ينشد الشعر الحماسي بصوته الندي، وكأن روحه الثائرة بثت الشجاعة والإقدام في المكان، ونثرت الحماس في النفوس، حتى بدأ الناس يتجمعوا في المكان، وشيئًا فشيئًا عادوا يلتفون حول فاتيما وعامر. وعاد الكلام والحديث يعلو بينهم، وأخذوا يتدارسون الأمر. وفاتيما تحاول إقناعهم أن أملهم الوحيد في انتصار الأمير، وعودة القلعة إلى أحضان غرناطة. وخفتت أصوات المعارضين عندما صدَّق المدجنون أن ريموند لن يبقيهم إن انتصر على الأمير، وبعد أن امتلك ذلك السلاح الجبار حاولت الأصوات المعارضة أن تقنعهم بأن الحياة التي يحيونها الآن هي أفضل ما يمكن الحصول عليه، وأن البديل هو القتل والتشريد. هتفت فاتيما فيهم: أي حياة تلك التي تخشون فقدانها! إنكم غارقون في الذل حتى آذانكم، الكونت يتحكم في أرزاقكم، ويأكل جهدكم وعرقكم، ويضطهد دينكم، والنخاس يقرضكم بالربا، ويبيع بناتكم رقيقًا، وفرسان القلعة

يعيشون في أرضكم فسادًا. عودوا إلى ربكم، وتمسكوا بدينكم، وحرروا أرضكم من نجس الأعداء.

كانت النار المستعرة في أعماق الجميع بسبب ما أحدثه سلاح ريموند فيهم من قتل وتدمير، وزادت فاتيما من تلك النيران بكلماتها النارية، وأشعل الحماسة فيهم أشعار عامر، وصوته الثائر.

واشتعلت الأرواح بالغضب العارم، فصرخت فاتيما فيهم: أيها الرجال، يا أهل الحصن، أميركم سبقكم بالجهاد؛ فالحقوا به وانصروه. «ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون»

انطلق الجميع يحملون عامرًا، وهو ينشد فيهم بأشعار الجهاد، ويشعل روح الجهاد فيهم، ويزحفون نحو القلعة.

***

في أروقة القلعة وممراتها، كانت الحرب قد اشتعلت بين رجال الأمير وفرسان القلعة. كانت الكتيبتان اللتان شكلهما الأمير واحدة قادمة من الناحية الشرقية، والأخرى قادمة من الناحية الغربية، وهو فيهم. وحرص أن تكون عائشة بجواره، وهي متخفية في زي الفارس الأسود. وعندما سمعوا الانفجار وشعروا باهتزاز جدران القلعة، أدركوا أن ريموند تمكن من السلاح، وبدأ بتشغيله.

وعجز الأمير عن إبعاد فكرة الخطر المحيط بعمرو بعد أن انتهت حاجة ريموند من صالح، وحصل على ما يريده منه، وداهمه القلق البالغ على مصير عمرو.

كان الأمير في المقدمة يسير في خط واضح، هدفه الوصول بأسرع الطرق إلى القاعة التي تحوي السلاح، يقتل كلَّ من يعترض طريقه من الجند أو الفرسان، ورجالُهُ معه يقاتلون ببسالة.

وكانت الكتيبة الثانية بقيادة الجندي، وانضم لهم عمرو وصالح يسابقون؛ ليصلوا إلى مكان السلاح؛ ليوقفوه قبل أن يحدث به جرائم أبشع، ويقتل المزيد من الأبرياء.

وتخضب طريقهم بالدماء، وتناثرت الأشلاء، وبدأ يتساقط من رجال الأمير قتلى. وجُرح الأمير، وأصيب عمرو، وكادت عائشة أن تُقتل، لكن كل ذلك لم يوقفهم عن الاستمرار في الزحف نحو هدفهم.

***

جُنّ جنون ريموند؛ عندما علم بأن الأمير ورجاله عادوا إلى القلعة، وأمر الجند بمحاصرتهم وقتلهم على الفور، وكاد يفقد عقله عندما علم بأن «صالح» و»عمرو» أفلتوا من الحرس.

وكانت الثالثة هي القاضية عندما علم بأن المدجنين ثاروا وتجمعوا، وهم الآن في طريقهم للقلعة؛ فقرر أن يدمر حي المدجنين، ويمحوه من على الأرض بسلاحه الفتاك، وأمر يعقوب بشحذ السلاح.

أخذ يعقوب ينفذ الأمر بمساعدة الجند، وهو يرتعد خوفًا من غضبة ريموند، ومن الأخبار التي تأتي متلاحقة، والمصير المخيف الذي ينتظره إذا انتصر المدجنون بقيادة الأمير.

همست خوانا للنخاس بقلق بالغ: لقد جُنَّ جنونه، وأكل عقله الغرور، يجب أن نتدارس خطورة الموقف بالعقل.

همس لها مؤيدًا: أوافقك الرأي يا أميرتي، الموقف يدعو للقلق بالفعل، لدينا هاهنا جموع غاضبة من المدجنين يزحفون لاقتحام القلعة، وسيصلون إليها في أية لحظة، يمهد لهم الطريق كتيبة من المقاتلين البواسل يؤمنون بأن الجنة موطنهم لا الأرض، لذا فهم لا يرهبون الموت، وإن فَنَوا عن آخرهم.

هدفهم الوحيد تدمير هذا السلاح، وقتل الكونت، وكونهم وصلوا بالفعل إلى القلعة؛ فلم يعد هذا السلاح يجدي معهم. لا ينقصهم سوى عدد لينتصروا على الحرس والجند والفرسان، وإذا ما نجح المدجنون في إسقاط أبواب القلعة وقتلوا أكبر عدد من الجند والفرسان وانضموا للمقاتلين؛ فسيرفعونهم فوق رؤوسهم، ويتخذونهم قادة وأمراء لهم. وعندها، سيسحقون كلَّ من تبقى حيًّا في القلعة.

قالت بمكر: ألا يمكننا التفاوض؟ قد يقبلون برأس الكونت، أو نخوفهم بجيوش قشتالة، التي ستزحف إليهم؛ لاسترداد القلعة.

قال: قد نستطيع خداع العامة، لكننا لا نستطيع أبدًا خداع مقاتلين يفضلون الموت على الحياة، هؤلاء لا يمكن شراؤهم إلا بمقعد في الجنة.

قالت بقلق: وما الحل في رأيك؟

قال: اللجوء لملك قشتالة، وتحريضه على حصار الحصن، واسترجاعه منهم.

وافقت كلماته أمنياتها؛ فشردت عيناها بعيدًا، ثم ابتسمت وحركت حاجبيها، وقالت بمكر: إذًا، فعليَّ مسئولية كبيرة في أن أنقل الرسالة إلى ملك قشتالة بنفسي.

همس: يسرني أن أكون أنا ورجالي في خدمة أميرة البلاط القشتالي طوال الرحلة الطويلة.

ابتسمت بمكر: ألا تجلس هنا لتواسي صديقك الكونت في هزيمته!

قال: ومن للعبيد والرقيق من بعدي! ومن للجواري الحلوات اللاتي سيملأن الدنيا لطمًا وصراخًا وعويلًا حزنًا على ربّهن الطيب المسكين.

أطلقت ضحكة خبيثة خافتة، ثم عادت تنظر نحو ريموند الذي لم يكف لحظة عن الصراخ وإصدار الأوامر، والأخبار تتوالى على مسامعه من الحرس بالحرب الرهيبة الدائرة في أروقة القلعة واقتراب المدجنين من أبوابها.

تقوَّس فمها اشمئزازًا، ثم انسحبت من المكان بهدوء، وتبعها النخاس بحذر حرصًا ألا يراه ريموند، لكنه عاد بعد لحظات ومعه أحد العبيد، وأشار له أن يحمل الصندوق الذي به يده المقطوعة تسبح في سائل كيميائي، ثم رحل على أطراف أصابعه.

لاحظ يعقوب ما حدث، وازداد رعبًا بعد أن أدرك أنهم رحلوا بعد أن تيقنوا من هزيمة ريموند، ولم يبق غيره هنا مع ذلك المجنون المتوحش بعد أن هرب صالح والفتى.

لاح لريموند من بعيد جموع المدجنين، الذين يتقدمون من سور القلعة؛ فقال ليعقوب: صوب نحوهم.

استعد يعقوب، وعندما اقتربوا؛ أشار له ريموند فأطلق القذيفة، فسقطت بالقرب منهم محدِثة فجوة هائلة في الأرض، وتطايرت الشظايا النارية؛ فحصدت أرواح البعض، وأصابت البعض، وتفرق الباقون في كل اتجاه، وريموند منتشٍ بانتصاره عليهم.

***

بمجرد أن خرج عمرو من الممر إلى ساحة القلعة المكشوفة، ولامست عيناه ضوء الفجر، حتى وجد الكتيبة التي يتزعمها الأمير قد وصلت إلى الساحة قبلهم، وانخرطت في معركة ضارية مع الحرس؛ فانضمت كتيبته إليهم، لكن ما أصابه بالدهشة أنه رأى الفارس الأسود بزيه المميز يقاتل بينهم.

التفت خلفه ليجد الفارس الأسود في كتيبته يقاتل، حار في أمره أيهما عائشة!

لكن ضربة قاتلة كادت تصيبه من أحد الفرسان، أيقظته من دهشته، وجعلته ينسى أي شيء الآن إلا قتال العدو.

ولاحظ الجندي ما لاحظه عمرو، وكذلك الأمير، لكنهم تجاهلوا الأمر، وانخرطوا في المعركة الرهيبة في ساحة القلعة، والجند والفرسان يتجمعون من كل مكان في القلعة؛ ليحاصروهم حتى مالت كفة المعركة لصالح الأكثر عددًا، لكن رجال الأمير لم يستسلموا، ولم يتراجعوا، وظلوا يقاتلون في بسالة نادرة، وريموند فوق سور القلعة يقف بجوار السلاح الفتاك يراقب ما يحدث بقلق، ويصرخ في الجنود والفرسان؛ ليستحثهم على قتل الدخلاء المخربين، والجند يتوافدون بأعداد لا تنتهي، وتساقط قتلى من الكتيبتين، ورأى الأمير ريموند فوق السور؛ فأدرك أن قتله أصبح ضرورة، فقال للأعرج: غطي ظهري، عليّ الوصول إلى ريموند.

انطلق يجري، ويناور الجنود والفرسان كي لا يصلوا إليه، وانطلق الأعرج خلف الأمير يهاجم كل من يحاول اللحاق به، ويعطلهم، وقَتَل منهم كثيرًا، لكنه سقط في الساحة شهيدًا.

بنظرة واحدة، أدرك الجندي هدف الأمير ومقصده عندما رأى ريموند في أعلى السور، والأمير يرتقي السلم قفزًا؛ ليصل إليه،

فتصدى للفرسان والجند الذين يعترضون الأمير، والذين يلحقونه،

واتجه إلى السلم الحجري، ووقف أمامه ثم التفت إلى الجند والفرسان، وقطع عليهم طريق الصعود، وهو يقاتلهم قتالًا ضاريًا.

قطع الأمير السلم قفزًا، وانطلق يجري فوق السور الضخم العريض يضرب ويقتل كلَّ من يعترض طريقه من الجند، وعندما رآه

ريموند تجمد في مكانه، واستل سيفه، وداهمه الخوف وهو يرى رجاله يتساقطون كالذباب أمام الأمير.

وهرب يعقوب الإشبيلي من منظر الأمير المرعب، وانطلق يجري فوق السور يريد النجاة.

صرخ الأمير بصوت كالرعد: ريموند، اليوم يوم الانتقام، لنا جولة لم ننهِهَا بعد.

اندفع ريموند نحوه، ووجَّه له ضربة قوية بسيفه، وهو يصرخ: إلى الجحيم أيها الكافر المخرّب.

صد الأمير ضربة السيف، وانخرط معه في مبارزة ضارية، كانت المعركة متكافئة القوى، وكل منهما يريد النيل من خصمه.

وفي الأسفل، رأى صالح يعقوب يفرُّ من القتال، ويهرب حتى آخر السور، وينزل إلى الساحة من على أحد السلالم الحجرية، فغلى الدم في عروقه، وملأت أنفه رائحة الغدر والخيانة، واشتعلت نفسه بالرغبة العارمة في الانتقام؛ فانطلق إليه ركضًا، وبمجرد أن لمحه يعقوب ورأى الشر قادحًا في عينيه، حتى فرَّ منه فرار الجبان من الردى، واندفع إلى الممرات ليهرب منه، وتبعه صالح بإصرار إلى الممرات السفلى يريد الوصول إليه، وعقله يجترُّ كل المصائب والكوارث والخطوب التي داهمته بسبب وشاية يعقوب الخائن وتحالفه مع أعدائه ضده، حتى لحقه في نهاية الممر، وأمسك به، لكن يعقوب دفعه بآخر ما لديه من قوة، وطلب النجاة خلف أقرب أبواب الممر إليه، فولجه وأغلقه بالمزلاج، ووقف خلفه.

على ضوء النهار المتسلل من النافذة، أدرك أنه في قاعة تحضير المواد الكيميائية، وخلف الباب صالح يدفعه بأقصى ما لديه من قوة.

بعد قليل، شعر يعقوب بحرارة شديدة في ظهره، فابتعد عن الباب والتفت ينظر إليه، فوجد الباب يشتعل، ثم يسقط أمامه بدوٍّي مرعب، وظهر من خلفه صالح.

تراجع يعقوب برعب، وأخذ يصرخ على الحرس والفرسان وريموند، ولم يسمعه أحد. غرق في دوامة اليأس، ولم يجد له منقذًا، فركع على ركبتيه، وأخذ يتضرع ويتوسل لصالح أن يرحمه؛ فَرَدَّ صالح، ونشوة الانتقام تسري في عروقه، وتمتزج بدمائه الثائرة، وتروى قلبه المحترق بلهيب الظلم: لا رحمة لخائن لم يرقب فيمن أطعمه وسقاه وأكرمه وآواه؛ إلًّا ولا ذمة. اليوم يوم القصاص.

ألقى عليه من جيبه مسحوقًا أسود، فصرخ يعقوب: إياك أن تفعل، انظر أين نحن، ستموت محترقًا معي.

قال بغلٍّ: خير غائب ينتظر، كم من سنوات عشتها أتضرع إلى الله أن يرحمني من العذاب، ويقبضني إليه.

انطلق يعقوب يجري بعيدًا؛ فاصطدم بالمنضدة الكبيرة، وتكسرت القناني الزجاجية، وانسكبت منها السوائل، فقذف صالح المشعل نحو يعقوب؛ فاشتعلت به النار على الفور. وأخذ صالح يراقبه بتشفٍّ، والهدوء يغمره، وقلبه المفعم بمشاعر الظلم والضيم يقرُّ ويهدأ حتى اشتعلت السوائل المنسكبة، ووصلت النار إلى

المسحوق الأسود؛ فارتجت القلعة بزلزال مرعب هُدم على إثره جزءٌ من السور. ساد بعده الهدوء لبضع لحظات فقط، وتجمدت كل الكائنات في موضعها.

❊❊❊

عاد الناس يتجمعون على صوت خوليو وفاتيما، وهما يصرخان بهم ألَّا يخافوا ولا يجزعوا، وأن النصر بات وشيكًا، وأن اقتحام القلعة هو الخلاص الوحيد لهم ممن أذلهم وقتل أبناءهم، واسترق نساءهم.

وأمام باب القلعة المغلق أتَوا بجذع شجرة ضخم حمله عدد كبير من الرجال يدفعون به باب القلعة الضخم مرات.. ومرات، والباقون يحمونهم بالدروع وغيرها، ويدرؤون عنهم سهام حرس الأبراج، ويتساقطون صرعى حولهم.

لكن الباب المدرع يأبى أن يكسر، أو يُفتح أمام ضربات الجذع القوية.

هتفت فاتيما بخوليو: ماذا سنفعل؟ علينا اقتحام القلعة الآن. صاح خوليو ليسمعها وسط الهرج: نحتاج لثغرة نتسلل منها.

هتف زاك: لنلتف حول السور؛ لعلنا نجد ثغرة.

في نفس اللحظة، كانت خوانا وخدمها والنخاس وعبيده وإماؤه يقفون أمام الباب الحديدي الخلفي للقلعة، والمطِلّ على خندق مائي يحيط بهذا الجانب من القلعة، يقطعه جسر خشبي عريض.



أمرت خوانا حارس البوابة بأن يلف السلسلة التي ترفع الباب الحديدي؛ ليخرجوا منه.

طلب منها الحارس أن تنتظر قليلًا؛ ليطلب الإذن من حاكم القلعة، فاستلت خوانا خنجرها وغرزته في قلبه، وتركته مجندلًا، وأمرت العبيد فأخذوا يلفون السلسلة الحديدية الضخمة، وارتفع الباب الثقيل، وخرجوا جميعًا مجتازين الجسر الخشبي، واتجهوا إلى شاطئ البحر؛ ليستقلّوا مركبًا كبيرًا تبعدهم عن الحصن والقلعة إلى أقرب مرسى آمن؛ ليبدأوا رحلتهم منه نحو الشمال، إلى مملكة قشتالة.

وصل زاك وخوليو إلى الباب الخلفي بعد أن قطعا المسافة ركضًا قادمين من جهة الباب الأمامي.

كم كانت فرحتهما عظيمة عندما وجدا الباب مفتوحًا، والحارس مقتولًا، ونجحا في التسلل إلى داخل القلعة، واستغلَّا انشغال الحرس بقتال المقتحمين، ووصلوا إلى ساحة القلعة المكشوفة.

تراجع زاك، وهو يقول: سأخبرهم أن الباب الخلفي مفتوح.

نظر عامر نحو الباب الكبير، وأدرك كم أن هدفه صعب المنال، من المستحيل انتظار التفاف الناس من الباب الخلفي الضيق، سيقتل كل رجال الأمير قبل أن يصل الناس.

والآن، عليه أن يجد طريقةً يفتح بها الباب، تراءت له صورة الجندي وكلماته؛ فأشعلت في قلبه الحماسة، وطاقة هائلة لاقتحام الساحة والوصول للباب.

نظر إلى ملابسه القشتالية، وأطبق قبضتيه على طرفي ثوبه، ثم اندفع يجري في الساحة، وهو يصرخ: إنهم قادمون، الباب الخلفي، قتلوا الحارس، واقتحموا القلعة من الباب الخلفي. نجحت خطته بخداع الحرس بملابسه القشتالية؛ فظنوا أنه من القلعة، وانطلق أغلبهم لتفقد الباب الخلفي، ومنع المتسللين منه.

اندفع عامر نحو الباب، ولم يتوقف، وصرخ به من تبقى من الحرس أن يتوقف لكنه لم يفعل، فقد كان هدفه الوحيد هو فتح الباب، وإن مزقوا جسده إربًا.

وصل إلى الباب بالفعل، وتعلق بالمزلاج الضخم، وبدأ الحرس يوجهون له ضرباتهم لولا أن انضم له بعض رجال الأمير الذين فهموا ما يفعله، واشتبكوا مع الحرس في قتال طاحن، وبدأ عامر في فتح المزلاج بكل ما لديه من قوة.

انتبه حرس الأبراج لما يحدث؛ فأمطروه بسهامهم فأصابه بعضها، لكنه أبى السقوط إلا بفتح الباب.

وفي تلك اللحظة، ارتجت الأرض تحت أقدام الجميع، ومعها صوت كالرعد، وملأت ذرات التراب المكان، وتساقط بعض حراس الأبراج، ومعهم جدار القلعة الشرقي، وبعض أحجار من الأسوار، وأصاب الرعب الجند، وذهلوا للحظات.

وبقي عامر متعلقًا بالمزلاج، ونجح أخيرًا في فتحه، وانفتح الباب ليندفع الناس منه يقتلون كلَّ من يصلوا إليه من الجند والفرسان والحرس، وهم يصيحون صيحات التكبير والتهليل، وألقوا الرعب في القلوب.

***

كان الأمير في نزاله الطاحن مع ريموند يضرب بسيفه بكل قوته، وريموند يتراجع أمام قوة ضرباته. وبدأ الوهن والرعب يتسلل إلى قلبه مع سماع صيحات التهليل والتكبير، وتيقنه من أن الناس داسوا قلعته وقتلوا رجاله.

وبدأت قواه تخور، ويزيغ بصره، ويغرق في عرقه، وهو عاجز عن صد ضربات الأمير الذي أمسك بالسيف بكلتا يديه، وهو يسدد له ضربات يعجز عن ردها، وهو يتراجع حتى صار ظهره لسور القلعة.

انكسر سيف ريموند، وصار عاريًا أمام انتقام الأمير، وعاجزًا أمام الموت المحمول على نصل سيفه.

رفع الأمير سيفه عاليًا، وهو ينظر للرعب المطل من عيني ريموند، وهوى بالسيف في ضربة محكمة لتطير رأسه من فوق سور القلعة إلى البحر.

وقف الأمير لحظات يلتقط أنفاسه، ثم حمل جثته، وألقاها خلف رأسها. التفت ينظر للساحة التي امتلأت بالبشر من المدجنين يضربون، ويقتلون فرسان وجند القلعة بكل ما يتوفر لهم من أدوات كالحجارة أو العصي أو السكاكين، ثم نظر إلى أسفل السلم الحجري ليجد الجندي

يقاتل قتال الموت بجسد امتلأ بالدماء، وأصابه من الطعنات ما أصابه، وفرسان القلعة اجتمعوا بسيوفهم عليه، وهو يحول بينهم وبين الصعود إلى أعلى السور، حتى هاجمه فارس ضخم، وطعنه طعنة نافذة أعجزته عن الوقوف؛ فسقط على ركبتيه.

نزل الأمير درجات السلم بسرعة ليحاول إنقاذه من الفارس الضخم الذي انضم إليه آخر، ورفع سيفه ليسدد له ضربة تقضي عليه.

انتبه عمرو لما يحدث للجندي؛ فاندفع يجري إليه، وهو يصد ضربات الجند ويتقي سيوفهم.

وكانت فاتيما قد وصلت إلى منتصف الساحة، ورأت تكالب الفرسان على الجندي؛ فشجت رأس من اعترض طريقها، وانطلقت تجري نحوه.

حاول الجندي مقاومة الفارسين، لكن جسده انهار من كثرة الطعنات والدماء الغزيرة التي نزفت منه، والطعنة النافذة التي أسقطته.

افترش جسده الأرض، ورأى سيفي الجنديَّيْن فوق رأسه؛ فرفع سيفه في محاولة أخيرة لصد الهجوم المزدوج، لكنه سقط على ظهره ووقع منه السيف، وهوى الفارسان بسيفيهما على جسده في وقت واحد.

لكنّ سيفًا آخر تدخل في المعركة، واعترض طريق السيْفين؛

كان سيف عائشة التي كانت أقرب الجميع إليه، ورأته يسقط والسيفيْن فوق رأسه؛ فاندفعت نحوه، وألقت بجسدها ببراعة في

المسافة بين السيفين وبين الجندي الممدد على الأرض، وساعدتها خفة حركتها، وقصر قامتها؛ فانزلقت بركبتيها فوق الأرض الرخامية حتى حالت بين الجندي وبين قاتليه، واعترضت سيفيهما بسيفها، وأخذت تجاهد بكلتا يديها بصعوبة شديدة؛ لتحافظ على ثبات سيفها من ذلك الحمل الثقيل.

عندما وصل الأمير إلى منتصف السلم الحجري، ووجد أن الوقت لن يكفيه ليتدخل لإنقاذهما، فقفز من مكانه إلى الأرض، واندفع عمرو بكل قوته محاولًا الوصول إلى الفارسين.

واستصرخت فاتيما بصوتها الجهوري كلَّ من في الساحة؛ لإنقاذ الفارس الأسود.

نظر الجندي إلى ذلك الحائل الذي يحول بينه وبين الموت القادم من السيفين، ويصد بسيفه ضربة الموت المزدوجة، وأدرك أن الفارس الأسود قد اتخذ من نفسه وسيفه درعًا لحمايته، وتعجب أشد العجب من تصاريف القدر، فآخر ما كان يخطر بباله أن تقوم على حمايته فتاة، لكن هاهي ابنة الأمير تضحي بحياتها لإنقاذ حياته.

حاول الوصول إلى سيفه، أو أن يقوم من مكانه، لكنه لم يجد في جسده قوة تساعده.

أدركت عائشة أنها لن تنجو عندما أعاد الفارسان رفع سيفيهما ليقضيا عليها وعلى الجندي.

فجأة.. ظهر آخر من كانت تتوقع وجوده.. إنه الفارس الأسود.

طعن الفارسين من الخلف بضربتين محكمتين، وهبط الأمير فوق رؤوسهم في نفس اللحظة؛ ليكمل بضرباته على الفارسين، وتنجو عائشة والجندي.

وصل عمرو واطمأن على عائشة، ثم أقبل على الجندي، ووضع رأسه فوق فخذه، وسأله بقلق: أأنت بخير؟

قال بصوت خافت: لازال بي بضعة أنفاس.

التف الجميع حوله باهتمام وقلق، كانت لمسة من كف الأمير لكتف عائشة كافية ليطمئن من إيماءتها له بأنها بخير.

اقتربت فاتيما من الجندي المسجَّى، وأصابها الهلع لعلامات الاحتضار التي تبدو جليَّة عليه، فصرخت فيمن حولها: طبيب، ابحثوا عن طبيبز

تأمله الأمير للحظات، ثم رفع رأسه، ومسح الساحة بعينيه ليجد أن كل الجند والفرسان قد قتلوا أو هربوا، وأن الساحة لا تحوي سوى المدجنين، والبقية الباقية من رجال الأمير. أدرك- أخيرًا- أنهم انتصروا بحول الله وقوته بعد أن أسبغ عليهم فضله وكرمه؛ فألقى برأسه على الأرض، ومرَّغ جبينه في سجدة شكر طويلة، ثم رفع رأسه شامخًا عاليًا، وصاح صيحات التكبير والتهليل، والدمع يترقرق في عينيه، وروحه تضيء بوهج النصر، وكلُّ من في القلعة يردد خلفه بصوت يزلزل الأرض والأحجار، ويصل إلى عنان السماء: الله أكبر، الله أكبر، لا اله إلا الله وحده، صدق وعده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

بعد أن هدأ الأمير وتوقف التكبير، أقبل مجموعة من شباب المدجنين عليه، وحدثوه قائلين: نقدم الولاء والطاعة إلى أميرنا وحاكم القلعة وواليها.

تأملهم الأمير مليًّا، كانوا- جميعًا- شبابًا وفتية في عمر أولاده، فكّر قليلًا، ثم قال بحزم: لست أميركم، ولا حاكمًا للقلعة.

التفت إليه كلُّ من حوله، وأغرقتهم الدهشة العارمة، عمرو وعائشة وفاتيما وزاك، ومن بقي من كتيبة المئذنة، سلطوا أعينهم على الأمير، حتى الجندي الملقى على الأرض، ورأسه على فخذ عمرو،

الكل صدمهم رد الأمير، وأشعل الدهشة في عقولهم.

أخذ شباب المدجنين يتبادلون نظرات الحيرة والدهشة، ويهمهمون بينهم وبين بعضهم، ثم التفتوا إلى الأمير، وتساءلوا بتعجب: وأين الأمير إذًا؟!

ابتعد الأمير جانبًا، ثم أشار إلى الجندي الشاب الملقى أرضًا، يعاني ألم الاحتضار، وقال بحزم: ها هو أميركم، وحاكم القلعة.

تعلقت العيون بالجندي الشاب الذي نظر للأمير، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة ساخرة ضعيفة، ثم تأمل في وجوه المدجنين الغير مصدقة، وقال بضعف: أميركم!! إنه يستعد الآن للقاء ربه،

ثم تلا الشهادتين في موقف حزين مهيب، وكل الأبصار تتجه إليه، والحزن يخيم على القلوب، والدمع يهطل من العيون.

اندفع أحد المدجنين بينهم، وهو يهتف: لدي بعض الخبرة في فن التطبيب، دعوني أرى جرحه.

صفعته فاتيما على قفاه، وهي تصرخ بصوت باكٍ: لمَ تأخرت أيها الغبي!

أمر الأمير: احملوه إلى القصر.

أخذوه على محفة إلى القصر، وتبعه عمرو الذي أوصاه والده به،

وذهب الأمير لتفقد رجاله والمدجنين، ويرى الجرحى، ويدفن القتلى. وعندما رأى جثة الأعرج طفر الدمع من عينيه، ونزل على ركبتيه، ومسح على وجهه وجسده، وقال متألمًا: رحمك الله يا هاشم، أسأل الله أن يجمعني بك في الفردوس الأعلى.

بقيت عائشة في مكانها بعد أن ذهبت فاتيما ومعها زاك؛ لتفقد المدجنين، وبدأ الإرهاق والتعب يدب في أطرافها، وتركت العنان لدموعها.

حاولت أن تصعد السلم الحجري، درجة درجتين، وخارت قواها فجلست في مكانها، أخذت تنظر حولها بلا اهتمام لفرحة المدجنين، وهم يتحلقون في حلقات، ويجتمعون في مجموعات ينشدون أناشيد النصر، ويحتفلون بالحرية، ويجمعون غنائم فرسان القلعة.

لم يكن لديها أدنى شعور بالفرح، وانتابها إحساس أن ما حولها ليس حقيقيًّا، وكأنه حلم.

كل ما مر بها طوال تلك المدة طيفٌ من حلم طويل، بداية من مقتل شيخها حتى انتصارهم على الكونت وفرسان القلعة. حلم كالأحلام التي كان يزورها فيها الفارس الأسود، وهي صغيرة، ويطمئنها ويبث الأمن في نفسها بأنه سيحميها دائمًا من الأعداء، ولن يدع أحد يمسها بسوء.

انتبهت فجأة عندما تذكرت الفارس الأسود، لقد أنقذها من الموت هي والجندي تحت سيفي الفارسين. لقد كان هنا منذ وقت قليل، كان حقيقة وليس حلمًا.

هبت قائمة، وأخذت تتطلع برأسها في كل اتجاه، وتدور بعينيها بحثًا عنه في أرجاء الساحة، وهي تتعجب.. متى ظهر، ومتى اختفى!

لمحت فاتيما تشير لها من بعيد، وهي تجري إليها، ووجهها يشي بكارثة.

استقبلتها بقلق: أهناك خطب ما؟

سألتها، وهي تلهث: أين الأمير؟

قالت بحيرة: لا أدري، ذهب ليتفقد القلعة والمدجنين.

قالت بقلق بالغ: أتمنى أن أجده قبل أن..

قالت عائشة بقلق: قبل ماذا؟

تأملتها فاتيما قليلًا، وكأنما تذكرت فجأة أنها ابنة الأمير، فجذبتها من معصمها، وهي تقول: تعالي معي.

انطلقا معًا، وعبرا الساحة، واتجها إلى إحدى الغرف القريبة من الباب الكبير، ولجتها فاتيما وخلفها عائشة التي فوجئت بشاب مغمض العينين، وممددٍ فوق فراش في وسط الغرفة، ومصاب بإصابات بالغة.

هُيئَ لها أنها تعرفه؛ فدارت حول فراشه؛ لتتأكد من إحساسها، واقتربت من وجهه، وتطلعت إلى ملامحه، ثم نظرت إلى فاتيما، وهمست غير مصدقة: عامر!

هزت فاتيما رأسها بأسى، ثم قالت: ابقَ معه ريثما أجد الأمير وأخبره.

اقتربت عائشة منه، وأخذت تتفحص جروحه، وكانت صدمتها بالغة عندما عرفت أن إصابته مميتة لن ينجو منها. اقتربت من رأسه، ونادته برفق: عامر.

فتح عينيه، ونظر في وجهها متأملًا، وعندما لم تبدُ منه حركة أو كلمة قالت: أنا، أنا عائشة.

ابتسم بضعف قائلًا: أعرفك جيدًا أيتها الأميرة الصغيرة ذات الجدائل المتراقصة تحت ضوء القمر.

غمر الدمع عينيها عندما تذكرت تلك الأغنية الرائعة التي كان دومًا يغنيها لها بصوته العذب عندما كانت تدور في حديقة القصر؛ فيدور ثوبها الحريري بلون الورد، وتدور معها جدائلها في ضوء القمر، وتلمع حبات اللؤلؤ كنجمات صغيرة مختبئة في شعرها الأسود بلون الليل.

داخلها ذلك الإحساس الرائع بالدوران، وكأن أعضاءها الداخلية تدور على صوت عامر، وهو يطرب أذنيها، والذكريات الجميلة تسيل كعين ماء سلسبيل.

وهي تتذكر كيف كان يلاعبها، ويغني لها، وهي طفلة صغيرة، وذلك الحنان الغامر المتدفق من قلبه على أمه وإخوته. طبعت قبلة حانية على جبينه، والدمع يهطل من عينيها، وابتسامة وجدٍ وشوق وحنين لتلك الأيام الدافئة ترتسم على ثغرها الوردي.

قال باسمًا: ألا زالت جدائلك ترقص في حديقة قصرنا؟

قالت بحزن بالغ: وكيف لها أن ترقص وهي عطشى لسماع صوتك العذب يا أخي الغالي!

قال بابتسامة شاحبة: عشت سنوات وسنوات أتمنى أن تعود تلك الأيام الهنيئة الملأى بالحب والسعادة. لكم تمنيت أن أمرّغ وجهي في حضن أمي، وأطلب منها الصفح.

كلماته أثارت في نفسها الشوق لأمها، فانتابتها قشعريرة باردة عندما تذكرت أمها، وتمنت تلك اللحظة أن تكون هنا؛ لتحتضن عامر وتحتضنها.

قالت باكية بلهجة جف منها الأمل: لازال هناك فرصة، بل فرص.

قال بسخرية أليمة: أنا الآن في طريقي؛ لألقى ربي بخطاياي وآثامي، كيف ألقاه وأنا جاحد نعمته!، عاقٌّ لأبويَّ!

شعرت عائشة باقتراب أجله، فارتعد قلبها، وجلا على مصيره في الآخرة، وتمنت لو تذهب الآن للبحث عن أبيها، لكنها لا تستطيع تركه؛ فابتهلت إلى الله بقلبها أن تجده فاتيما بسرعة.

التفتت إلى أخيها، وقالت بإشفاق، والدمع يغرق وجنتيها: إن الله حرَّم النار على من قال لا إله إلا الله، وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان.

قلها يا أخي الحبيب، فإني أسمع في قلبك نبضات الإيمان، قلها يا أخي الحبيب، وأنت موقن بها، وثقْ في رحمة ربك وغفرانه،

قلها لتنال شفاعة خاتم المرسلين، قلها لألقاك بها في الجنة لتغني لي بصوتك العذب، وتنهل من أحضان أمي الحانية.

وضعت رأسها على صدره، وانتحبت بألم.

سالت دمعته على جانب وجهه: أمي، آه يا أمي، لكم أشتاق إليك، وإلى حنانك ودفء أحضانك، آخر ما أتمناه من الدنيا نظرة صفح من عينيك... أمي!

انتبهت عندما استشعرت تغير نبرة صوته إلى الدهشة، فرفعت رأسها، واتسعت عيناها ذهولًا، عندما وجدت أمها أمامها مباشرة

كيف أتت؟ هل أخبرها صخر بوجودهم في القلعة؟ ومتى وكيف سافرت كل تلك المسافة لتصل إلى الحصن؟

تقدمت الأم بصمت؛ فأفسحت لها عائشة المكان بجوار رأس أخيها؛ فخلعت عباءتها الحريرية، ودثرت بها ولدها، وهي تقاوم دمع عينيها الذي انهمر معاندًا رغبتها في الإمساك عن البكاء.

ضمته إلى صدرها، وأغرقت دموعها رأسه وشعره؛ فانفجر منتحبًا باكيًا: اغفري لي يا أمي، اصفحي عني.

أخذت الأم تبكي بكاءً مريرًا، وهي تحتضن رأسه، وتغرق شعره ووجنتيه بقبلاتها الحانية: يا صغيري، يا قطعة غالية من فؤادي.

ثم انتبهت إلى ما انتبهت له عائشة قبلًا بأن الوقت يداهمهم، وأن عامر لم يتبق له الكثير، فقالت بحزن: يا صغيري الحبيب، قل كلمة ترجو بها مغفرة ربك ورحمته، وتتقي بها عذابه، لا تقتلني مرتين، لا تتركني في الدنيا أقضي بقية عمري في العذاب والألم.

قال، وهو يغالب دمعه: اطمئني يا أمي، قلتها كثيرًا من قبل بقلبي، وربي يعلم صدق ما أقول، هو وحده ألتجئ إليه عندما ينبذني البشر ويتجنبني الناس.

قالت بإصرار: قلها الآن أمامي وأرح قلبي، أما يكفيك سنوات العذاب التي ألقيتني فيها ورحلت! قلها ليقرّ قلبي، ويسكن.

قال باسمًا: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

تنهدت الأم وابنتها براحة، وأخذت عائشة تقبّل كف أخيها ظاهرها وباطنها بفرح، وابتسم عامر: أدعو الله أن يتقبل مني ويغفر لي خطاياي.

أراحت الأم رأسه على صدرها، وتركت دموعها تعبّر عمّا في قلبها من شوق ووجْد.

اقتحم عمرو الغرفة قادمًا من الجانب الآخر من القلعة، وقد تقطعت أنفاسه من الركض، وهو ممتنٌّ لفاتيما التي أبلغته، واقترب من فراش عامر، وجلس أمامه.

رفع عامر رأسه من حضن أمه، وابتسم عندما عرفه، وقال: مرحى أيها الشبل الشجاع، ألا زالت ذات الجدائل الراقصة تضربك وتستولي على سلاحك؟

انهمرت دموعه غزيرة، وانكبَّ على يد أخيه ورأسه يقبلهما، ويحتضنهما بشوق عارم، ثم رفع رأسه قليلًا، وقال بابتسامة باكية: أصبحت الآن أنافسها في الطول، وصرنا نقاتل إلى نفس الجانب.

تأمل عائشة مليًّا، وقال: نعم، كبرت يا جميلتي، وصرت فتاة يغار القمر من جمالها.

تأمل ملابسها السوداء، وقال باسمًا: كبرت، ولم تزايلي أحلام الطفولة بعد!

لازالت أسطورة الفارس الأسود تملأ قلبك حتى تمثلتها وقلدتها في الملابس والأفعال!

قالت: أنسيت! أنت الشخص الوحيد الذي رأيته في قصر الغابة، أنت من كنت تحكي لي حكاياته، وتنسج الشعر أناشيد لبطولاته، لازلت أذكر تلك الأنشودة التي كنت تغنيها لنا عند النافورة في حديقة القصر

عن فارس أسود ينقذ البلدة، ويحمي الفقراء، وينصر المستضعفين، ويرد حقوق المظلومين.

قال ساخرًا: ما أسهل أن يصدق الناس الأسطورة، فهي تزيل عنهم الخوف، وتمنحهم الشعور بالأمن والسعادة. أحيانًا، تكون الأساطير أسوأ من الخمر، يتناولها الناس لتسكرهم، وتشعرهم بأن كل شيء بخير؛ فليرقدوا في بيوتهم مطمئنين، فهناك من سيقوم بكل شيء لأجل حمايتهم.

قالت، بجدية: عامر، أنت بنفسك رأيت الفارس الأسود هناك في قصر الغابة. لقد رأيت الأسطورة، وهو يقاتل فرسان القلعة.

قال ساخرًا: أسطورة!

نعم، إنها كلمة مؤنثة، ذلك لأن الأسطورة الحقيقية في حياة أي رجل، ما هي إلا تلك المرأة التي تفعل المستحيل؛ لتحمي زوجها وأبناءها.

ارتدت عائشة للخلف، وجحظت عيناها من الصدمة، حملق عمرو فيه، وفغَرَ فاه بدهشة، بعد أن فهم ما يريد قوله، وأخذ يقلب نظراته الحائرة بين أخيه وأمه.

أخذت عائشة وقتًا طويلًا، وهي تحاول استيعاب ما قاله، وأخذت تقلب في ذكرياتها، وعينها على أمها، وتذكرت القصة التي كانت تحكيها لها، وهي صغيرة...

قصة وحيدة لم تسمعها منها إلا مرة واحدة، فقد كانت ترفض باستمرار تلك القصة كلما خيّرتها أمها بينها وبين أية قصة أخرى للفارس الأسود..

إنها قصة زوجة الفارس الأسود التي ارتدت ملابسه، وتلثمت بلثامه، وركبت فرسه، وانطلقت تدافع عنه وتحميه من فرسان القلعة، وهو مصاب طريح الفراش.

إنها القصة الوحيدة التي رفضت تصديقها من بين مئات القصص التي حكتها لها أمها من قصص الفارس الأسود.

أدركت عائشة- متأخرًا- أنها صدقت الخيال، ورفضت أن تصدق الحقيقة.

تتابعت عليها الذكريات، وتذكرت قتال الفارس الأسود معهم في بيت الشيخ، ثم ظهوره وقت إعدام أبيها، وإنقاذه لهم من فوق منصة النار، ثم أخيرًا في ساحة القلعة عندما أنقذها هي والجندي، وفي كل مرة يختفي دون أن يفهموا كيف ظهر! ولا كيف اختفى!

تأملت أمها، ثم تبادلت نظرات الفهم مع عمرو. كانت أمها ذاهلة عن كل شيء تبكي ولدها، وتضم رأسه، وكفه إلى صدرها، وتمسح عليهما، وتقبلهما من حين لآخر، ودموعها لا تجف.

نظر عامر إلى عائشة، وقال باسمًا: تشبهين أمك بصورة لا يمكنك تصديقها.

في تلك اللحظة، اندفع الأمير إلى داخل الغرفة، ووقف ينظر إلى عامر بوجلٍ وترقب، ثم نظر إلى عيني زوجته منتظرًا ما ستقوله؛ فأومأت برأسها تطمئنه.

فانكب الأب على رأس ولده يقبله، ويبكي، ويحتضنه بشوق غامر.

قال عامر، بصوت خافت: هل صفحت عني يا أبت؟

قال باكيًا: غفر الله لي ولك يا ولدي.

قال: ما أسعدني اليوم بعد كل الشقاء الذي عشته أن أموت بين أحضان أبواي!

قضى الأمير وأسرته الساعات التالية يحيطون بعامر حتى فاضت روحه إلى بارئها عند مقدم الليل، ولقي وجه ربه تائبًا منيبًا، وشعر الأمير بالفخر عندما علم من "زاك" ما فعله ولده، وكيف استطاع فتح باب القلعة.

وقرت عين أمه، وهدأ قلبها، وودَّعه كلُّ من في الحصن في جنازة مهيبة بعد أن صلوا عليه بعد صلاة العشاء في المسجد الذي أعادوه كما كان قبل أن يستولي عليه فرسان القلعة ويحولوه إلى كنيسة.

وأتت اللحظة التي حسب لها عمرو وعائشة ألف حساب؛ عندما سأل أبوهما عمرو.. كيف عرفت أمك؟ ومن أتى بها إلى الحصن؟

تمالك عمرو نفسه أمام والده، حتى لا يبدو مرتبكًا أو مترددًا، وابتلع ريقه، وقال بهدوء يخفي قلقه: لقد أرسلت لها عائشة رسولًا

من عند فاتيما؛ علها تستطيع إقناع عامر بالعودة، لكنها وصلت وهو يحتضر، بعد أن اصطحبها صخر إلى القلعة.

هز الأمير رأسه، واكتفى بتلك الإجابة.

شعر عمرو بوخزات مؤلمة من ضميره، فما كان يعتقد أنه سيأتي عليه اليوم الذي يكذب فيه على والده.

***

بعد أن فرغوا من دفن عامر ليلًا على ضوء المشاعل، عادوا إلى القلعة مسرعين للاطمئنان على الجندي.

وبينما هم يعبرون الطريق حتى سمعوا مواء قط مستمر، كادوا يكملون طريقهم، لكن قلب الأم الحاني جعلها تتأخر عنهم، وتأمر صخر أن يتفقد المكان بحثًا عن مصدر الصوت، فأمسك المشعل واتجه نحو الصوت، ووقف الأمير بجوار زوجته يتابع ما يحدث بعد أن سبقهم الجميع.

اقترب صخر من فتحة في الأرض مغطاة بقضبان حديدية تستخدم كمصرف لمياه الأمطار والسيول، ودقق النظر جيدًا في الفتحة، ورأى عينين تلمعان في الظلام، فهتف قائلًا لمولاته: وجدتها.

اقترب الأمير وزوجته منه، ورفع هو الغطاء الحديدي؛ فقفزت القطة خارجة من الفتحة التي كاد أن يغلقها، لكنّ يدًا خرجت من الفتحة منعته من غلقها، دقق النظر فوجد رجلًا يمد يده إليه، أمسك

بكفّه، وساعده على الخروج من الفتحة، وبمجرد أن تبيّنه الأمير على ضوء المشعل حتى صرخ بفرح كبير: صالح!.

أقبل عليه، وعانقه بسرور، وهو يتمتم بالحمد والشكر لله على نجاته، وعاد كلُّ من سبقوه جريًا، وأحاطوا به فرحين يهنئونه بنجاته، وكان أكثرهم فرحًا؛ عمرو، الذي عانقه والدمع يغرق عينيه.

كانت قصة نجاته من الأعاجيب، فعندما حدث الانفجار، اندفع إلى المنضدة الخشبية الكبيرة، وتدحرج تحتها، ثم انهارت الغرفة على رأسه ورأس يعقوب، لكن المنضدة الخشبية حمته، وصمدت أمام تساقط الأحجار، كاد يهلك في ذلك القبر الذي دفن فيه حيًّا، لكن قطته الصغيرة التي يخبئها بين ملابسه كانت دليله للثقوب التي يتسلل منها الهواء، وبإزالة بعض الأحجار نجح في إيجاد طريق إلى أحد السراديب التي توصل إلى قنوات صرف المطر.

التف الجميع حول فراش الجندي الغائب عن العالم، وجلس الأمير بالقرب من رأسه، والتفت إلى صالح، قائلًا: أريدك أن تتولى علاجه.

هز صالح رأسه موافقًا، وقال: أحتاج لبعض الأدوات والمساعدة.

قال الأمير: اطلب ما شئت، أسأل الله أن يلطف به.

فحصه صالح جيدًا، وقال بقلق: أنفاسه ضعيفة، ودقات قلبه بعيدة، يحتاج إلى معجزة للنجاة بعد كل تلك الدماء التي فقدها. سأجهز له بعض العقاقير التي قد تقوي جسده، وتجدد دماءه، ولكن يحتاج إلى رعاية ومراقبة مستمرة.

تقدمت زوجة الأمير منه، وقالت: لدي خبرة بالتمريض، سأسهر على رعايته.

قال صالح: مولاتي، فلتقم بذلك إحدى نساء المدجنين، لتحظي ببعض الراحة.

قالت بإصرار: لن أرتاح قبل أن يتعافى، وأسأل الله ألا يسوؤني فيه.

هتفت فاتيما: وأنا- أيضًا- سأساعد مولاتي الأميرة في رعايته، أسفي على شبابه وروحه المجاهدة، لكم نفتقد إلى أمثاله من المخلصين الأخفياء الأتقياء الأنقياء.

سالت دموع عائشة التي تقف في آخر الغرفة، وأطرقت بصمت.

وقال عمرو بأسف: كنت أتمنى أن أعرفه جيدًا، وأتخذه صديقًا عوضًا عن الأيام التي قاتلتُه فيها.

بكت الأم بألم، فاض قلبها الممتلئ بالحزن لفقد ولدها، وتجددت أحزانها وآلامها لهذا الشاب الذي يحْكُون على إخلاصه وشجاعته وتقواه.

قال صالح بأسى: إيه أيها الصغير اليتيم، والوحيد!

بدأت حياتك ضائعًا في قفار الأندلس، وحيدًا شريدًا، لا أهل ولا وطن، وكاد النخاسون أن يسترقوك.

نظر إليه الأمير بدهشة متسائلًا: أهو؟!

قال مؤكدًا: وهل يكون إلا هو؟ كان يتردد على بيت الشيخ وهو صغير.

يا إلهي، كن مع هذا الإنسان الضعيف الشريد الخائف، واشفه شفاءً لا يغادر سقمًا.

أطرق برأسه حزينًا، وقال: هلّا ذكّرني أحدكم باسم هذا الشاب؟ يبدو أنني كبرت وشاخت ذاكرتي.

صمت قليلًا؛ ليفسح المجال لإجابة سؤاله، لكن لم يجبه إلا الصمت.

رفع رأسه، وجالت نظراته المتعجبة في وجوههم الحائرة، وهم يتبادلون نظرات الدهشة والتساؤل في انتظار أن يفصح أحد منهم عن اسم الشاب المسجّى أمامهم في فراش المرض.

ازدادت دهشته، وهتف قائلًا: ماذا! ألا يعرف أحد منكم اسمه!

عادت الدموع تسيل من المآقي على الشاب المجهول الذي لا يعرفون عنه سوى جهاده وتقواه.

خرَّ صالح على الكرسي بجوار فراش الشاب، وتأمل وجهه الذي خلت منه الدماء، وقال بصوت باكٍ: أيها الغريب الوحيد، الذي لا يعرفه أحد، عشت عابر سبيل في هذه الدنيا لا تبتغي منها إلا رضا الله، والجنة. تموت الآن غريبًا وحيدًا بين أغراب عنك لا يعرفون حتى اسمك.

قالت عائشة، ودموعها تسيل: مجهول في الأرض، معروف في السماوات، يتردد اسمه في الملأ الأعلى، ويحتفون به، هنيئًا للحور العين به.

تنهد الأمير، بألم: اللهم احشره مع صاحب النقب.

***

(14)

قام صالح بتحضير العقاقير الطبية اللازمة، واتخذ من عمرو- الذي استهوته الكيمياء، وسُرّ للغاية بتعلمها من أحد أربابها- مساعدًا له، وأخذ صالح يقطر العقاقير في فم الشاب الغائب عن الوعي، ويعطيها له بانتظام حتى عاد وجه الشاب للونه الطبيعي، وبدأت الحياة تدبُّ في جلده وأوصاله، وبدأت أصابعه تستجيب لرد فعل الألم عندما يشوكها صالح بشوكة.

وعندما بدأ جسده يتحرك، هلَّل الجميع فرحًا بنجاته، وتعانق عمرو وصالح، وابتسم الأمير ابتسامة عذبة عندما رأى البِشر يعلو وجه زوجته الحبيبة، وأدرك أنها تجاوزت محنة فقدان عامر بانشغالها بمراقبة حياة الشاب، الذي يذكرها بابنها الراحل.

وترقرق الدمع في عيني عائشة، وهي تلهج بالحمد والشكر لله على فضله وكرمه.

وضربت فاتيما كتف صالح بقبضتها بقوة حتى كادت تسقطه أرضًا، وهي تهتف بحماس: أيها العبقري، لو لم ينجُ لكنت قتلتُك.

ضمت قبضتها، وقالت مازحة: أفلت من يدي.

انشغل الجمع بالحديث والضحك، إلا عائشة التي كان عقلها في مكان آخر. عيناها تسترقان النظرات المتتالية نحو جسر الحب الخفي الموصول بنظرات الوداد، وابتسامات الشوق العذب المتبادل بين أمها وأبيها. نظرة حب واشتياق واحدة من عيني الأمير كافية لتروي وجنتَيِ الحبيبة بلون الورد، وتزين وجهها برقة وبهاء الحياء. دق قلبها بقوة لذلك الحب المتنامي بمرور الوقت المزهر بتقدم الزمن المثمر بزيادة الأولاد. حبٌّ كبير يتحول في أوقات الأزمات والمتاعب إلى درع يتمترس به كل أفراد الأسرة؛ ليزدادوا تماسكًا وقوة.

تنهدت من عمق قلبها، وترقرق الدمع في عينيها، ودَعَت الله أن يرزقها بزوج صالح يحبها دومًا كما يحب أبوها أمها.

تذكرت كلمات عامر عن الأسطورة الحقيقية؛ فتنهدت فرقًا، وأدركت كم هي عظيمة تلك الأسطورة التي ملأت حياتهم بالمودة والسكينة، وكانت درعًا قويًّا، وسيفًا مسلولًا يدرأ الخطر عن زوجها وأبنائها دون أن يعلم بها أحد.

عادت إلى ما يدور حولها، ونظرت نحو ذلك الشاب الذي كاد ينتصر على مرضه، وعادت أمارات الحياة إلى وجهه،

ترى، ما هو اسمه؟

يوسف

سمع اسمه يتردد في الغابة، فانطلق كمهر عربي حر في السهول الخضراء، وبين الأشجار الباسقة ليلبي نداء أمه، تتراقص خصلات شعره الأشقر فوق جبينه ووجنتيه مع نسمات الهواء.

مرَّت ذكريات الطفولة في عقله بسرعة خيل تتسابق في القفار تثير الغبار الكثيف حول مطلع حياته..

الحصار، الجوع،

موت إخوته وأبيه تباعًا أمام عينيه،

رحلة الخروج القاسية من إشبيلية مع أمه،

آخر لمسة ليد أمه قبل أن يغمرها التراب،

الشيخ أبو الحسن،

قسوة النخاس، ورجاله،

وجه الفارس الذي قاتل رجال النخاس، واستنقذه منهم واحتضنه على حصانه ليعود به إلى الشيخ أبي الحسن.

سمع صوت امرأة تحدثه، فهمس: أمي!

(كيف حالك الآن؟)

استيقظ أخيرًا، وبدأت تتضح معالم الأشياء في عينيه، ويتبين ما حوله، لكن مشاعره لازالت مقيدة بذكرياته البعيدة، لم يعرف المرأة التي تحدثه، وانتقلت عيناه تلقائيًّا إلى وجه الأمير الذي يقف إلى جوارها، وعلى وجهه ابتسامة ودودة، وشعر بقيد الذكريات يشدد

قبضته على روحه، ورائحة غبار الخيل تملأ أنفه، وصوت رجل يصرخ في أذنه، وهو يحكم ذراعه حوله: لن أسمح لكم بخطفه،

ظل يتأمل وجه الأمير الباسم بصمت للحظات، ثم أجاب بشرود: الحمد لله، لازلت حيًّا.

دارت عيناه في مَن حوله، وتوقفت لحظات عند النافذة البحرية؛ حيث يقف عمرو وأخته يتبادلان الحديث، وقد تخلت عن ملابس الرجال، وارتدت ثوب الأميرات.

شعر بنغزة في قلبه؛ فأدار وجهه إلى الجهة الأخرى بصمت، لتبادره فاتيما بحماس: حمدًا لله على سلامتك أيها البطل، غمرته بنظرة امتنان عميقة، وهي تقول: لن أنسى لك ما حييت أنك قطعت يد النخاس لأجلي، لأجل فاطمة.

خفض عينيه، واحتفظ بصمته، واقترب منه صالح، وهمس له: حسنًا، حمدًا لله على سلامتك يا.. يا..

انتظر أن يبادره بالإفصاح عن اسمه، لكنه بقي على صمته، فتنحنح متحرجًا: اعذرني، فنَوْبات الجنون أسقطت الكثير من الأشياء من ذاكرتي، يا...

أجابه أخيرًا: يوسف.

رفع صوته فجأة: حسنًا يا يوسف، جرحك كان عميقًا، وأتعبني علاجه للغاية.

خفض صوته مجددًا بعد أن أوصل الرسالة للجميع، واقترب من أذنه هامسًا: واضطررت إلى خياطته بخيط من أمعاء قط.

قال، بدهشة: أمعاء قط؟!

همس: هشت، اخفض صوتك، لا أريد لقطي أن يسمع هذا حتى لا يحزنه؛ فهو رقيق القلب. اضطررت لإبعاده عن هنا، وأنا أعالجك حتى لا يتأثر، رحم الله عالم الطب العظيم أبا القاسم الزهراوي، عبقريته أنقذت حياة الكثيرين، وكتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف" موسوعة في الطب والتطبيب والجراحة، عكفت على دراستها لسنوات، واسترشدت بها في علاجي لجراحك، ومولاتي الأميرة أشرفت بنفسها على تمريضك.

التفت إلى الأمير وزوجته، وتمتم شاكرًا: شكرًا لعطفك وكرمك يا مولاتي، أسأل الله أن يجزيك عني خيرًا.

قالت بابتسامة حانية: لم أفعل شيئًا يستوجب الشكر يا بني.

عاد صوت أمه يتردد صداه في عقله، فأخفى دمعة كادت تفضح ما يعتمل بروحه.

لكن بعض منه وصل لعقل الأم؛ فقامت قائلة: الأفضل أن نتركه يستريح ويسترد عافيته.

غادر الجميع وهم يتمنون له السلامة، تبعهم الأمير، لكن يوسف استوقفه قائلًا: مولاي الأمير.

التفت له، فأكمل بامتنان: شكرًا لك.

تساءل بدهشة: علام!

قال، وأصوات الماضي تدوي في أذنيه، ورائحة غبار الخيل في أنفه: على كل شيء.

هز الأمير رأسه دون أن يطلب مزيدًا من الاستيضاح، ثم سأله: ربما تسمح لي بأن أكون مستشارك، أو وزيرك، وأدير شئون القلعة حتى تتعافى، وتتولاها بنفسك؟

هز رأسه بشرود.

***

كان الأمير يدير شئون القلعة وينظم أمورها بحرفة وحنكة إدارية، اكتسبها من طول خبرته.

وبدأ بإزالة الجدار الذي يحصر المدجنيين في أسوأ حي في البلدة حتى تصبح بلدة واحدة للجميع، ولزم من بقي من القشتاليين في البلدة بيوتهم لفترة خوفًا من ردة فعل المدجنين تجاههم، أو تعرضهم للانتقام أو التهديد أو الإخراج من قبل الحاكم الجديد، لكنهم وجدوا الأمور مستقرة ولم يتعرض لهم أحد بسوء، فعادوا للخروج من بيوتهم، وفتح دكاكينهم، ومزاولة أعمالهم.

وتركزت جهود الأمير في إصلاح أسوار القلعة وتأمينها، وتدريب الشباب على الفروسية والسلاح؛ ليقوموا على حماية بلدتهم من أي عدوان خارجي.

* * *

عندما دخل عمرو على يوسف، وكان يتناول طعامه ابتسم بودٍّ: رائع، ما شاء الله، عافيتك تتحسن بسرعة.

قال يوسف، مرَحّبًا: سم الله، وتعال شاركني الطعام.

قال، ضاحكًا: لو علمت أمي لأمرت بسجني، فهي تعرف كيف هي شهيتي، لا يسدها حقل من الكلأ.

ضحك يوسف، ومد إليه بعضًا من الطعام: اطمئن، لن أخبرها.

أقبل عليه عمرو، وشاركه الطعام، وانضم صالح لهما في تلك الجلسة الودودة، وعندما انتهى يوسف من تناول طعامه، سأله صالح: حسنًا أيها الأمير، أحلامك أمر واجب النفاذ، تمنَّ عليّ.

قال يوسف، بحالمية: أشتاق للبحر، أريد التريض على الشاطئ في ضوء الشمس.

قال صالح، بقلق: لازال هناك خطر على صحتك، جراحك تحتاج لوقت للاستشفاء.

امتلأت ملامحه بخيبة الأمل، وشعر صالح بأنه كطائر حر كسر جناحه، ولم يتحمل قلبه أن يراه حزينًا، فاستطرد باسمًا: ولكن اطمئن، فأنا طبيبك وسأرافقك.



هتف عمرو، بحماس: وأنا أيضًا سأرافقك.

كان نسيم البحر عليلًا يداعب خصلات شعر يوسف الأشقر بحنان ليتراقص على جبينه، وجسده ملفوف بالضمادات، مما جعله يتخلى- مؤقتًا- عن قميصه، ويكتفي بعباءة فوق كتفيه، وهو يسير على رمال الشاطئ الناعمة بين عمرو وصالح، والثلاثة يتبادلون الأحاديث الودودة، والابتسامات تعلو الوجوه.

سمعوا صوت صهيل قريب، فصاح يوسف، بفرح: الجموح!

التفت الجميع نحو الصوت ليروا فرسًا فحلًا قويًّا، يتقافز ويصهل، يريد أن ينطلق ولجامه بيد فاطمة التي وقفت بجواره، وقبضتها في خاصرتها، ووجهها يشرق بابتسامة كبيرة، أطلقت الفرس فانطلق كالريح باتجاه صاحبه الذي استقبله بالعناق والحب، وهو يمسح وجنتيه وعنقه، ويربت على ظهره: اشتقت لك يا صديقي.

أخذ الفرس يقفز حوله ويصهل بفرح، وكأنما استشعر نجاة صاحبه من إصابته الخطرة، وصالح وعمرو يراقبانهما ضاحكين.

قال عمرو، مازحًا: عجبًا، ظننتك لا تبتسم أبدًا! أخبرني، لم أسميته الجموح؟

قال، وهو يضع جبينه بجبين فرسه الحبيب: لأنه لا يرده شيء، ولا يقدر عليه إنسي، يوم أن امتلكته لم أستطع أن أركبه إلا بعدما خضت معه رحلة طويلة من الترويض والتدريب، حتى صرنا صديقيْن، وقَبِل بي فارسًا له.

شردت عيناه بعيدًا، وبدت ملامح حزن في صوته: كان ثمنه هدية غالية من شيخي- رحمه الله، وتقبله في الشهداء.

تنهد عمرو، وتجاوز ذكر الشيخ حتى لا يحزنه: وكأن صفات الفارس من صفات فرسه.

ضحك الجميع، واستطرد يوسف: ولكن كيف أتى إلى هنا؟

عقدت فاطمة التي انضمت إليهم ساعديها أمام صدرها، وتنحنحت مبتسمة، فسألها يوسف: كيف عثرت عليه؟

فأجابت: أخبرني أحد الصيادين أنه ملك لأحد الغرباء يرتدي زيًّا أسود، فإن لم يكن للأميرة الصغيرة، فهو إذًا لك.

شرد يوسف لحظة وتجهم وجهه، غزا أعماقه سؤال، رغمًا عنه: لم يتقاطع اسمه مع اسمها، ووجوده مع وجودها، وأفعاله مع أفعالها، وكلماته مع كلماتها.!

انتفض من شروده على صوت عائشة تنادي أخاها، التفت الجميع إليها إلا يوسف الذي تظاهر بالانشغال بحصانه.

أقبلت عليهم، فسألها عمرو: أهناك شيء؟

قالت، بتردد: أتيت لأعتذر من الأمير يوسف.

لم يلتفت، لكنه هتف بصرامة مبالَغ فيها، وأنفُه يكسوه اللون الأحمر: لست بأمير.

تجهم وجهها، وقالت بارتباك: حسنًا، لقد أتيت لأعتذر عما سببته لك في القلعة، وفقط.

قال، بصوت جاف: لم أفعل سوى ما يتوجب عليّ.

هتفت بغضب، وقد استفزها أسلوبه: وأنا أيضًا، أفعل ما يتوجب عليّ، وشكرًا لكل ما فعلته.

رحلت بخطوات غاضبة، وأعين الجميع تتابعها بدهشة، وفاطمة ترفع إحدى حاجبيها بمكر.

انتبه الجميع فجأة على صوت صهيل قوي، وتطاير الرمال من حولهم، وفوجئوا بيوسف قد خلف عباءته وخفَّيه في المكان الذي كان يقف فيه من لحظة، وانطلق يطير فوق حصانه بمحاذاة البحر.

أصابتهم جميعًا الدهشة من أفعاله، ووضع صالح كفيه فوق رأسه فزعًا، وأخذ يناديه: عد يا يوسف.

ابتسمت فاطمة بمكر النساء، وعلقت قائلة: عجبًا لذاك الشاب! لو لم أر دماءه تنزف بعيني لظننت أن ما يجري في عروقه جمر مشتعل.

ومن إحدى نوافذ القصر العالية، كان الأمير يراقب ما يحدث على الشاطئ، وأسنانه تطحن بعضها بعضًا.

***

لم يكن يشعر بالراحة ولا الحرية إلا مع الجموح، يطير به فتتخلل الرياح جسده؛ فيصير روحًا شفافة تمر من خلالها نسمات الهواء بسهولة، وكأن له ألفَ جناح.

الطيران فوق ظهر حصانه هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يهدئ من روحه المشتعلة، ويطفئ نيران غضبه، قرع حوافر فرسه فوق مياه البحر، والرذاذ المالح يغمر جسده، ووجهه مع الرياح البحرية المحملة برائحة الأسماك والملح، وشعره يختلط بشعر حصانه، وكأنما صار الاثنان كائنًا واحدًا تحت السماء الواسعة التي تلتقي بالبحر الشاسع عند الأفق البعيد، فتشعره بأن الحياة أكبر من خياله وألمه وأحلامه وعذاباته.

لكن تلك المرة كانت النيران في عروقه مختلفة، فقد تحولت إلى جحيم مستعر شبَّ في روحه، وأحرق فؤاده. لا يستطيع أن يفهم ما الذي ألمَّ به.

كل شيء في عينيه صار خطأ، يخالف ما تربى عليه وما تعلمه طوال سنوات عمره. ما كان يسمح أبدًا في أي وقت مضى بأن يحوم حول الحمى، أو بأن تقترب الفتنة من قلبه.

تمنى أن يظل إلى الأبد يجري بحصانه حتى يبتعد إلى آخر الأرض لينجو بقلبه، تمنى لو يعود كما كان بكْرَ الفؤاد. كان يصارع بداخله وحشًا مجهولًا لا يدري ما كنهه، ولا كيف يدرأه؟

وحش لا تصلح معه كل أسلحة الأرض، ذلك الصراع الخفي الضاري هو أشد عليه من قتال الأعداء.

أدرك أنه لن يستطيع التغلب عليه وحده، ولن يستطيع الانتصار في معركته مع نفسه بمفرده؛ فلجأ إلى مولاه، وألقى قلبه الجريح بين يدي خالقه، ووكله وحده بروحه المعذبة وضعفه وقلة حيلته.

وقف على رمال الشاطئ بجوار حصانه، وماء البحر يمسُّ أقدامه، وتوجه إلى القبلة بعد أن توضأ بماء البحر، وصلى صلاة الحاجة، واستمر يجأر إلى الله بالدعاء، ويبكي وينتحب، ويذرف دموع التوسل والألم.

التصقت الرمال بوجهه، واختلط ماء البحر بدموعه، وهو يدعو ويبتهل أن يَصرف عنه الفتن ظاهرَها وباطنها، وأن يهدئ من روعه، ويقر روحه الهائمة.

حتى بدأت نفسه تهدأ، وينقشع ضباب روحه، ويشرق قلبه، ويعلو فوق الألم. وبمجرد أن أنهى صلاته حتى شعر وكأن روحه جُلِيت بماء طهور، ورَقَّ قلبه وهَفّ كنسمة رقيقة؛ فركب حصانه وعاد إلى القلعة يتهادى دون عجلة في ضوء الشفق الرائع، وهو يودع بقلبه الشمس وهي تغرب بتفاؤل، فلكل نهاية بداية، وبعد كل غروب شروق جديد، وما نهاية الحياة الدنيا إلا بداية الحياة الآخرة، الموطن الحقيقي والمستقر والمبتغى والأمل المنشود.

بمجرد أن ولج باب القصر بأقدامه الحافية حتى جمد في مكانه؛ عندما وجد الجميع مجتمعين ينتظرونه، وقد علت الدهشة وجوههم لمظهره العجيب، والرمال تغطي كل جسمه من خصلات شعره المبللة المبعثرة في كل اتجاه حتى أسفل قدميه.

تجهم وجهه، واشتعلت عيناه ببريق التحدي، وهو يجابه نظرات الأمير التي امتلأت بالغضب، وهو يقف أمامه شامخًا بهامته عاقدًا ذراعيه خلف ظهره.

اندفع يوسف متجاوزًا الجميع بصمت باتجاه غرفته، فلم يكن على استعداد لتبادل الحديث مع أي إنسان، وتبعه صالح ليطمئن على جروحه، وبمجرد أن مرَّ من أمام الأمير حتى استوقفه قائلًا بلهجة استياء: أحب أن أذّكر أمير القلعة بواجباته ومسئولياته تجاه رعيته.

توقف في مكانه، وحاول جاهدًا ضبط أعصابه، ثم التفت ينظر إليه.

أكمل الأمير بلهجة مستشار خَبرَ فنون الإدارة: أهم واجبات الأمير تجاه رعاياه، هو أن يحافظ على عافيته، ويستقوي على أمراض بدنه، ويطيع أمر طبيبه؛ حتى يستطيع النهوض بأعباء الحكم، وشئون الرعية في أقرب وقت.

ضاقت عيناه، وهو يراقبه بصمت المتحفز، وعلى وجهه غيظ مكظوم، وقلبه يشتعل بغضب جارف، يحاول- جاهدًا- أن يكبح جماحه.

أكمل الأمير: كما أن هناك واجبات أخرى تتعلق بالمظهر والملبس والأحاديث والأفعال عليك تعلمها.

اقترب منه يوسف، والحمم تخرج من عينيه وأنفه ووجهه كالجمر المشتعل، ابتلع تلك الغصة الحارقة في حلقه، وقال بصوت كالفحيح: ومن قال لك إنني أمير! لم ولن أكون أبدًا أميرًا.

هز الأمير رأسه، بأسف: إذًا، ستخذل الناس الذين اختاروك لتكون أميرهم!

قال، بانفعال: لم يكن اختيارهم، بل كان اقتراحًا منك.

قال، ببرود: فليكن، لكنهم الآن يعتبرونك الأمير.

كانت أنفاسه الهادرة وعروقه الفائرة وروحه الثائرة تنذر بانفجار وشيك، لكنه أحكم لجام غضبه، ونجح في السيطرة عليه، وقال بصوت خفيض، وبكلمات صارمة: لن أكون أبدًا الأداة التي تتحكم فيها؛ لتحقق لك ما لم تستطع تحقيقه بنفسك من قبل، سأعود لمكاني، ولتعد أنت لمكانك، ولتتحمل مسئوليات رعيتك. أنا راحل.

اشتعل الغضب في نفس الأمير، لكنه سيطر عليه بالبرود، وقال بصرامة: إذًا، فأنت تنتوي ترك الحصن والمغادرة بمجرد أن تشفى جراحك!

امتلأت نظراته بالتحدي والإصرار، وهو يقول بلهجة حاسمة: لا، بل سأرحل الآن.

تركهم يهمهمون ويتعجبون، ويعترضون ويندهشون، وانطلق بخطوات واسعة نحو غرفته، وتبعه الأمير، وقد استبد به الغضب وخلفه عبد الرحمن وصالح.

هتف الأمير بغضب بمجرد أن لحق به في غرفته: ما هذا الجنون الذي تلفظت به! هل أصابت الحمى عقلك! كيف سترحل وجراحك لم تبرأ بعد! وفي الليل!

أخذ يوسف يجمع حاجياته، ويبحث عن قميصه بعصبية، وهو يقول: أستطيع أن أتدبر أموري بنفسي، ولا أحتاج نصائح من أحد.

الأمير: تذكر أنك تلقي بمسئولياتك، وتتخلى عن رعاياك.

هتف، بغضب: بل هي مسئولياتك أنت، أخبرتك من قبل أنني لست أميرًا، لقد عاد إليهم أميرهم، وسأعود أنا إلى عملي الذي لا أعرف غيره، جندي يدافع عن الثغور، ويحمي بلاده.

اندفعت فاطمة إلى الغرفة كعاصفة عاتية: بل أنت الأمير.

نظر الأمير في عيني يوسف، وقال بلهجة آمرة: أجبها.

أشاح يوسف بوجهه بعيدًا، وأولاهم ظهره، وشرع في حزم حاجياته.

هتفت فاطمة: ستبقى هنا، وتتولى أمر الحصن؛ فنحن بحاجة إليك، هناك جيش من قشتالة في طريقه للحصن.

تجمد يوسف في مكانه، وسرى تيار من القلق في الغرفة، وسمع يوسف صوت عائشة التي تبعت فاطمة، وهي تقول: النخاس وخوانا، كان علينا تتبعهما وقتلهما.

قال الأمير: ما كان هذا ليحدث فارقًا، فملك قشتالة ما كان ليدع ما حدث في الحصن يمر، وبالتأكيد سيحاول استعادته وتأديب أهله.

سأل عمرو: وماذا سنفعل يا أبت؟

صمت قليلًا، ثم قال: اسأل الأمير، فقد اختاره الناس وارتضوا به، وعليه أن يخبرهم بما يجب أن يفعلوه في تلك النازلة.

هتفت فاطمة، بفزع: هل سترحل حقًّا، وتتركنا نواجه جيش قشتالة! يقيني بك أن نخوتك لن تسمح.

لازال يوسف يعطيهم ظهره، ولا يتحدث، أطرق برأسه وكأنما يفكر بعمق، لكن أحدًا منهم لا يشعر بذلك الألم القاسي الذي يكابده، والصراع المرير الذي يخوضه، ففي لحظة تتابعت الذكريات الأليمة في عقله، تلك الذكريات التي تركت حُفرًا عميقة في قلبه، وثقوبًا غائرة في روحة منذ أن وعى عقله قسوة الحياة...

حصار، جوع، موت، غياب الأحبة، فقدان الأمن.

تعاقبت أمام عينيه صور أحبته وهم يموتون واحدًا بعد الآخر، نسي ملامحهم لصغر سنه وقتها، ولم يتبق له سوى عمق الألم وقسوة الفقد ووحدة القلب.

وكانت أشد اللحظات وطأة على روحه موت أمه، التي لم يعد يتذكر ملامح وجهها، لكنه عاجز عن نسيان ألم لحظات احتضارها.

علا بداخله من جديد ذلك الصوت الذي يأتيه من وقت لآخر كلما اشتدت به الوحدة، وسيطر عليه الألم.

صوت طفل يبكي وحيدًا في القفار؛ ليغطي على أي صوت آخر، ويغرقه في بحر من الألم والوحدة.

أيقظته فاطمة من ذكرياته بإعادة السؤال، فالتفت ببطء ليجد الجميع قد تجمعوا في غرفته. أخذ يتطلع إليهم؛ عله يجد ما يساعده على حسم قراره، لكنه لم يجد سوى الانتظار والترقب لما سيقوله...

(سنجاهدهم)

مرة أخرى انطلقت الكلمة من عائشة ويوسف في نفس الوقت، وأصبحا محل نظرات التعجب من الجميع، لدرجة أن يوسف احْمرَّ وجهه، وأشاح ببصره بعيدًا، وأطرقت عائشة وقد علاها الارتباك، فابتسمت فاطمة وهي تتأملهما بتعجب.

قال يوسف، بعد أن ازدرد ريقه: تعاهدنا جميعًا على الجهاد، وبايعنا على الشهادة. لن نستسلم للغزاة، ولن نفتح لهم أبواب الحصن، سنتحمل الحصار، ونطلب مددًا من جيش أمير غرناطة.

قالت فاطمة: وما الذي يضمن لنا أن يرسل أمير غرناطة بمدد للحصن؟ وماذا عن المعاهدة بينه وبين ملك قشتالة؟

يوسف: لابد أن يتدخل، أليس الحصن أرضًا مسلمة، وأهلَه مسلمون! لابد أن يعود في أكناف المسلمين؟

ظهر التردد على وجه الأمير لحظات، ثم قال: سأرسل إليه ليمدنا بجيش لحماية الحصن.

تبادل الجميع نظرات الشك والارتياب، لكن إصرارهم على عدم التنازل عن الحصن أشعل فيهم روح الجهاد.

قالت فاطمة: سأكون بين الناس أحرضهم وأحمسهم على عدم التسليم، وتحمل الحصار والإصرار على المقاومة.

أومأ لها يوسف، وقالت الأميرة الأم: سأكون معك أنا وابنتي، وأجتمع بالنساء في الأحياء والأزقة والمنتديات.

قال الأمير ليوسف: لابد من الاجتماع بالتجار والأعيان، وإقناعهم بعدم الاستسلام للأعداء، والمساعدة في التدبير لتحمل الحصار.

يوسف: حسنًا، سأدعوهم إلى القصر، وأجتمع بهم لأعرف موقفهم.

نظر إليه الأمير، وقال- بتردد- متنحنحًا: حسنًا، فلنتدبر أمر ملابس مناسبة لهذا اللقاء.

شبت النار في وجهه، وعلا صوته غضبانًا: لن أستبدل ملابسي لأجل أي إنسان، إن كانوا يقبلون بي أميرًا فليتقبلوا مظهري وملابسي.

قال صالح: لكنها تمزقت في أكثر من موضع في معاركك مع فرسان القلعة.

قال بغضب: سأرتقها بنفسي كما أفعل دائمًا.

تدخلت فاطمة بحزم وجرأة، وانقضت على الملابس التي في يده تجذبها منه، وهي تصيح: أميرنا يرتق ملابسه بيديه! ما كنا لنستحقه لو تركناه يفعل، فنحن أولى الناس به.

تمسك يوسف بملابسه، ووجهه يحمر، وهي تجذبها منه: لن يرتقها غيري.

هتفت، صائحة: وهل خلت البلدة من الحائكين والخياطين!

انتزعتها بقوة من بين يديه، وهي تقسم: والله لن تفعل أبدًا، وفي البلدة فاطمة، سأعيدها لك كالجديدة.

استسلم لها، والضيق وعدم الرضا يبدو في ملامحه، وعمرو وصالح يبتسمان من طرافة المشهد.

***

عندما اجتمع أمير القلعة (يوسف)، ومعه كل أعوانه مع التجار والأعيان في القاعة الكبرى بالقلعة، وفي الجانب الآخر من القاعة تجلس عائشة وأمها وفاطمة تفصلهن الستائر عن الجمع، وتتيح لهن الاستماع للحديث؛ بدأ يوسف الحديث: لقد طلبت لقاءكم؛ لتعينوني على صد هجوم الأعداء عن الحصن.

تبادل التجار النظرات، ثم ابتسامات المداهنة، وقلبوا أكفهم.

كان الأمير عبد الرحمن يجلس صامتًا يتأمل وجوههم، ويقرأ ما يدور في عقولهم، وبداخله الكثير من المرارة، فهو أكثر من يدرك معنى تلك النظرات والابتسامات التي تخفي خلفها الكثير.

قال شيخ التجار: مولاي الأمير، نحن قوم لا دراية لنا بالحرب، ولا نعرف سوى التجارة والزرع.

قال يوسف: لكن الأعداء سيهاجمون الحصن، وبيوتكم وأموالكم وزرعكم وتجارتكم مهددة، ألن تدافعوا عنها؟

قال تاجر العطور: أغلب الناس في الحصن مدجنين، لا طاقة لهم بقتال، ولا مهارة لهم في إمساك السلاح، ولن يصمدوا أمام جيوش القشتاليين.

قال ثالث: مولاي الأمير، لا نريد مصيرًا كمصير أهل إشبيلية، نريد أن نبقى في ديارنا وأرضنا وأموالنا.

قال آخر: الأمر ليس سيئًا إلى هذه الدرجة، فقد كنا نعيش مع القشتاليين في سلام، ونتاجر معهم، فلم نسعى للحرب!

وقال آخر: أمير غرناطة بنفسه لا قبل له بقتالهم، فهل نستطيع نحن!

رحل التجار والأعيان، واجتمع أمير الحصن وأعوانه حول منضدة كبيرة يتشاورون في الأمر ومخاطره، وكيف سيتصرفون...

الأمير عبد الرحمن: هذا ما توقعته من التجار والأعيان، لم يتبدل الأمر بعد مرور كل تلك السنوات.

فاطمة: هم أكثر المستفيدين من احتلال القشتاليين للبلاد، لم يسعون لمقاومتهم وهم يتكسبون من ورائهم؟ هؤلاء يتاجرون بأعراضنا ودمائنا، ويبيعوننا سلعة رخيصة للأعداء؛ لتبقى تجارتهم رائجة.

الأمير: لن يتركوا أموالهم التي اختلطت بالربا وتجارة الخمور والحانات، ناهيك عن أولادهم ونسائهم وعبيدهم وجواريهم؛ ليجاهدوا في سبيل الله ولحماية بلادهم، فلا تعتمدوا عليهم.

يوسف: إذًا، فعندما يجيء الحصار- وهو قادم لا محالة- لن ننتظر منهم أن يساعدوا في تحمل الحصار بأموالهم، أو بأي شيء من طعام أو حبوب أو مئون؟

الأميرة الأم: علينا أولًا أن نعرف رأي أهل الحصن، وهل سيتحملون الحصار، أم أن ردهم سيكون كرد التجار والأعيان؟

فاطمة: وهل يمكن أن يخسروا أكثر من خسارتهم باحتلال القشتاليين؟

عمرو: وهناك أمر هام لابد أن نحسب حسابه جيدًا، إنهم القشتاليون من أهل الحصن، علينا أن نؤمن جانبهم ونحمي جبهتهم، حتى لا نحصر كما حصر الرسول- صلى الله عليه وسلم- في الخندق

ولكن.. لم لا نقاتلهم بسلاح صالح؟

نظر الجميع نحوه، وانشرحت صدورهم لفكرته البارعة التي تاهت عن تفكيرهم جميعًا وسط كل هذه الأحداث المتلاحقة، ثم انطلقت صيحات التأييد والتهنئة لعمرو، وأوكل يوسف مهمة إعداد السلاح وتجهيزه لصالح وعمرو.

بأمر أمير القلعة؛ احتشد الناس في الساحة الكبرى في البلدة ليلتقوا بأميرهم ويتحدث إليهم.

وخرج عليهم يوسف في لبس الحرب بعد أن أمر كل المجاهدين بلبسه، وأطاعه الجميع، وأولهم الأمير.

كانت كل العيون معلقة بأمير القلعة، والنظرات تفصح عما يعتمل في النفوس من قلق.

وقف التجار والأعيان في جانب من الساحة، وعلى وجوههم عدم الرضا، تحدث أحدهم للآخرين بصوت منخفض يقطر سخرية: هذا ما كان ينقصنا! أمير زاهد مجاهد يستعدي أهل الأرض علينا! ويلزمنا بحصار، ويعدنا بمجاعة قادمة!

قال آخر: يظن أن الفقراء سيلتفون حوله ويناصرونه! لا يعرف ما فعلوه بسابقه.

قال ثالث: علينا أن نتفق إلى أي الفريقين سننضم.

قال رابع: نراقب من بعيد دون تدخل، ثم ننضم للغالب.

قال شيخ التجار: الأمر ليس بالسهولة التي تعتقدونها، إنهم يعدون العدة لحصار طويل، وسرعان ما سيطلبون منا أن نفتح المخازن، ونشرك الدهماء والرعاع في أقواتنا وأموالنا.

خيم الصمت على الساحة، واستمع الناس لأميرهم، وهو يتحدث إليهم عن مآثر الجهاد وفضل الاستشهاد، ودرء الأعداء، وأخذ يذكرهم بالله ورسوله، ثم أخذت فاطمة دورها بتذكيرهم بحياتهم السابقة، وكيف عاشوا في ذلٍّ، وما فعله بهم القشتاليون، وكيف سرقوا أقواتهم واسترقوا أبناءهم وبناتهم وأذلوهم بالربا.

خرج لهم شيخ طاعن في السن تصل لحيته البيضاء حتى خصره، ويجلس على محفة يحملها أربعة شباب.. نظر يوسف نحو فاطمة متسائلًا، فأجابت: إنه شيخ المسجد.

قال الشيخ، بصوت واهن: أيها الأمير، أذكرك بقول الله تعالى "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة"، كيف لنا أن نقاوم مملكة قشتالة وفرسان القلعة! "لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها"، إن الجهاد عند الاستطاعة على دفع الأعداء، ونحن لا طاقة لنا بهم. حكمهم حكم الحاكم القوي المتغلب، ونحن لا حول لنا ولا قوة.

اشتعل الغضب في عروق يوسف، واستل سيفه من غمده، وأشار به نحو الشيخ، وهو يقول بصوت هادر، وقد احمر وجهه: أيها الضال المضل! أتجعل آيات الله قراطيس تخفي بعضها وتبدي البعض؛ لتلبس على الناس دينهم! أتحمّل الآيات بما لا تحتمل، وتفسرها على هواك! أتدعي حفظ كتاب الله، ولا تتلو آيات الجهاد وقتال الأعداء فيه؟ عقابك بقلع رأسك تلك التي تضل بها الناس.

دبَّ الرعب في أوصال الشيخ، وأمر حملة المحفة بالتراجع بسرعة.

صرخ الأمير عبد الرحمن: اغمد سيفك أيها الأمير، وإياك أن ترفع سلاحك في وجه أحد من رعيتك إلا بحق الله ورسوله. أنت أميرهم وراعيهم، والمسئول عن كل فرد فيهم، صالحهم وطالحهم، غنيهم وفقيرهم، شريفهم ولصهم.

أغمد يوسف سيفه، وطأطأ رأسه أسفًا وخجلًا، ووقف يستمع للأمير وهو يقول: الأمر لا يحتاج إلى جدال ولا كثرة كلام، أمرنا الله تعالى ورسوله بمجاهدة الأعداء ودرء الغزاة المعتدين عن بلادنا،

والدفاع عن ديننا وأرضنا وأعراضنا وأموالنا، وكل فرد يعلم هذا، وعليه أن يختار، إما جهاد في سبيل الله لنيل إحدى الحسنيين، أو ضربت عليهم الذلة والمسكنة.

خيم الصمت على الساحة، وأطرق الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، وانتاب يوسف الضيق والإحباط، فنفسه التي شبَّت على حب الجهاد والعزة والكرامة، لا تحتاج إلى كل هذا الوقت من التفكير والتردد، فمن ذا الذي يفضّل الذل على النصر أو الشهادة ومجاورة الصديقين!

خرج صوت من بين الناس، وقال: أيها الأمير، لقد كان لنا أمير قبلك، وكان محبًّا للجهاد، وأخذ يدفعنا دفعًا إليه، وعندما دخل القشتاليون القلعة، أبادوا جنوده، وسمعنا أنه الوحيد الذي نجا من القلعة. أتريدنا أن نصنع لك جيشًا من أجسادنا ليُباد عن آخره! الهروب هو دأب الأمراء الذين يقاتلون بدماء غيرهم، ويخوضون معارك لا قبَل لهم بها؛ طمعًا في تحقيق أي انتصار، وعند الهزائم يفرُّون بأرواحهم ويتركون رعاياهم يبادون أمام الأعداء.

نظر يوسف نحو الأمير عبد الرحمن فوجده يطرق برأسه، والخزي يقيد عنقه، والهم والحزن يكسو وجهه، ثم انسحب إلى الخلف، وكانت زوجته تتابعه، فتبعته حتى وقفت إلى جواره.

لم يرد يوسف، بل جال ببصره في وجوه الناس، واستشعر من صمتهم الموافقة الضمنية لحديث الرجل، وتواطأ الصمت مع الوهن وروح الهزيمة لتفعل أفاعيلها بالنفوس.

شق صوت أنثوي عالٍ سكونَ المكان: أنتم تريدون مخلّصًا!

التفتت الساحة بكاملها نحو الصوت، وانتفض الأمير عبد الرحمن عندما عرف صاحبته، ورنا ببصره إليها، فوجدها تخطو وسط الساحة، وتقول: أنتم تريدون من يجاهد عنكم، من يقاتل ليحمي أموالكم ونساءكم وأولادكم! تريدون فارسًا أسودَ مجهولًا، تنسجون حوله الأساطير، وتصدقونها لتناموا مطمئنين قريري العين أن هناك من يحميكم ويعتني بكم! حسنًا، لم لا تحلقون لِحَاكُم، وتجْدِلون شعوركم، وتجلسون بجوار نسائكم في الدور، ثم ترفعوا أكفكم للسماء، وتطلبوا من الله أن يبعث لكم ملكًا ليقاتل دونكم الأعداء!

هل علمتم ما فعلتم بأميركم المجاهد من قبل! قلتم له اذهب أنت وربك فقاتلا، فلا قِبَل لنا بقتال.

دمعت عينا أبيها، وهو يرنو إليها بفخر واعتزاز، وهي تدور في الساحة تصرخ في الناس غاضبة: خذلتم أميركم المجاهد، وتركتموه يقاتل الغزاة وحده، وغلّقتم عليكم الأبواب، وقلتم لأنفسكم لعلنا نتبع القشتاليين إن كانوا هم الغالبون، فأذاقكم الله الذل ألوانًا على أيديهم، ذلك بما كسبت أيديكم، فمن أعان ظالمًا سلطه الله عليه.

هتف أحدهم: نحن لم نخُن الأمير، ولم نُعن الأعداء عليه.

هتفت: لقد خنتم أنفسكم، تبايعتم بالعيينة، واتبعتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع، فنبت الوهن في قلوبكم، وضرب بجذوره في أرواحكم! أي خيانة أكبر من أن ترَوُا الحق وتعرفوه، ثم تخذلوه؟

إنه لعين نصرة الباطل. أميركم رعى الله فيكم، وقاتل لحمايتكم وحماية أرضكم وأعراضكم، حتى أحيط به وأنتم تشهدون. والآن، أرسل الله لكم أميرًا مجاهدًا طرد الغزاة هو ورجاله، وردَّ كيد الأعداء عنكم، فماذا أنتم فاعلون؟ هل ستتركونه يقاتل وحده، وتقبلون بالدنية من دينكم ودنياكم؟ أم ستقاتلون دفاعًا عن أرضكم ودينكم وعرضكم وكرامتكم؟

أدرك يوسف- أخيرًا- سر ذلك الالتقاء المستمر بينهما في الأفكار والمشاعر والأهداف، وحتى الكلمات. إنه ذلك العلم والفهم الذي اكتسباه على يد الشيخ أبي الحسن رحمه الله، وكأنه ترك جزءًا من قوة إيمانه وإخلاصه في عقل كلٍّ منهما، عجز عقله عن التخلص من تلك الأفكار التي اقتحمته مجددًا، والمشاعر التي ارتدت إليه بعد أن ظن أنه تخلص منها إلى الأبد على شاطئ البحر.

أغلق عينيه بقوة، ونفض رأسه، وعاد لما يحدث في الساحة، وذلك السكون الذي فرش رداءه على المكان. كان يبدو أن خلف الصمت الذي عم الساحة صراعٌ شديدٌ كنارٍ تحت الرماد، حتى كسر الصمت شابٌّ قد ناهز السابعة عشر، صرخ رافعًا يده: أنا سأجاهد مع الأمير.

ولم يكد يتقدم حتى أطلقت أمه صرخة مدوية، وهي تجذبه من ملابسه: لا، إسماييل، لن أدعك تموت.

وكأن صراع إسماييل وأمه إيذانٌ بانفجار ذلك الصراع الصامت بين الشباب وأهلهم؛ ليظهر في العلن، فبدأ صوت الشباب يعلو تباعًا

مطالبين بالجهاد ومناصرة الأمير الذي يقاربهم في العمر والتفكير والمشاعر.

ابتسم الأمير عبد الرحمن عندما تأكد من صواب تفكيره بترك مسئولية القلعة والحصن إلى شاب مثلهم فضّل الجهاد على حياة الدعة والركون إلى الدنيا، وفضّل رضا الله ورسوله على فتنة النساء والمال والحكم، فشجع الشباب أن يحذوا حذوه، ويختاروا الدفاع عن أرضهم. ولكن أهالي الشباب، آباء وأمهات خائفين متمسكين بالدنيا، ملأ الوهن قلوبهم، وافتتنوا بالنساء والأولاد وركنوا إلى الدنيا. لكن في النهاية، عجز الوهن عن الوقوف أمام قوة الشباب وإصرارهم وحماستهم ورغبتهم في الحرية والكرامة.

بدأ الأمير يوسف بتكوين كتائب من عدد لا بأس به من شباب الحصن، ووكَّل أمر تدريبهم على السلاح لمن بقي حيًّا من أفراد كتيبة المئذنة.

وأشرف الأمير عبد الرحمن على تحصين المدينة بكافة الوسائل المتاحة، وإصلاح أبوابها وتخزين المؤن للحصار القادم. وصالح مشغولٌ بتجديد سلاحه وتطويره يساعده في عمله عمرو. وفاطمة وعائشة وأمها يدُرن على نساء المدينة يطمئنهن، ويتعرفن على مشكلاتهن، وأولادهن، ويدَبّرن معهن الوسائل المناسبة لمقاومة الحصار، ومساعدة العائلات التي هُدمت بيوتهم.

كان الكل يعمل بجدٍّ وسرعة، ونشر يوسف عيونًا له على طول الطريق؛ لينبئونه بتحركات جيش القشتاليين.

ونجح يوسف في إعداد وتجهيز كل شيء قبل وصول جيش القشتاليين لأبواب الحصن، وانتشر رجاله على أسوار الحصن، ووقف هو والأمير عبد الرحمن وأسرته بجوار سلاح صالح ينظرون بقلق وترقب إلى جحافل القشتاليين، وهي قادمة من بعيد. في مقدمتها طبول الحرب التي تقرع برتابة، خلفهم القادة والفرسان، ثم القساوسة والرهبان، ثم الجند. وقد قسم الجيش إلى ميمنة وميسرة ومقدمة ومؤخرة وقلب الجيش يقوده القائد.

كان الجيش مسلحًا بأفضل الأسلحة والدروع، وبه أعداد كبيرة من الفرسان.

غاص يوسف في أعماق ذاكرته إلى مشهد مرَّ به من قبل، يشبه هذا المشهد، شعر بوخز دمعات في عينيه تريد الهروب من بين أجفانه، فأطبق عليها ومحاها قبل أن تتكاثر من حرارة اللهيب المؤلم الذي اشتعل في فؤاده، وصوت ذلك الطفل الصغير الذي يبكي ويصرخ من الرعب يدوي في أذنيه.

شعر بأنه عاد ذلك الطفل الصغير الذي حمله والده ومعه إخوته الأكبر سنًّا، ووقفوا فوق أسوار حصن إشبيلية يرقبون الأعداء من بين الفتحات العلوية للسور، يأملون برحيلهم بعد أن بلغ منهم الجوع مبلغه، وأكلوا أوراق الشجر وحشائش الأرض والقطط والجرذان.

تذكَّر أمه، فشعر بوخز الدمع من جديد، وتسللت يده إلى جيبه تتلمس حبيبات صغيرة تمسحها أنامله مرات وهو يمسك- بقوة-

عينيه؛ لكي لا تبدي حزنه الدفين، وتفضح ألمه القاتل. وصورةُ أمه تتبدى أمام عينيه، وعابرو السبيل يهيلون على جسدها التراب.

أصبح الجيش على مسافة مناسبة لإطلاق السهام؛ فأطلق الرماة في الجيش سهامهم غزيرة على الأسوار وأبراج الحصن، فتترس الأمير والمجاهدون، واحتموا بالدروع من الأسهم الماطرة.

ظل تقدم القشتاليين نحو السور، حتى وصلوا إلى مسافة مرمى نيران سلاح قاذفة النار.

فأشار الأمير يوسف إلى صالح أن يطلق القذيفة الأولى، فانطلقت القذيفة ونزلت بينهم، وقتلت منهم الكثير، وهرب الكثير، وأحدثت فجوة كبيرة في الأرض، ونشرت الفزع والرعب في صفوف الجيش.

تجمع الجنود والفرسان من جديد بعد أن ناداهم القادة وأمراء الجيش، والتئم شملهم، وأخذوا يتقدمون من جديد.

أمر الأمير يوسف بإطلاق قذيفة أخرى؛ فأحدثت فوضى عارمة بين صفوفهم، لكنهم لم ييأسوا، واستمر تقدمهم بعد أن ناداهم أمراؤهم وقادتهم، حتى وصل بعضهم إلى أسوار القلعة، ووضعوا على جدارها السلالم وأخذوا يصعدون، فتشجع الكثير من الجند، وهجموا ركضًا تجاه السور، وأخذوا يصعدون السلالم الخشبية، فتولى أمرهم الرماة من فوق السور، وأمطروهم بالسهام، وبدأ القلق يتسلل للجميع، وأخذ يوسف يدرس المكان بعينيه، وترتيب جيش الغزاة.

ثم أمر صالح أن يعدل اتجاه السلاح، ويصوب نحو قلب الجيش

نفذ صالح الأمر، وانطلقت القذيفة إلى هدفها مباشرة؛ تحصد كثيرًا من أرواح القادة والأمراء، وأحدثت فوضى عارمة في الصفوف، وفعلت خطة يوسف فعلها، وصرخ الأمراء في الجيش بالانسحاب، فولَّوا الأدبار جميعًا، وانسحبوا بعد أن أدرك القادة والأمراء مدى عجزهم في مواجهة السلاح الجديد الذي صار في حوزة أمير الحصن.

تعالت صيحات التكبير والتهليل من الأسوار والأبراج، وتردد صداها في أرجاء البلدة فرحًا بانكسار جيش الغزاة وانسحابه، وخرج الناس يكبرون ويهللون في الأزقة والطرقات، وعم الفرح البلدة.

واحتضن الأمير عبد الرحمن أسرته، وضمَّهم جميعًا تحت جناحه، وهو يبكي فرحًا، ويجاوبونه بالبكاء.

وأخذت فاطمة تصرخ من السعادة، ودموعها تهطل كالمطر، وهي تضرب كتف صالح: أحسنت، أحسنت أيها البهلول، يا لك من عبقري.

وقف يوسف وحيدًا جامدًا صامتًا، يراقب هرولة الجند والفرسان وانسحاب الأمراء، وهو لا يكاد يصدق، شيء ما في داخله يشعر بالقلق، ينبض قلبه نبضة ألم تليها نبضة خوف.

وبمجرد أن أيقن أن ما يراه حقيقة وليس حلمًا، حتى عادت الدماء تسري في عروقه، وارتدتّ إليه أنفاسه الضائعة، وتحررت دموعه من سجن أجفانه، وأخذت أطرافه ترتجف، وخرَّ في مكانه، وألقى بجبهته على الأرض في سجدة شكر طويلة أن أنجاهم الله من مواجهة ذلك

المصير الرهيب، مصير إشبيلية.

لم يفق يوسف من سجدته، التي طالت إلا على يد تطرق كتفه، فقام ينظر للأمير الذي ابتسم له بودٍّ وإعجاب قائلًا: أحسنت أيها الأمير.

ضمَّه بقوة إلى صدره، وأخذ يربت على كتفه، وهو يردد: أحسنت. ويوسف عاجز عن الكلام، تهطل دموعه بما يجيش في صدره.

***

اتجه الأمير يوسف للاهتمام بشئون الرعية، وكان أول ما اهتم به هو إصلاح المسجد الكبير، ونشر العلم فيه، وأرسل إلى علماء غرناطة يدعوهم للمجيء إلى الحصن وتعليم أهله، وجعل في المسجد مدارس للقرآن والفقه والعلم، وأوكل أمرها للأمير عبد الرحمن، وافتتح كتاتيب لتعليم القرآن والقراءة والكتابة للأطفال صبيانًا وبنات، أشرفت عليها زوجة الأمير وابنته عائشة، وأجبرت فاطمة "زاك" على الالتحاق بالكتاب وترك السرقة، وأعاد الأمير بناء الحمامات التي هدمها ريموند وجنده.

وأعطى صالح بيتًا كبيرًا، وأمر له براتب وخدم ومساعدين؛ ليتفرغ للعلم والإتقان، ويعلّم الشباب الكيمياء والطب وسائر العلوم، وكان أول تلامذته هو عمرو.

وكم كانت دهشته كبيرة عندما طلب منه صالح أن يتحدث إلى أمه وأخته؛ ليتوسّطا له لدى فاطمة؛ لتوافق على الزواج منه.

وعندما تحدثتا إليها ظهر على وجهها الاستياء والامتعاض، لكن عائشة وأمها ظلتا تحفّزانها وتحرضانها، وتذكران لها مميزاته حتى

رضيت على مضض، لكنها اشترطت حتى توافق أن يستحم ويمشط شعره ويقلم أظفاره ويلبس الحسن من الثياب.

صعب الأمر عليه في البداية نظرًا للسنوات الطويلة التي قضاها في السجن بعيدًا عن كل هذا، لكنه فعل أخيرًا لأجل خاطرها، وكان زفافهما حديثَ أهل البلدة لأيام، واستقرت فاطمة أخيرًا في بيت جميل مع زوج محبٍّ جمع بينهما العناء والألم وقسوة الحياة لينالا الراحة بعد عناء.

والتف الشباب حول أميرهم الشاب، وتفاءلوا به خيرًا، وأشرف بنفسه على تدريبهم على الفروسية والسلاح.

وبدأ التجار والأعيان يتململون ويتضجرون من هذا الأمير المجاهد الزاهد التقي، الذي منع الربا، وشدد المراقبة على احتكار السلع والغش في الأسواق، وضيّق على الحانات وحجمها، وحاصر صناعة الخمر حتى بدأ تجار الخمور يخسرون، وبدأت الحانات تغلق أبوابها من قلة روادها، وانصراف الناس عنها إلى العمل والكسب.

وبدأ الناس يتنسمون العدل والرحمة بعد أن عين الأمير قاضيًا عادلًا تقيًّا يحكم بين الناس بالعدل، وبدأ الناس يقارنون بين حياتهم تحت الغزاة المحتلين وبين حياتهم في ظل أمير زاهد تقي ينشر العدل والرحمة والخير بينهم.

وكأن الأرض فرحة بإقرار العدل عليها، فنشرت خيرها وضاعفت محاصيلها، وأثمرت أشجارها؛ فكانت خيرًا كثيرًا على الجميع.

* * *

(15)
والأخيرة

لم يستطع ملك قشتالة العودة لغزو الحصن، وقد أدرك قوة السلاح الرهيب الذي يمتلكه أمير الحصن المسلم.

كان أكثر ما يثير رغبته في الاستيلاء على الحصن هو ذلك السلاح الخطير الذي حصد أرواح فرسانه وجنوده في غمضة عين، وكأنه شهاب نار أطلقه جني!.

فاستدعى أمير غرناطة إلى مجلس الكورتيس، وأخذوا يضغطون عليه، ويهددونه إن لم يعد الأوضاع إلى ما كانت عليه ويعطيهم الحصن؛ فسيتحالفون مع مملكة أرجون على غزو بلاد المسلمين وطردهم منها شر طردة. واضطر الأمير أن يرضخ مجددًا.

وصلت الأخبار المريعة إلى أهل الحصن بتجديد أمير غرناطة للمعاهدة وبنودها المخزية، والتي تقضي بإعادة الحصن إلى ملك قشتالة، بل بإقطاعه المزيد والمزيد من أراضي المسلمين وحصونهم التي وصلت إلى مئة حصن حتى يَسْلم الأمير وكرسيه في غرناطة والأرض التي يقف عليها من غزو القشتاليين.

واشترط القشتاليون إخلاء هذا الحصن من أهله، وطردهم وتشريدهم كعقاب وعبرة لكل من تسول له نفسه بتحدي ملك قشتالة، وجهز أمير غرناطة جيشًا من الجنود المسلمين، وأرسله إلى الحصن لمحاصرته، وقابل أهل الحصن وأمراؤه الخبر بالذهول والعجب، إذ كيف لأمير مسلم أن يسلم أراضيه بهذه السهولة للأعداء! وأن يطرد منها أهلها ليحل الغزاة محلهم!

وكان رد الأمير عبد الرحمن حاضرًا: لقد فعلها من قبل.

لم ينم أحد من أهل الحصن في هذه الليلة، فالناس جميعًا في حالة ذهول وخوف يتفكرون بما سيحل بهم في الغد عندما يصل جيش غرناطة المسلم إلى أبواب الحصن، ويحاصرون إخوانهم!.

واجتمع الأمير يوسف وأعوانه طوال الليل يتدارسون الأمر على كل وجهٍ، ويضعون الاحتمالات، ويبحثون عن حل.

واجتمع الأعيان والتجار وشيوخ الطوائف، واتجهوا إلى القلعة للتحدث إلى الأمير؛ فاجتمع الجميع في القاعة الكبرى.. الأمير يوسف ورجاله، ومستشاروه، وأسرة الأمير عبد الرحمن من جانب،

وأعيان الحصن، وأغنياؤهم، وشيوخ الطوائف من جانب.

قال شيخ التجار: أيها الأمير، كنت فينا حاكمًا عادلًا، عرفنا عدلك وتقواك ومروءتك، فأطعناك وناصرناك، وحاربنا معك الأعداء، ولكن..

ظهر التردد في صوته، فأكمل آخر: ولكن الأمر مختلف هذه المرة، من سنقاتل؟ هل نقاتل جيش غرناطة المسلم؟ هل نقتل أنفسنا!

قال ثالث: لازلنا ندين بالولاء لحاكم غرناطة، وندعو له على المنابر، وله علينا حق السمع والطاعة.

قال آخر: وماذا لو انتصر علينا جيش غرناطة؟ إذًا، لسالت دماء أهل الحصن تحت أقدام المسلمين يقتلون منا ونقتل منهم حتى ننهك ونقضي على بعضنا البعض، ونعجّل بسحق غرناطة واستيلاء القشتاليين عليها!.

كان الأمير يوسف يجلس صامتًا، يستمع إليهم دون أي ردة فعل، فقط يضرب كفه الأيسر بقبضته اليمنى، وعقله غارق في التفكير.

نظر إلى الأمير عبد الرحمن؛ عله يتحدث، لكنه بقي على صمته، ووجهه جامد لا يشي بما في صدره.

الكل سكت، صالح وعمرو والمجاهدون القدامى من كتيبة المئذنة وزوجة الأمير وابنته، حتى فاطمة سكتت، فلم تكن تدري ما الذي يمكن أن تقوله في هذا الموقف العصيب!

بقي يوسف على صمته، وفي قلبه خضم عاتٍ من المشاعر المتباينة، ينظر نحو الأمير عبد الرحمن ينتظر منه كلمه أو إشارة، لكنه لم يفعل.

تسللت في نفسه همسة، لم يدْرِ هل سمعها بأذنه أم بقلبه: لن نترك أرضنا للأعداء أبدًا.

التفت تلقائيًّا نحو عائشة في نظرة عابرة، لم تحرك شفتيها، لكنه قرأها بوضوح في عينيها.

هب قائمًا، وهو يهتف بلهجة حاسمة: لن نترك أرضنا للأعداء أبدًا.

أصاب الجميع الخرس من قول الأمير الحاسم، وأخذوا يتبادلون النظرات المتعجبة، ورفع أحدهم صوته: ولكن أيها الأمير..

قاطعه قائلًا: لن أسمح بتسليم أرض المسلمين للجيش القشتالي؛ لينكلوا بأهلها، ويذيقونهم العذاب، ويفتنوهم في دينهم. لن أدعهم يطردون أصحاب الأرض من بيوتهم وأراضيهم، ليس وأنا حيٌّ.

قال شيخ التجار: نستطيع التفاوض مع جيش قشتالة، ونعيد الأوضاع كما كانت عليه؛ ليتركوا أهل البلد في دورهم وبيوتهم ويؤمنوهم على أرواحهم وأموالهم.

هتف يوسف بغضب: ومنذ متى وهم يوفون بالعقود!

قال أحد الأعيان باستنكار: إذًا فهل نقاتل مسلمين!

رد: لن نبدأ بقتالهم، ولن نسلّم الحصن مهما حدث، فليمزقوا لحمي وليريقوا دمائي قبل أن أتنازل عن أرض للمسلمين.

ثارت ثائرة الجمع، وأخذوا يهمهمون ويعترضون بغضب.

فقال: هذا ما أدين به لله ورسوله، وإن اجتمعت كلمة أهل الحصن على التسليم؛ فسأخلع نفسي من الإمارة، وأصير جنديًّا عاديًّا يدافع عن الحصن ويحمي أهله، مصيري مصيرهم، وحياتي فداء لهم،

ولتختاروا أميرًا غيري يوافق هواكم.

قال جملته الأخيرة، وهو ينظر في عيني الأمير عبد الرحمن، وكأنما يدعوه إلى استعادة مكانته ومكانه في الحصن؛ ليخلصه من عبء المسئولية، لكن الأمير لم يرد، ولم يتكلم؛ فأكمل يوسف ولا زالت عينه مسلطة على وجه الأمير: ولن تعجزوا عن إيجاده.

تجهم وجه الأمير وعقد حاجبيه، ثم قام من كرسيه، واتجه إلى يوسف. انتفضت عائشة من مكانها، وهمت بقول شيء، لكنَّ أمها أمسكت بمعصمها بقوة، وأشارت لها بالصمت والعودة إلى مجلسها، وبقيت فاطمة متفرجة ملتزمة الصمت.

وقف الأمير عبد الرحمن أمام يوسف الذي نظر إليه مترقبًا يخفي قلقه بين أضلعه في انتظار أن يعلن الأمير عبد الرحمن نفسه أميرًا للحصن، استل الأمير عبد الرحمن سيفه من غمده ورفعه عاليًا،

ثم وضعه بشكل أفقي، ونصله ومقبضه بين كفيه، ومده أمام يوسف: أنا وسيفي وأسرتي في خدمة أمير الحصن، وتحت إمرته.

تفاجأ الجميع بموقف الأمير، وإعلانه الطاعة والولاء ليوسف، وغلبتهم الدهشة.

وكان أول من تحرك في القاعة زوجته التي انضمت إليه، ووقفت إلى جواره، وتبعتها عائشة بصمت، وخلفها فاطمة التي دلَّها قلبها وحدسها على المكان الذي تقف فيه، وكذلك عمرو وصالح وبقية المجاهدين.

وكان الأكثر اندهاشًا وعجبًا هو يوسف، فقد اختلطت عليه مشاعره وارتج عليه الأمر، فلم يكن يتوقع هذا أبدًا، ولا يخطط له، بل كان كل ما يشغل تفكيره هو خلع نفسه من إمارة الحصن والعودة إلى دوره كجندي يحمي الأرض ويحرس الثغور.

وفي تلك اللحظات الفاصلة، أتى خبر للأمير بأن شباب مدرسة الفقه ومدرسة الفروسية والسلاح يقفون بالباب يطلبون لقاء الأمير، وبمجرد أن سمح لهم بالدخول، حتى أقبلوا عليه بحماس يتزعمهم إسماييل يستحثونه على رفض تسليم القلعة لجيش غرناطة، والتمسك بالأرض.

وألحوا عليه في ذلك، وأعلنوا عن استعدادهم الكامل للجهاد تحت إمرته، وكأنما حضورهم هو القول الفصل لأهل الحصن، فانسحب التجار والأعيان من المجلس بعد أن أدركوا فشل خطتهم في إقناع الأمير بتسليم الحصن.

أصدر الأمير أوامره بالاستعداد لحصار طويل، وحشد الناس للمقاومة، وعدم التسليم وتخزين المؤن للأيام القادمة، وخاصة وقد بدأت بوادر الشتاء، وانخفضت حرارة الجو، وعليهم تأمين حطب التدفئة والطعام والمحاصيل الضرورية؛ لمواجهة شتاء يزيد من معاناته الحصار.

وشدد الأمير يوسف أوامره بعدم إطلاق السلاح قاذفة النار إلا للضرورة القصوى، وبأمر مباشر منه، وبعد الاجتماع بمستشاريه لتدارس الأمر.

وأرسل الأمير عبد الرحمن الرسائل إلى ولي العهد الأمير محمد الفقيه؛ ليقنع أمير غرناطة والده برفع الحصار عن الحصن، وأرسل الرسائل إلى الأمراء الذين توسَّم فيهم الخير؛ ليرفضوا ذلك المنكر بحصار طائفة من المسلمين وتجويعهم.

وصل جيش غرناطة لحصار الحصن، ومن بين قادته الأمير فرج، وبمجرد أن حطَّ الجيش رحاله حتى أرسل الأمير فرج رسالة خاصة وسرية إلى الأمير عبد الرحمن يعرض عليه فيها أن ينضم إليه ومعه جزء كبير من الجيش، ويحدث خلخلة في صفوفهم، ويفسد الحصار في مقابل أن يتحالف أمير الحصن مع أمير مالقة، ويعلن الخروج عن طاعة أمير غرناطة، وينضم إلى ثورة مالقة، ويسعى لخلعه وتنصيب أحد أبناء بني أشقيلولة ملكًا على غرناطة بدلًا من ابن الأحمر، وأن يقبل بالتعاون مع مملكة قشتالة ومملكة أرجون؛ لاستقرار الحكم في المنطقة، واستتبابه لبني أشقيلولة، ثم ذَيّل رسالته بشرط وتنبيه...

أما الشرط فإن عليه أن يزوجه ابنته عائشة؛ ليضمن أن لا يخرج عن الاتفاق، وأن يكون ولاءه الكامل لبني أشقيلولة.

وأما التنبيه فهو أن ولديه عثمان وعلي تحت عيني أتباعه، وملاحظتهم وعنايتهم الكاملة في غرناطة.

لم يخف على الأمير عبد الرحمن رائحة التهديد الواضحة التي تفوح من كلمات الرسالة، واشتعلت نفسه بالغضب لما في الرسالة من إهانة واضحة وتهديد؛ فانطلق من فوره إلى زوجته أم عامر، وباح لها

بالأمر، وبكل ما جاء في الرسالة؛ فصكَّت وجهها جزعًا على صغيريها، وانتابتها موجات من الندم لتركهما في غرناطة مع عمتهما.

واشتعل الغضب العارم في نفس الأمير: لا أخشى على الصبيَّيْن؛ فقد استودعتهما الله، إنما أن يجرؤ ذلك الأفَّاق على التطلع للزواج من ابنتي!

انتبهت الأم إلى ما سيحل بوحيدتها؛ فهتفت بضيق: الأمير فرج يريد الزواج من ابنتي؟ كيف!

الأمير، وهو يطحن أسنانه غيظًا: أحد أساليب انتقامه القذرة، ذلك الخائن الوقح، ومعه زمرة الخونة من الأمراء. في البداية، يسلطون جارية على عامر؛ لتفقده عقله ودينه. والآن، يريدون الاستيلاء على ابنتي ليكسروها ويكسروني. يريدون إقحامي قسرًا في صراعهم على الحكم مع ابن الأحمر؛ ليزيحونه بي، ويستولون على الحكم!.

قالت: إذًا؛ فالخطوة التالية هي الاستيلاء على سلاح الحصن؛ ليقضوا به على جيش غرناطة.

التفت إليها، وصمت مفكرًا في كلماتها، وكأنما صمته موافقة ضمنية، أكملت: ليتهم يستخدمونه ضد الأعداء، لكن لا أستبعد- إن وقعت أيديهم عليه- أن يسلمونه بأيديهم إلى ملك قشتالة؛ ليثبتوا خضوعهم وولاءهم له، وينالوا رضاه. عليك أن ترسل رسالة إلى ولي العهد؛ ليقنع أمير غرناطة بخيانة فرج.

قال بغيظ: لا شك أن فرج رتب أموره جيدًا وكذب على الأمير، الخائن يجيد اللعب على كل الوجوه، وها هو صار واحدًا من قادة الجيش الذي يحاصرنا، وإن قبلت بالخيانة فلديه ألف وسيلة لإقناع ابن الأحمر باستسلامي وموافقتي على زواج ابنتي منه.

قالت: أو يقنعه باستصدار أمر مباشر يجبرك على الموافقة بهذا الزواج؛ كحلٍّ أخير لإخضاعك، وإنهاء المعضلة التي تؤرقهم.

اشتعل وجهه غضبًا: لن أنتظر حتى تتزوج ابنتي بأمر مباشر من حاكم الدولة.

قالت، بدهشة: وماذا تنوي أن تفعل؟

شرد لحظات، ثم قال: سأزوجه إياها.

هتفت، بفزع: فرج!

لم يسمعها؛ فقد كان يقلب الأمر في رأسه على كل الوجوه.

قال ببطء، وهو شارد، وكأنما يحادث نفسه: لا أدري ما الخبيئة التي بينه وبين ربه؛ ليجعلني أسعى بنفسي لتزويجه من صغيرتي الوحيدة.

بدأت تهدأ عندما تكونت في رأسها صورة عن الشخص الذي يقصده، أكدتها لها ملامح وجهه، فقالت باسمة: أو ربما هو دعائي.

التفت إليها، وقال مندهشًا: أكنت تسألين الله أن يكون زوجًا لابنتك!

اتسعت ابتسامتها: ومن أفضل منه أتمناه لابنتي! شاب أتته الدنيا كلها، وانكبت تحت قدميه.. مال، وإمارة، وحكم، وكل ما يشتهيه الرجال؛ فأدار لها ظهره، فمن سواه يكرم ابنتي ويحفظها؟ كما أن فاطمة لا تكف عن التحدث معي في هذا الأمر.

هتف، بدهشة: هل صار زواج ابنتي مسار الأحاديث النسوية!

قالت، باسمة: وهل تهتم النساء إلا بتلك الأمور!

فاطمة أخذت على عاتقها خدمة أمير الحصن واعتبرت نفسها مسئولة عن سعادته واستقراره، حتى لو لم يطلب منها ذلك، ولولا ما نحن فيه من حصار لتحدثت إليك مباشرة، وما استطعت الإفلات من يدها قبل أن تحصل منك على القبول والموافقة!

رفع حاجبيه متفكرًا في كلماتها، فبادرت بحماس: هل أسألها رأيها؟

قال، بشرود: ستقبل بالتأكيد؛ فالبديل لن تتحمله.

قالت، بتردد: وماذا لو رفض هو؟

تجمد في مكانه، وتجهم وجهه، وقال بشراسة: لن يجد سوى سيفي دواء لغبائه.

ألجمتها الدهشة من كلماته.

***

كانت الرياح الباردة تعوي فوق أسوار القلعة، وقد لاذ أهل الحصن ببيوتهم بجوار المدافئ إلا المرابطون على الأسوار وفي الأبراج، يراقبون تحركات الجيش المحاصر للقلعة.

وعلى السور الأمامي، أنهى يوسف قيام ليلته في ملابس الحرب الثقيلة، ووقف ينظر نحو الجيش، الذي كان يومًا ما واحدًا منهم.

وتذكر وجوه أصدقائه ورفاقه؛ فزفر بضيق، وهو يتعجب من تصاريف القدر وغباء البشر.

لم يتبق لنا من كل أرض الأندلس سوى غرناطة، وهي هدفهم القادم

تلك هي الحقيقة التي يعلمها يقينًا، كما يعلمها كل أفراد ذلك الجيش المسلم الذي أتى مسرعًا؛ ليضرب الحصار حول ثغر من ثغور رمانة الأندلس.

يفضلون إراقة دمائهم، وقطع ذراعهم الضاربة، وكسر درعهم؛ على نقض معاهدة مؤقتة مع أعداء يعلمون يقينًا أن لا عهد لهم ولا ذمة!.

ضاقت نفسه بذلك المشهد المؤلم، وتاقت إلى البحر فترك موضعه وبدأ رحلته المعتادة عبر أسوار القلعة يتفقد الحرس والمجاهدين، ويطمئن على أوضاعهم، حتى وصل إلى السور المطل على البحر؛ فوقف يتطلع إلى ذلك الظلام الممتد بين السماء والأرض، والأمواجُ الثائرة ترسل بعضًا من رذاذها المحمول على الرياح لتلامس وجهه، وتحمل إلى أنفه رائحة البحر التي يعشقها.

وعاد يغرق في أفكاره التي تموج بالألم بحثًا عن مخرج من ظلمة الحصار.

غرناطة لم تُرَبَّ على الجهاد، ولا تستطيع تحقيق أسباب النصر، أرض دأبت على استيراد النصر من غيرها كلما هاجمها الأعداء، تلك كلمات شيخه رحمه الله، تخرج من أعماقه لتتجسد أمامه في مشهد حقيقي يحيا فيه ويكتوي بألمه.

ورغم ذلك، نجحت حتى الآن في البقاء نظرًا لأنها بعيدة في أقصى الجنوب، وبينها وبين الأعداء النهر الكبير، ونظرًا لقربها من جبل طارق، اعتادت رمانة الأندلس طلب النجدة والإنقاذ من بلاد المغرب.

وهذا هو ما جعلها تصمد إلى الآن، فلم يخذلها- يومًا- إخوة العقيدة ومجاهدو الثغور، وكم من مرة تصدَّوْا لغزو الأعداء ومحاولاتهم للاستيلاء على رمانة الأندلس.

ولكن..ماذا لو هاجمها الأعداء مجددًا، هل ستكون النهاية؟!

أفزعه ذلك الخاطر المرعب، وبدا له أن الحل الوحيد لما هم فيه من مأزق هم هؤلاء المرابطون على الثغور خلف البساط المائي الشاسع

أحفاد بن زياد وبن تاشفين، أبناء عمومته، وأصل جذوره.

هم قوم يجري في عروقهم حب الدين والجهاد، وكم من مرة أنقذوا الأندلس من السقوط.

هم هاجس الأعداء، ودرع الأندلس الذي يذود عنها في النوازل، يزحفون لإغاثة الملهوفين وتلبية نداء المستجيرين، لا همَّ لهم ولا هدف إلا نصرة الدين وإخوة العقيدة. تنهد تنهيدة حارة، أحالت الهواء أمامه إلى سحابة من الضباب.

في تلك الليلة الباردة، كانت مشاعر الوحدة والفقد تسيطر عليه، لقد انقطعت به أسباب الدنيا، وتمزق آخر حبل بينه وبين الناس بموت شيخه ومعلمه ومربيه، وبفقده لكل رفقائه الذين قضى معهم جزءًا كبيرًا من حياته، وها هم قد صاروا الآن بمواجهته، وقد يضطر في لحظة جنون إلى خوض معركة ضدهم.

ترك لدموعه العنان آمنًا من أن يراه إنسان، أو يتواجد بالقرب منه في تلك اللحظات التي تجيش فيها مشاعره بالألم، وهو يجتر ذكريات حياته الأليمة أمام عينيه، ويستمع إلى أصوات الماضي، والهواء البارد يكاد يجمّد دموعه على وجنتيه.

وانحصرت ذكرياته، وتجمعت كلها في لحظات موت أمه ودفنها في الطريق. لا تزال تلك الذكرى المروعة هي أقسى ما مرَّ به في حياته.

استند بكفيه إلى السور البارد، وأطرق برأسه، وأخذ يبكي وينتحب، وألم الوحدة يعتصر قلبه مطمئنًا إلى أن صوته لا يصل إلى حرس الأبراج العالية، الذين يحرسون هذا الجانب من السور.

تمنَّى لو يتذكر ملامح أمه التي غابت عن ذاكرته، كانت حاجته إليها تتأجج كل يوم عن سابقه ووحدته تزداد، وكأنما سقط في عالم غريب عنه، يجهل دروبه، ويجهله ناسه.

وتكونت في عقله صورة مكتملة لها يغطي الضباب ملامحها. لكن في لحظة ما، انقشع الضباب تدريجيًّا ليجدها ملامح عائشة، نفض رأسه، وكفكف دمعه، وتماسك بقوة وجلد، وهمَّ بالعودة حتى لا يتمادى في اعتصار روحه تحت رحى الماضي القاسية، لكنه شعر بشخص يقف خلفه، فالتفت ليجد نفسه وجهًا لوجه أمام الأمير عبد الرحمن.

أصابته الدهشة، فلم يكن يتوقع أن يأتي إلى هنا، كان آخر شيء يتمناه هو أن يضطر للحديث مع أي إنسان وهو في تلك الحالة السيئة من تأجج العاطفة واشتعال القلب بالألم.

اقترب الأمير عبد الرحمن من السور، فالتف يوسف ليغادر، لكنه توقف عندما سمعه يقول: عجبًا، تلك الأجواء المقبضة تلقي في القلب رهبة، وتفتح أبواب الذكريات على اتساعها.

وكأني صعدت لتوي المنحدر، وتسلقت السور لأبحث عن صالح.

سار يوسف بضع خطوات، وظن أنه أفلت من الأمير، لكنه فوجئ به يسير إلى جواره، وهو يكمل: وكأني بك تقتحم النار؛ لتفك قيدي،

ورغم النجاح الذي حققناه معًا، لكن الشعور بالخطر لا يزال يرافقني ويقض مضجعي، إنها فقط البداية.

أراد يوسف التخلص من رفقته بأي ثمن حتى لا يتبدى له ما يحاول أن يداريه عن الناس، فقال بصوت جافٍّ، وهو يسرع الخطى: عفوًا، عليّ تفقد حرس الأبراج الأمامية.

قال الأمير، وكأنما لم يسمعه: لقد فكرت كثيرًا في طلبك، واهتديت أخيرًا إلى رأي.

تجمد في مكانه، وأخذ يعتصر ذاكرته؛ محاولًا تذكر أي طلب هذا الذي طلبه من الأمير!

أكمل الأمير بسرعة قبل أن يرحل: ورأيي هو الموافقة على طلبك الزواج من ابنتي.

التفت تجاهه بحدة، وفغَرَ فاه، وخرس لسانه من المفاجأة للحظة، ثم قال بلهجة متقطعة: أنا! أنا طلبت..

- يبدو أن إصابتك الشديدة ونزف دمائك المتواصل أثَّر على ذاكرتك.

لم يحرْ جوابًا؛ فهو متأكد من أن الجنون والخرف في المرض لا يمكن أن يبلغ به إلى درجة أن يطلب الزواج من ابنة الأمير.

- قد أكون أحبطت آمالك بردّي الغير محدد، ولكن كان على التفكير في الأمر مليًّا.

- ولكني لا أتذكر.. وكيف لي أن أطلب الزواج من أميرة عربية تمتد شجرة نسبها إلى الصحابة رضوان الله عليهم!

- نحن لا ندعو بدعاوى الجاهلية، ولا بالنعرات العصبية، لا فرق بين عربي وبربري ومولودون، زوجتي أم أبنائي من المولدين،

كلنا مسلمون، وأنت شابٌّ تقي بأفعالك ومآثرك.

- ولكن، أنا لا أستطيع الباءة، فكيف أسعى للزواج؟ لا شيء لدي أقدمه مهرًا، ولا مال، ولا بيت.

- عجبًا، أهذا ما يقوله أمير الحصن!

- ما أنا إلا عبد من عباد الله، استعملني لرعاية مصالح العباد وقضاء شئونهم، ولن أمد يدًا لمال لم أتكسبه من عمل يدي.

امتلأت نفس الأمير بالإعجاب؛ لتقواه وعفافه: أتحفظ شيئًا من القرآن؟

- أحفظه كله، والحمد لله.

- زوَّجْتك به.

طال الصمت الحائر للشاب، شيء ما بداخله يتطلع بقوة إلى التمسك بما يعرضه عليه الأمير، لكن القلق والتردد يكبّل إرادته.

فاستعجله قائلًا: ها؟

- ولكن، كيف.. ونحن في حصار، والشتاء يزحف على..

- الحياة تسير في الحرب وفي الحصار، وفي كل الأوقات، الناس يأكلون ويشربون، ويتزوجون وينجبون الأطفال.

استمرار الحياة الطبيعية هو إحدى الوسائل المعينة على مقاومة الأعداء، والصبر على قسوة الحصار. اتفقنا؟ مبارك يا ولدي.

أطرق يوسف برأسه مفكرًا، ثم قال بأسف: عذرًا مولاي الأمير، لا أستطيع الزواج من ابنتك.

أدار له ظهره، وسار مبتعدًا، وكأنما يهرب من شيء ما، وروحه تغلي بمشاعر شتى، وارتباك عنيف لا يدري له سببًا.

اشتعلت نيران الغضب في عروق الأمير؛ فاستل سيفه من غمده،

وعندما سمع يوسف صوت السيف؛ التفت خلفه، فأصابته الدهشة وهو يجد الأمير يرفع سيفه عاليًا ويهوى به على السور الحجري، فقدح الحديد الصخر؛ فأطلق شررًا أضاء ظلام المكان في لمحة عابرة، ثم نفث غضبه في زفرة غاضبة، ونظر إلى يوسف قائلًا: حشرة، حشرة ليلية مقيتة استفزتني بطنينها.

أمسك عن غضبه، وتنحنح قائلًا: ولم لا توافق؟

رد، بحيرة: لا أستطيع تقبل فكرة أن تجبرها على الزواج بي، لن أتزوج من فتاة لا تريدني، وتفضل الزواج من أمير ذي أصل عربي!.

شيء ما في أعماقه يستفز احترامه وتقديره لهذا الشاب، لكنه لم يبدِ له شيئًا من ذلك التقدير، بل قال مفتعلًا اللامبالاة: بالتأكيد كان الاختيار صعبًا ومحيّرًا بين طلبك وطلب الأمير فرج.

تجهم وجهه، وهو يردد: الأمير فرج!

هز رأسه، وقال: لكنها فكّرت جيدًا، واختارتك أنت.

قال بتردد، وكأنه غير مصدق: ولكن..

دنا منه حتى صار وجهه قاب قوسين منه، وقال بغضب مكبوت: لو سمعت كلمة لكن مجددًا؛ سأسحب موافقتي على الفور، وأزوجها من أحد الزرّاع من أهل الحصن، أفهمت؟

فرج يريد لَيَّ عنقي بابنتي، وأنا لن أسمح بإقحامها في ألاعيب السياسة القذرة.

أخيرًا، هزّ يوسف رأسه موافقًا، وارتسمت على شفتيه ابتسامة قلقة مترددة.

❋ ❋ ❋

لم تصدق فاطمة أذنيها عندما بلغها الخبر، وانطلقت إلى أم عامر لتدبر معها ترتيبات العرس، الذي تنتظره بفارغ الصبر، لكنها صدمت بأوامر الأمير الحازمة بعدم إقامة وليمة أو أي من مظاهر أو احتفالات الأعراس المتعارف عليها؛ نظرًا لظروف الحصار، والاكتفاء بإعلان الزواج عن طريق منادٍ يجوب البلدة.

لم تجرؤ فاطمة على الاعتراض، لكنها احتفلت بزفاف عائشة على طريقتها الخاصة؛ فقد جمعت نساء البلدة في إحدى قاعات القصر، وأخذن يغنين لها أغاني الأعراس، ويعَبِّرن عن فرحتهن بزواج الأمير والأميرة.

لم تهتم عائشة لما أصدره الأمير يوسف من أوامر تخص عرسها، بل كانت توافقه في جانب كبير من الأمر، وتقدر ما يفعله من أجل أهل الحصن، وتعلم جيدًا أنه إن أرادهم أن يتحملوا الحصار فعليه أن يكون قدوة لهم ويبدأ بنفسه، واستقر رأيها على أن تكون عونًا له ولأهل الحصن.

وطاف بقلبها طيف عامر وهي تستمع لأغاني وأهازيج الأعراس، وتخيلت صوته العذب، وهو يغني لها يوم عرسها؛ فامتلأت عيناها بدموع الشوق، وبادلت أمها جسرًا من نظرات الشجن والذكريات المشتركة.

مسحت الأم دموعها، وانتزعت نفسها من الماضي؛ لتطل ابتسامتها المشرقة، وترتسم السعادة على محياها لزواج وحيدتها من ذلك الشاب النبيل الذي دخل قلبها، وأحبته كأحد أبنائها لإخلاصه وشجاعته وتقواه.

قضي الوقت في نظم وترتيب كلمات وأحاديث يتقرب بها من عروسه، ويكشف لها بها مكنون قلبه وأشواق روحه.

وأخذ عقله يستدعي كل ما مرَّ عليه من أشعار الغزل التي نظمها أشعر الشعراء، لكنَّ شعورًا غريبًا بالانقباض طغى على روحه، واعتصرت قلبه قبضة باردة من الألم.

وفي أسعد لحظات عمره، كان صوت الموت طاغيًا في عقله

وسيطر عليه هاجس غريب بأنه سيخوض رحلة الموت قريبًا جدًّا، ويخلّف وراءه حبيبة ترمَّلت.

أحزنه أن تطوف تلك الخواطر الشيطانية في عقله بلا رابط، ودون أن تكون له القدرة للسيطرة عليها. لكن يبدو أن حياته القاسية التي عاشها في ظل يتم متواصل، وفقد مستمر لكل إنسان تعلق قلبه به في رحلة حياته تركت في قلبه وحشة قاتمة عجزت كل أسباب السعادة عن التغلب عليها.

ولكن بمجرد أن صارت أمامه، واحتجبت أعين الناس عنهما، وأخذ يتطلع لدقائق ملامحها، ويطيل النظر في صفحة وجهها الصبوح؛ حتى ألجمه حسنها ورقَّ قلبه لابتسامتها الحيِيَّة، وتاقت روحه لروحها، وعندما التقت العيون في نظرة وداد طويلة؛ غمرته ألفةٌ واطمئنان عجيب، وتسلل الأنس إلى قلبه؛ ليزيل وحشته ويمسح عنه الحزن.

امتدت أنامله تتلمس خديها؛ ليتأكد أن ما يحياه الآن حقيقة لا خيال،

لكن يبدو أن هواجسه أيضًا صارت حقيقة، وتجسدت له في صورة بوق الإنذار الذي أطلقه أحد حرس الأبراج.

فترك عروسه، وفزع إلى الأسوار الأمامية؛ ليجد الحرس متحفزين، وحرس الأبراج يسلطون سهامهم نحو بقعة قريبة من البوابة الكبيرة

كان من الصعوبة الشديدة تبين هوية ذلك الشخص الذي جازف بحياته واقترب من البوابة على ضوء المشاعل من هذا الارتفاع، لكن يوسف لم يشأ أن يتورط بقتل خطأ؛ فصرخ بصوت سمعه حرس الأبراج: أوقفوا السهام.

نزل مسرعًا من فوق السور، واتجه إلى البوابة، وأمر الحرس بإحضار ذلك المتسلل، فسحبوه إلى الداخل، وبمجرد أن رآه يوسف حتى هتف فرحًا: أحمد!

عانقه بقوة، وأصابه الضيق عندما أدرك أنه مصابٌ بسهم من سهام الحرس في كتفه، وقال بندم: عذرًا يا صديقي.

قال أحمد: لا عليك، أحمد الله أنني لم ألقه، وأنا ملطخ بعار حصار إخواني ورفاقي، إن ما يحدث هو الجنون بعينه.

خذني إلى أمير الحصن بسرعة؛ عليّ أن أحذره.

كان الأمر مربكًا للغاية بالنسبة إليه عندما صدرت الأوامر للجيش- وهو منهم- بالتوجه لحصار الحصن، من سيحاصر؟ وكيف؟ ولماذا يحاصر المسلمون أصحاب الأرض! لكنها الأوامر!

لكنه أدرك مدى فداحة الخيانة في صفوف الأمراء عندما بلغه الخبر باستعانة بعضهم بنبلاء وأمراء من مملكة أرجون؛ فقدموا إليهم في أسطول صغير من بضعة سفن لإحكام حصار القلعة من جهة البحر، واستقر رأيه على ضرورة تنبيه أمير الحصن وأهله بالخطر القادم من البحر، وإن لقي حتفه في سبيل ذلك، لكنه لن يلِغَ في دماء المسلمين، ولن يعين عليهم الأعداء.

تأكد لهما صدق أحمد عندما أبلغهما حرس الأبراج باقتراب سفينة من الشاطئ؛ فاتجها من فورهما إلى السور البحري للحصن.

بات واضحًا أن تلك السفينة ستعقبها سفن أخرى، ولن تمر الليلة حتى تكون السفن كلها قد استقرت أمام شاطئ الحصن.

وعند شروق الشمس، سيكون الحصار قد أحكم تمامًا برًّا وبحرًا حول الحصن.

وقف يوسف أمام الأمير عبد الرحمن يتطلعان إلى بعضهما البعض بصمت.

بدأ يوسف بالحديث: لم يعد لنا سوى طريق واحد، الاستغاثة بأرض المغرب، والمرابطين على الثغور.

الأمير عبد الرحمن: أرض يوسف يا يوسف.

- هم الأمل الوحيد لإيقاف زحف الأعداء على بلادنا.

- يبدو أن رسائلي لولي العهد لم تؤتِ ثمارها المرجوة.

- ملك قشتالة هدفه السلاح، وقد يعقد هدنة مع ملك أرجون، ويؤجل كل الحروب التي بين المملكتين إلى حين الإجهاز على الحصن والاستيلاء على السلاح.

- إذًا، فقد نفاجئ بعد أيام بأسطول أكبر قادم من قشتالة لمحاصرة الحصن!

- علينا الاستعانة ببني مرين، لقد بسطوا سيطرتهم على أرض المغرب كلها بعد أن انتهت دولة الموحدين.

- ما علمته عنهم أنهم أهل جهاد ومروءة، ويجتهدون في إعلاء كلمة الدين، ولي العهد محمد الفقيه كان دائمًا يستحث الأمير بإبقاء العلاقات الودية مع الأمير أبي يوسف المنصور يعقوب المريني، فلم يكن يأمن غدر ملك قشتالة، سأرسل إليه برسائل استغاثة.

- إذًا، لابد أن تخرج الرسالة من الحصن الليلة، ودون تأجيل، إن انتظرنا للصباح فلن تستطيع أي مركب صغيرة كانت أو كبيرة مغادرة الشاطئ، ولا المرور من سفن الأعداء.

- سأختار أحد الفرسان المهرة ليقوم بالمهمة.

- لن يقوم بها غيري.

- أنت أمير الحصن، الكل يعتمد عليك، لا يمكنك المجازفة بحياتك، والتسبب في انهيار الروح المعنوية لكل هؤلاء البشر.

- لم أخلق لأكون أميرًا، آن الأوان لتتولى أنت ما تجيده، وأقوم أنا بما أجيده، سأجهز نفسي للرحلة حالما تكتب الرسائل.

- وماذا عن عروسك؟!

- ..، لا تخبرها، لا أريدها أن تعلم برحيلي قبل أن أصل للشاطئ الآخر، أو يأتيكم خبري.

انصرف قبل أن يسمع اعتراضًا آخر، وانشغل الأمير عبد الرحمن بكتابة الرسائل، وأخذ يوسف يجهز المركب الصغير والعتاد والزاد، والسلاح للرحلة.

طاف بخاطره صورتها، والحلم الوحيد الوئيد الذي سيظل حبيس قلبه إلى أن يلقى ربه، وامتلأت عيناه بالدموع،

فشد هامته وتجلّد عندما لمس ضعفًا بارزًا في نفسه، وأطبق كفه على سلاحه، وهو يردد دون أن يحرك لسانه: ما عند الله خيرٌ وأبقى.

اتجه إلى المركب الصغير، وهو يسأل الله أن يجمعه بها في الجنان، وضع الرسائل في حق جلدِيٍّ محْكَم الغلق لا يتأثر بالماء،

وربطه جيدًا حول خصره، وغادر القلعة من الباب الخلفي مودِّعًا بكل الدعوات الطيبة من الأمير عبر قناة مائية ضيقة تتصل بالبحر.

وقف الأمير فوق السور ينظر نحو السفينة الثانية التي وصلت، وتتخذ موضعها أمام الشاطئ، وانتابه القلق للخطر العظيم والمجازفة الكبيرة التي يخوضها يوسف الذي خرج بمركبه الصغير من القناة المائية إلى عرض البحر يجدف بمجداف صغير، ويلفح وجهه زمهرير الشتاء محملًا برذاذ البحر المالح، يكاد يجمّد جلد وجهه في ليلة مدلهمة غاب فيها القمر، لا يكاد يتبين طريقه في الظلام، لكنه يهتدي بتجمعات النجوم في السماء؛ ليعرف الاتجاه الصحيح.

وعلى الضوء المشع من السفينتين، أدرك أن أسرع الطرق للمرور هو ما بين السفينتين؛ فالدوران حولهما سيضطره إلى اجتياز منطقة الصخور الحادة الخطرة التي تتلاطم الأمواج فوقها، ولن تسلم مركبه الصغير من التحطم فوق إحداها فقط لو يستطيع المرور من بينهما في غفلة من البحارة دون أن يلمحه أحدهم.

لا مفرَّ من المجازفة، فاتجه بهدوء إلى الطريق بين السفينتين وخفض رأسه، وأخذ يجدف ببطء متجنبًا إصدار أي صوت مرتفع يصل إلى من في السفينتين.

أرسل الأمير الحرس؛ لإيقاظ صالح، وإحضاره إلى السور البحري، وبمجرد أن وصل صالح وخلفه فاطمة وعمرو؛ أمره الأمير بإعداد السلاح، وتصويبه نحو السفينتين.

هتف صالح باعتراض: من الصعب إصابة الهدف في هذا الظلام الحالك، وعلى ضوء السفينتين الخافت، وعند أول قذيفة سيطفئون المشاعل على السفينتين، ويتواريان في الظلام، وعندها سيصبح من المستحيل إصابتهما، لا مفر من الانتظار للصباح.

(إذًا، فلن تطلع شمس الغد على يوسف) قالها الأمير بأسف، ثم أمره بتجهيز السلاح والاستعداد لأي طارئ، ووقف يراقب الماء بمنظار مقرب، وبصعوبة شديدة لاحظ حركة مركب يوسف بين السفينتين، وأدرك ما يحيق به من أخطار، فامتلأت نفسه بالقلق والخوف على حياته، وأخذ يتمتم بالدعاء أن يحفظه الله من كل سوء.

شعر بحركة خلفه؛ فالتفت ليجد عائشة قد اتخذت مكانها بجواره، وقد تدثرت بعباءة مخملية ثقيلة.

قالت بصوت امتلأ بالغضب والصرامة: هل عليّ أن أكون آخر من يعلم؟!

- أصرّ ألا تعرفي إلا بعد رحيله.
- حتى لا أعترض أو أتدخل!، يرفض حتى أن يسمع رأيي فيما يفعله.
- يفهم جيدًا ما يدور في عقلك، ويتوقع أفعالك قبل أن تفكري فيها.
- يريد أن يقطع الطريق على أي رد فعل قد أقوم به.
- أو ربما يريد أن يجنبك أحزان الوداع.
- وهل نجح حقًّا!

كفّ عن الحديث عندما أتاه صوتها مثقلًا بالدموع، وانشغل بمراقبة حركة الماء بين السفينتين.



فجأة، دوت أبواق التحذير من السفينتين، وازداد الضوء القادم منهما، وبات واضحًا لمن فوق الأسوار الحركة والنشاط المفاجئ الذي اشتعل على متنهما. ولم يكن هذا يعنى سوى انكشاف أمر مركب يوسف.

صرخ الأمير في صالح: أعد السلاح الآن لإطلاقه على إحدى السفينتين.

هتف صالح: من الخطر إطلاقه ويوسف بينهما، الضوء غير كافٍ، ولن أستطيع التصويب الصحيح.

كان الوضع يزداد سوءًا، وقد نزلت القوارب الصغيرة وفيها البحارة بالمشاعل من على متن السفينتين لمحاصرة مركب يوسف.

اضطر صالح لإطلاق قذيفة على إحدى السفينتين، وصوَّب على الجانب الخارجي؛ لكي لا يؤذي يوسف، لكن الضوء لم يكن كافيًا؛ فمرت القذيفة من جوار السفينة، وانفجرت محدثة بها أضرار لكنها لم تغرقها.

أدرك قادة السفينتين الخطر القادم من الحصن؛ فأطفئوا كل المشاعل، وغرق المكان كله في الظلام، والتفت القوارب الصغيرة حول مركب يوسف.

اشتعلت نفس الأمير بالغضب: أطلق السلاح الآن.

صرخ صالح، برعب: لا أستطيع، سأقتله إن فعلت. ضوء، أحتاج لضوء قوي.

هتفت فاطمة، بحماس: لدي فكرة سنريهم بها شمس الظهيرة في منتصف الليل.

أمرها الأمير بتنفيذ فكرتها، ثم نظر فيمن حوله، فوجد عائشة قد اختفت من المكان.

كانت تهبط السلم الحجري قفزًا، وقلبها يكاد يخرج من جسدها، وفي منتصف السلم التقت بأمها، وهي في طريقها للصعود، فهتفت بها: إلى أين؟

- إلى يوسف.

- الأمير لن يسمح..

- لن يجرؤ أحد على منعي من إنقاذ زوجي أو الموت معه.

أمي، صخر، أريد صخرًا معي، مُرِيه أن يلحق بي.

عجزت أمها عن منعها من الخروج، ورغم الخوف والفزع على ابنتها إلا أن جزءًا ما من عقلها كان متفهمًا لمشاعرها وأفعالها؛ فقد كانت يومًا ما تعاني مما تعانيه الآن، وتسعى لإنقاذ حياة زوجها، وإن قضت نحبها دونه.

كل ما استطاعت أن تقدمه لها من مساعدة هو أن تمنحها صخرًا.

وفي مركب بمجدافين، كان صخر يجدف خارجًا من القناة الضيقة إلى عرض البحر، ويتجه للدوران حول السفينتين.

وبين السفينتين، نجحت القوارب في حصار مركب يوسف الصغير، واشتبكوا معه في معركة سريعة نتج عنها تحطيم المركب الصغير؛ فقفز يوسف منها، وغاص في الماء البارد محاولًا الفرار من حصار البحارة، والعبور من تحت إحدى السفينتين إلى الجانب الآخر.

في حين استغل صخر الظلام، وأسرع بالمركب نحو السفينتين يجدف بأقصى طاقة لديه.

نفخ الحرس في أبواق القلعة؛ ليجمعوا أهل الحصن كلهم؛ عملًا بمشورة فاطمة.

وأوقف الأمير الحرس ومن وصل من أهل الحصن صفوفًا فوق السور، وفي ساحة القلعة، وجوههم جميعًا باتجاه البحر،

أمر النساء بإشعال نار بين الصفوف، ووزَّع الحرس عليهم الأقواسَ والسهام، ثم أمر صالح بالاستعداد.

كان يوسف يدفع جسده تحت السفينة مقاومًا تيارات الماء، محتفظًا بمخزون من الهواء في رئتيه يكفيه للقليل من الوقت،

لكن مشكلته لم تكن فقط في نفاذ الهواء تحت الماء، بل كانت أيضًا في برودة الماء في النزع الأخير من الليل، والتي تكاد تجمد جسده.

بدا له قعر السفينة لا نهاية له، والبرودة تستولي على أطرافه، وتجمد أوصاله، والهواء يغادر صدره مسرعًا، وهو عاجز عن استنشاق المزيد منه.

بدأت حركته تتباطأ، وعضلاته تفقد قوتها تدريجيًّا، والبرد يصل إلى كل جسده. أدرك أن الموت قادم لا محالة، وبدأت تتواتر عليه صور وأصوات من الماضي حتى استقرت في عقله صورة وحيدة،

صورة الحلم الذي لم يكتمل، وجنة الأرض التي لم يطأها، والحياة الجديدة التي انتهت قبل أن يبدأها. حوريته التي لم يجتمع بها في الدنيا، ويتمنى أن يجمعه الله بها في الآخرة.

وعندما وصل إلى الجانب الآخر من السفينة، وبدأ يصعد إلى سطح الماء؛ كانت قواه قد استنفذت، ووصل البرد إلى عظامه وقلبه، وبدأ يفقد وعيه.

كانت مركب عائشة وصخر تشق طريقها نحو السفينة، وهما يحاولان بجهد جهيد اختراق الظلام بأعينهم؛ بحثًا عن يوسف.

وفجأة، سطعت السماء بضوء باهر، وكأنما أشرقت الشمس في كبد الليل.

كان رجال الحصن جميعًا، وبأمر مباشر من الأمير؛ أطلقوا السهام المشتعلة في السماء في لحظة واحدة؛ فأضاءت السماء فوق السفينتين، وأخذت عائشة تبحث عن زوجها، وصخر يقترب بالمركب من السفينة.

مما أثار انتباه البحارة في قواربهم الصغيرة؛ فاندفعوا نحوهما.

كان الأمير يراقب ما يحدث بقلق بالغ، وقد عرف ابنته في تلك المركب الصغير من الضوء الذي أنار السماء.

وكلما خبت السهام، وانطفأت؛ أطلق أهل الحصن غيرها في متتاليات منتظمة، حتى نجح صالح أخيرًا في التصويب على السفينة

البعيدة عن مركب عائشة، وأطلق قذيفته؛ فأصابت السفينة، وحطمتها عن آخرها، وغرقت بقاياها في قاع البحر، ومن نجا من البحارة اتجه إلى السفينة الأخرى.

ثارت الأمواج، وارتفعت، وتلاعبت بالقوارب في البحر، وقلبت بعضها؛ فتراجعت أغلبها إلى السفينة المتبقية بعد أن استولى عليهم الرعب من قوة السلاح.

وتراقصت مركب عائشة وصخر، والأمواج تتقاذفها، وصخر يحاول جاهدًا السيطرة عليها؛ كي لا تنقلب.

فجأة صرخت عائشة: ها هو، هناك.

كان القدر رحيمًا إذ أن الأمواج الثائرة المتلاطمة، ألقت بيوسف لأعلى، ورأته عائشة في ضوء السماء المشتعلة بالسهام، لكن الأمواج ابتلعته من جديد.

انتفضت عائشة، وهمت بالقفز خلفه، لكن صخر منعها، واستعد هو للقفز.

تناولت عائشة حبلًا من بطن المركب وأمرته: اربطه حول خصرك.

أطاعها صخر، ثم قفز في الماء، وربطت هي الطرف الآخر من الحبل في المركب.

كان يوسف يصارع ليبقى مستيقظًا، لكن الظلام المحيط به انتزع

منه كلَّ أمل في النجاة، واستسلم لقدره، وأغلق عينيه على صورة عائشة التي ملأت قلبه.

شعر بيد قوية تجذبه من معصمه؛ ففتح عينيه مجددًا؛ ليجد الظلام انقشع، وحلَّ محله ضوء ظهر من فوق طبقات الماء،

استجاب لليد التي تجذبه لأعلى، وتدافعت ساقاه وهو يدفع جسده لأعلى. وبمجرد أن خرجت رأسه من الماء، حتى شهق بقوة، وجرَّ الهواء إلى رئتيه جرًّا، وارتدت إليه روحه.

طفا فوق الماء، وصخر يسحبه إلى المركب، وهو عاجز عن السيطرة على حركتِه، وجسدُه يرتجف من شدة البرد، ولا يكاد يتبين ما حوله من الغلالة الضبابية التي غشيت عقله.

ساعده صخر على الصعود فوق المركب، ثم تبعه، وبمجرد أن أمسكت عائشة به حتى ألقى بجسده المثلج بين أحضانها، وهو يرتجف بعنف، ووجهه قد تحول إلى اللون الأزرق،

خلعت عباءتها المخملية الثقيلة، ودثرته بها.

وأخرج صخر بعضًا من الأغطية الثقيلة التي جهزتها سيدته في قاع المركب، ودثَّر بدنه المبتل جيدًا، وألقى بعضها إلى عائشة التي أحكمت الأغطية الثقيلة حول ذلك الجسد البارد الذي يلوذ بدفئها من البرد وارتجافاته تسكن بين ذراعيها، ثم بدأ يتبين الحياة من حوله بعد أن افتقدها.

لم تمنع دموعها من الهطول على كتفه، ولم تُخْفِ عن أذنيه صوتَ نحيبها.

وعندما تحسس منتقطه، وأدرك أنه لم يفقد الحُق الجلدي الذي يحوي الرسائل، احتواها بحب وشدد ذراعيه حولها مستمدًا منها دفء الحياة، وقرَّت روحه بين أضلعها، وابتسم لقدره الجميل ومستقبله الوليد.

وابتعد صخر بالمركب متجهًا إلى الجنوب؛ ليكمل الرحلة إلى أرض المغرب، ولم تجرؤ سفينة الأعداء على الاقتراب منهم تحت ضوء دفعات السهام المتتالية التي ملأت السماء، وتهديد السلاح الفتاك الرابض فوق سور الحصن.

ابتسم الأمير، وهو يراقب المركب الصغير من فوق سور الحصن، وهو يبتعد عن الخطر. وأهل الحصن يكبرون ويهللون، ويودعون رسولهم إلى بني مرين بالدعوات الطيبة والآمال العريضة أن يستجيب السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور المريني لاستغاثتهم، ويرسل جيشًا لفك الحصار عنهم، وإنقاذ غرناطة مما يحاك بها، وردع الأعداء عن آخر أرض للمسلمين في الأندلس.

❋ ❋ ❋

الخط الفاصل بين الخيال والتاريخ

❋ ❋ ❋

انتهت الرواية

لنعود إلى التاريخ الحقيقي

في عام ٦٧١ هـ، توفي ابن الأحمر حاكم غرناطة، وتولى ابنه محمد الفقيه مكانه، وأرسل رسائل استغاثة إلى المنصور يعقوب المريني سلطان بني مرين التقي الورع محب الدين والجهاد، وأحد أعظم القادة في تاريخ المسلمين؛ فلبى نداءهم، وأرسل لهم ابنه في مدد، ثم عبَرَ بنفسه وفي جيشه مضيقَ جبل طارق؛ لنصرة المسلمين في رمانة الأندلس.

وفي عام ٦٧٤، انتصر المسلمون بقيادة المنصور يعقوب المريني على جيش قشتالة في معركة عظيمة (معركة الدونونية).

تلك المعركة التي أوقفت زحف جيوش الممالك النصرانية على أرض المسلمين، وأبقت على المسلمين في غرناطة لقرنين ونصف من الزمن قبل السقوط.

تمت بحمد الله وفضله

سامية أحمد

14/1/2016

4/ **ربيع الثاني**/1437**هـ**

الساعة الثامنة والنصف مساءً

